الإقطاع الفكري وآثاره

بقلم

الدكتور عبد الحي دياب

دار الشعب

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة

تليفون ٣١٨١٠

الإقطاع الفكري وآثاره

بقلم
الدكتور عبد الحيّ دياب

دار
الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

« ان ممارسة النقد والنقد الذاتي يمنح العمل الوطني دائما فرص تصحيح اوضاعه وملاءمتها دائما مع الأهداف الكبيرة للعمل »

الميثــاق

« من الممكن مقــاومة غزو الجيــوش ، ولكن ليس من الممكن مقــاومة الأفكار »

فيكتور هوجو

الاهـــداء

الى الطلائع الثورية التى ثارت ضـــد القصر والانجليز بزعامة احمد عرابى قائد ثورة عام ١٨٨٢ م

والى الطلائع الثورية التى جاهدت جهاد الأبطال ضد الاستعمار الانجليزى من أجل استقلال وطننا بزعامة سعد زغلول قائد ثورة عام ١٩١٩ م

والى الطلائع الثورية التى قضت على الاستعمار الانجليزى فى مصر ، وتقدمت بالوطن حتى أصبح رائدا للبلاد العربية ، ومنـــارة تهتدى بضوئها البلاد المغلوبة على أمرها فى القارتين الآســيوية والافريقية ... الى هؤلاء بزعامة جمال عبد النـــاصر قائد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

الى هؤلاء جميعا ، والى الذين يستمعون القـــول فيتبعون أحسنه ..

أهدى هذا الكتاب ..

عبد الحي دياب

مقدمة

« يتصل كتاب « الاقطاع الفكرى وآثاره » بالحياة العامة وبسياسة الدولة وفلسفة الحياة التى يستخلصها المؤلف من الميثاق الوطنى ليقارن بين ما يتضمنه الميثاق من مثل وأهداف وبين الواقع الذى لا يزال متخلفا عن تلك المثل والأهداف .

والكتاب مصوغ بأسلوب حاد أحيانا ، ولاذع أحيانا اخرى ، ولكنه ينساب فى تسلسل ووضوح ساخرين ، ولا شك أن خصائص هذا الأسلوب ترجع الى موهبة المؤلف الفنية الساخرة فى تناول القضايا التى يعالجها .

ويدخل هذا الكتاب فيما يسميه الميثاق بالنقد الذاتى ، وان كنت أخشى أن يكون اندفاع كاتبه وجيشان نفسه ، قد أصبغا على الصورة العامة لونا قاتما ، والشباب بطبعه أكثر ميلا الى الشدة والتشاؤم ممن طالت بهم معاشرة الحياة ، فتم بينهم وبينها نوع من المصالحة وقبول بعض هناتها باعتبار أن المثل الأعلى سيظل دائما أملا يسعى اليه دون أن يدرك فى سرعة وسهولة ، كما تتمنى النفوس الشابة » .

من تقرير كتبه الدكتور محمد مندور
للمؤسسة المصرية العامة للتاليف
والترجمة والنشر فى يونيه عام ١٩٦٣

تقديم

من الواجب علينا ونحن نبنى الوطن المفدى أن نختبر الأرض التى كنا نقف عليها فى العهد الماضى ، ونخبرها لنعرف جيدا موقفنا منها على حقيقته ، ويتسنى لنا حينئذ السير قدما الى الأمام نحو الغاية المنشودة التى تهدف الى تحقيق الاشتراكية الحقة للشعب ، وتكافؤ الفرص للمواطنين ، ليصعد الى القمة من هو بها جدير ، ويهوى الى القاع المتباطىء الكسول الذى لم يهيىء نفسه للعمل الجاد المفيد .

والذى لا شك فيه ولا ريب أن الدولة آخذة بهذه الأسباب لتغيير المجتمع تغييرا جذريا ، وتحقيق الاشتراكية بين أفراده ؛ ومن هنا نراها قد عمدت الى تصفية الاقطاع فى مصر ..

والذى لا شك فيه كذلك أن تصفيتها للاقطاع لم تتناول سوى الاقطاع المادى .. الاقطاع فى الأرض وفى الشركات ، وتركت الاقطاع فى الفكر ، مع أن الاقطاع الفكرى فى تصورنا أخطر بكثير من الاقطاع المادى ؛ لأنه لا يمكن أن يتيح للدولة الفرصة لتسير قدما الى الأمام الا اذا تخلصت منه ، وان كان التخلص منه ـ فيما نعتقد ـ عسيرا ، لانه يكمن فى النفوس والأخلاق .. فى نفوس المفكرين وحملة الأقلام ومشاعر هؤلاء وأولئك . وكامن أيضا فى نفوس بعض الدعاة الى المذاهب الفكرية والأدبية .. كامن فى كل هذه الأشياء مجتمعة ومنفردة ! اقطاع فكرى يكاد تضيع معه جهود المسئولين أدراج الرياح ، ويكاد يجذب المجتمع بقسوة وعنف الى الوراء عشرات السنين الى ما قبل الثورة ..

***

ومن هنا كان واجبنا يحتم علينا أن نتتبع جذور هذا الاقطاع فى كل المجالات ، لكى نستطيع اقتلاعها ، وبذلك فقط يمكن أن نطمئن على المكاسب التى ظفـر بها الشعب فى عهد الثورة . ومن ناحيـة أخرى نطمئن على التخلص من العقبـات التى كان يغرسـها ذلك الاقطاع فى الطريق الذى تسلكه ثورتنا مستهدفة العدالة الاجتماعية والسياسية للمواطنين ..

ورائدنا فى هذا الكتـاب الوصول الى مظان هـذا الاقطاع ، والكشف عن حقيقته حتى يفتضح أمره ، ويعرفه أبناء هذا الوطن المفدى فى مظانه السابقة حتى يستطيعوا التخلص منه ، أو على الأقل اجتناب القائمين به والمروجين له .

وبالرغم من أن هذا الاقطاع قد رسمته ـ فيما مضى ـ طبقة متميزة من أهل الفكر والثقافة فى مجتمعنا ، حتى غدت تجعل من تميزها سبيلا الى الحيلولة بين أفكار الآخرين والنور ، وبالرغم من ذلك فانى أؤكد أننى لم أقصد أن أنال من بعضهم أو كلهم ، ولم أهدف بهذا البحث سوى أن أضع يد المصلحين على الداء الذى يتهـدد وطننا بالخطر الداهم الحاطم حتى يسـتطيعوا معالجته فى النفوس والمشاعر ..

وفى اعتقادى أننى بهذا الكتاب سأغضب بعض الرواد مع أن لبعضهم فى نفسى تقديرا واجلالا يصلان الى درجة كبيرة لا يحظى بها آخرون ، وذلك لأنى أعتبر نفسى مدينـا لهم بالأثر الفـكرى على ذهنى ، وبالاستفادة التامة من نتاجهم الأدبى والفكرى .

كما أننى بهذا الكتاب أيضا سأغضب بعض الأساتذة فى الجامعة والزملاء من الصحفيين ، وفيهم الأصـــدقاء ، ومن يشركنى فى العمـــل .. ومن .. ومن .. سيغضب هؤلاء جميعا بالرغم من تأكيدى لهم بأننى لم أقصد النيل منهم ، وسيقولون وسيقولون ، وسيمشى أناس منهم فى المدينة يرجفون فيها بالادعاءات والمفتريات

التى يجيدونها حينما يريد أن يطعن افراد قبيلة افراد القبيلة الأخرى ..

ومن ثم لعل القارىء يشفق على مما سيقرؤه من تعرضى لهذا الموضوع الشائك فى شتى مجالاته ، وفى مظانه الكثيرة ، ذلك لأن موقفى حساس للغاية ، وأنا أتحدث عنه ، لأنه ربما لا تعجب من أن أتعرض لهم فى كتابتى عنهم .

بيد أني أطمئن القارىء المشفق على ، لأنه قد عرض لي هذا الخاطر مرارا ، ولكننى سرعان ما قتلته فى نفسى ، لأن قلمى المتواضع لا يستهدف سوى الحق والخير والجمال فى هذا الوطن الذى هو اغلى من كل شىء عندى .

* * *

وهأنذا اتقدم بحديثى هذا الى المصلحين علهم يلتفتون اليه فى مجال دراساتهم وميدان اصلاحهم ، أما الخوف من الايذاء والمكروه ، والمصائب والأنواء ، والخطوب والأعاصير التى ربما تنتظرنى ممن تعرضت لهم ، فليعلم القارىء المشفق على أنه ليس لها عندى حساب ، لأننى ـ كما قلته ـ لا أبغى بهذا الكتاب غير وجه الله والوطن والحق والخير والجمال .

واليس من الصواب الأصوب الذى يوافقنى عليه القارىء ـ أن نتحسس خطانا ونحن صاعدون الى المجد كى لا نتعثر فى الطريق ؟
اليس من الصواب الأصوب أن نتفهم ما يدور فى دواويننا الحكومية ومؤسساتنا الثقافية ، لكى نتعرف سلوك هؤلاء الموظفين الذين يضطلعون بمهمة تنفيذ توجيهات الطلائع الثورية ، أو يقومون بمهمة توجيه المواطنين وخلق جيل وأجيال ثورية ..

ألا يجوز أن هؤلاء الموظفين الذين يعملون فى المؤسسات الثقافية أن يتصرفوا بما ترسب فى نفوسهم من بذور النظام القديم ؟ .
ألا يجوز أن يصنع بعض منهم هذا الصنيع بالرغم من مضى ستة

عشر سنة أو تزيد ، وبالرغم من مرور سنوات عديدة على صدور دستور الثورة (فلسفة الثورة) ، وبالرغم من خطب رئيس الدولة التى يكرر ويكرر فيها توجيهاته التى توحى بأن المجتمع قد تغير عما كان قبل ذلك .. قبل قيام الثورة .. الا يجوز ذلك من بعض الموظفين ، أو من بعض المهيمنين على أعمال التوجيه الفكرى وتنفيذها .. الا يجوز ذلك منهم فيجوز لنا أيضا أن ننظر فى أعمالهم بعين ثورية فاحصة تستهدف مصلحة الوطن ، قبل أن تستهدف مصلحة فردية .. مصلحة الموظف نفسه ..

الا يجوز أن ننظر الى أعمال هؤلاء بتلك العين الثورية ، أم يجب علينا أن نفترض فيهم العصمة من الخطأ واتباع شهواتهم وأهوائهم ورغباتهم ، وحينئذ نكون كمن يخفى رأسه فى الرمال ، وتكون نتيجة عملنا وسهر طلائعنا الثورية ونضال شعبنا قد تبددت وأصبحت هشيما تذروه الرياح .

ولما كانت العصمة لا تجب الا للأنبياء فقط ، للأنبياء الذين اختارهم الله لرسالاته ولوحيه وهديه ، فانه يجب علينا أن نبعد العصمة من خيالنا ، والا ندخلها فى حسابنا ونحن نتتبع مظاهر الاقطاع الفكرى وآثاره فى مظانها فى ميادين الفكر والأدب .

ومهما يكن من أمر ، فان القارىء المشفق على من تتبعى لمظاهر ذلك الطاغوت الكبير الذى هو الاقطاع الفكرى ، لأن أصحابه لا يتركون من يكشف عن جذوره الخبيثة يعيش فى أمن وسلام ، وذلك لأننى قد انتهيت من هذا الكتاب منذ يناير من عام ١٩٦٢ قبل صدور الميثاق ، ودفعت به الى المسئولين فى « الدار القومية » وقتذاك لتنشره ، لكن الله قد وفقها لرفضه على يد أكثر من مراجع بدعوى أنه لا يجوز أن نهاجم المؤسسات الثقافية والمهيمنين على الثقافة .. وحسنا فعلوا ، لأن رفضهم كان دليلا أكبر ، (الدليل على الاقطاع الفكرى ..) .

وصدر الميثاق ..

وبعد دراسته تنفست الصعداء لأنني وجدته يدعو الى النقد الذاتي ، ومن هنا داعبتني عرائس الآمال في نشره ـ وذلك بعد الاستدلال عليه ، بما في الميثاق مما يتفق ووجهة نظرنا ، ولذلك لا علينا اذا اتجهنا به صوب مؤسسة اخرى في أواخر عام ١٩٦٢ ، وهي مؤسسة التأليف والترجمة والنشر ، ودفعت بالكتاب الى احد اعضاء مجلس الادارة الخاص بالتأليف ، وأحاله على الدكتور محمد مندور لمراجعته » وكتب الدكتور مندور تقريره ، وقبل أن يرسله الى المؤسسة قمت بنشر آثار الاقطاع الفكري . أو ما سميته آنذاك بالقبلية النقدية والفكرية في مصر ، ونشرت هذه السلسلة في مجلة الآداب البيروتية ، وكان طبيعيا وأنا أتناول القبائل النقدية والفكرية أن أتعرض لجمعية هو أحد اعضائها المؤسسين ، ذلك العضو المسئول في المؤسسة عن التأليف فغضب وثار ثورة جائحة ، فلما جاء التقرير وفيه يشيد الدكتور مندور بالكتاب .. رفض المسئولون في المؤسسة آنذاك طبعه على الرغم من اشادة الدكتور مندور ، واخذت الكتاب بعد هذه الجولة التي استمرت ستة شهور أو تزيد ..

ثم كانت هناك محاولة لنشره في أواخر عام ١٩٦٥ ، حينما أسلمته إلى الدكتور عز الدين فريد وكان اذ ذاك وكيلا لوزارة الثقافة ومشرفا على الدار القومية ، وظل الكتاب يخرج من يد لتتلقفه يد أخرى حتى استقر أخيرا في يد الدكتور سليمان حزين وزير الثقافة آنذاك ووقف يدافع عن الكتاب وعما يحتويه من جرأة فكرية تحاول أن تشخص عللنا وعوراتنا الفكرية ، لكن دعاة البطالة ، أو ان شئت فقل : المرتزقة في عالم الفكر وقفوا يثبطون من همة الوزير ، ويحاولون تعليل عدم نشره بأن هذا ليس وقته ، وبأن فيه تناولا لأسماء بصراحة .. وراحوا يبدئون ويعيدون بحجة خوفهم على الوزير نفسه » ولو صدقوا لخافوا على انفسهم ، لأن الكتاب

يكشفهم ويكشف أمثـــالهم من كل بطانة تقف على باب الوزراء ، وتمركز كل حاجة حول أنفسهم مع أنهم لا يملون شيئا ، وانما يستولون على أشخاص من ذوى الضمائر الذين لا يعرفون سوى العمل فيقومون بالعمل على حين ينســـبه المرتزقة الى أنفسهم وما عليهم الا أن يصادقوا أقرب الناس الى الوزير كالسكرتير والمدير والمستشار ، والصداقة معناها فى عرف هؤلاء : ليالى الصفاء التى تحفها النساء بطلعتهن والكئون برغوتهـا و .. و .. الى آخر ما يمنحهم الليل من صفاء ، والضمير من انطواء ومغيب . وها هو الكتاب بعد أن حذفت منه تقويمى لبعض الأشخاص ، وبعـد أن نظرت فيه وأعدت النظر ، وأضفت اليه وحذفت منه .. ها هو الكتاب أو ان شئت أيها القارىء فقل : هذه هى الحركة الفكرية من الخلف .. من الزوايا التى لا يعرفها الكثيرون أقدمها لك أيها القارىء بوصفك صاحبها .

*****

حينما رأيت أن أواصل نشر آثار الاقطاع الفـكرى فى مجلة الآداب البيروتيـة ، وتعرضت فيها الى بعض أســاتذة الجامعة كالدكتورة سهير القلماوى والدكتور يحيى الخشاب والدكتور رشاد رشدى ، وقمت بعملية تقويم لانتاجهم الأدبى والفكرى ، وتساءلت فى النهاية : هل هذا الانتاج يؤهل هؤلاء للهيمنة على المؤسسات الفكرية أو الفنية ، أم أن القبلية النقدية فى صميمها وأسوئها هى المسئولة عن تلك الهيمنة .

حينما كتبت ذلك كتبته وأنا أعلم أننى أتعرض لأشخاص ليسوا من الناس الذين يتسمون بضيق الأفق ، لأنهم جامعيون ويعلمون أن الرأى يعارض بالرأى ، والحجة بالحجة ، ولكن الدكتورة سهير القلماوى تقول بغير ذلك ، لأن منطقها يقضى بأن تصادر أعمـــال الآخرين الذين يتعرضون لها بالنقد ما دامت الدولة قد أحلتها فى مواضع القيادات الفكرية مثل المؤسسة العامة للتأليف والنشر .

اذ أنها حينما جاءت المؤسسة رئيسة لمجلس ادارتها ووجدتني أحد الموظفين فيها ، كان أول عمل مجيد قامت به هو العمل جاهدة الى انتدابي أولا .. وبعد عام من الانتداب عملتني زائدا عن الحاجة في مؤسسة التأليف على نحو ما قررناه في آثار الاقطاع الفكرى في الفصل الأخير . وعلى أية حال فانني سعيد بأمثال هذه التصرفات ، لأنها خير دليل على صدق نظرتنا في وجود هذه الظاهرة .. ظاهرة الاقطاع الفكرى بأجلى معانيها .. وسعيد أيضا بأن نقدنا قد لمس فيمن تعرضنا لهم موضع العلة من نفوسهم ، ومن هنا فعلوا ما فعلوا ، وسيفعلون ما يفعلون ، ولكننا نؤكد لهم أنهم لن يصلوا بفعلهم هذا الى نفوسنا ، لأنها لما تمرض بعد ، ولن تمرض باذن الله ما دمنا متجهين بنقدنا هذا اتجاه الحق والخير والجمال .



ثم وقعنا فيما نبهت عليه .. وقعنا في مراكز قوى ليست مقصورة على الفكر والأدب فحسب ، بل في كل ضروب الحياة ، وحدث ما كنت أخاف أن يحدث في بلدى ، ولم أك يومذاك أستطيع الكتابة ، لأنني أوثر أن التزم اطار سياسة الدولة العليا فلا أخوض فيه ، ولكنني أراقب التنفيذ .. تنفيذ الوزراء ورؤساء المؤسسات لهذه السياسة ..

وكان لا بد من بناء جديد للوطن .. وكان لا بد من تغيير للوجوه التي أساءت الى الوطن الذى أولاهم كل ثقته .. كان لا بد من هذا .. وأعيد تشكيل الاتحاد الاشتراكي كتنظيم سياسي ، وكان لا بد أن أسهم في هذا الصدد بمحاولة اكتشاف الجذور الخبيثة في فكرنا المعاصر للعمل على استئصالها ، فحاولت وحاولت في هذا الكتاب حتى يخرج بصورة مرضية لا تهدف الى نقد الأشخاص بقدر ما تهدف الى نقد الأنماط .. كالوزراء ورؤساء المؤسسات الى آخره ..

وفى اعتقادى أن بنــاء الأمة عن طريق نقد سلوكنا فى أعمالنا أوجب الامور فى هذه الآونة التى نجابه فيها العدو الذى أعتــدى على حرمات أوطاننا العربية .

اقول أوجب الأمور ، لأننى أومن أن الهزيمة فى معركة عسكرية ليست هزيمــة ، لأن الحرب سجال دائما ، ولكن الذى يحــز فى نفوسنا ويؤلمنا جميعا نحن أرباب القلم هو أن الشعب ، لم تتضح الرؤية أمامه بعـــد نظرا لما يراه من ضـــياع توجيهات القـــادة السياسيين .. ومعنى هذا أن الشعب يضـــيع فى زحام المطامع والشهوات لدى هؤلاء .. وتتفتت وحدته ، ويفت فى عضـــده ، ويصبح غير قادر على مجابهة الحوادث والحروب .

واذا عرفنا أن الحروب تقوم على شعب أولا وجيش ثانيــا ، يرى القارىء فداحة الخطب حينما يقوم هؤلاء الأحلاس بأفعالهم هذه التى تهدف أول ما تهدف الى تمييع شخصية الشعب ، عن طريق انتشار مفاسد الوساطة وغيرها مما كان منتشرا فى العهد الماضى ..

من هنا وجدت أن الباعث الوطنى – الذى كان يدفعنى الى قيادة الجماهير عن طريق الخطابة – يدعونى الآن الى الاسهام فى اعادة البناء وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت اليه .

* * *

على أن منهجنا فى هذا الكتاب يقوم على تتبع نشأة هذا الاقطاع الفكرى فى مصر ، ثم استعراض ألوانه من خلال المظاهر والحالات التى تدل عليه فى كل جانب منه ، ودراسة هذه المظاهر وتحليلها ، ومحاولة ردها الى بواعثها فى مجتمع العهد الماضى ، وأخيرا عرض ما أعتقده مجديا من وسائل المقارنة . ثم تتبع آثار الاقطاع الفكرى فى النقد والنقاد والحل الذى نراه مجديا للتغلب على هذا الاقطاع الفكرى ..

أما مصادر هذا البحث فتعتمد على ما يأتى :

١ ـ ما سجلته الصحافة المصرية من معارك فكرية ، وما أخرجته المطابع من نتاج فكرى يحمل وجهات نظر متعددة .

٢ ـ معرفتى للكثير من الأدباء والمفكرين عن كثب ، والاطلاع على جوانبهم الفكرية والأدبية وغيرها .

٣ ـ ما شاهدته طوال حياتى الصحفية من مظاهر هذا الاقطاع فى بعض المؤسسات الثقافية ، وما وعته الذاكرة من المآسى التى تقع لبعض الأدباء والنقاد من جراء ذلك الاقطاع البغيض ..

على أننى مدين فى هذا الكتاب بالشكر الى الدكتور عبد الحميد يونس على ما بذله من جهود متواصلة فى مراجعة هذا الكتاب ، وما أسداه الينا من توجيه ابان قراءته له فى أواخر عام ١٩٦١ ، أى قبل صدور الميثاق ..

وعلى أية حال فهذا كتابنا بين يدى القارىء فيه خلاصة تجاربنا فى الصحافة والتعليم والكتابة ، وفيه كذلك ما ارتأيناه فى المشاكل التى نجمت عن الاقطاع الفكرى ، وقد يكون فهمنا لهذه القضايا متفقا والحقيقة ، وقد يكون مختصما لها .

ومهما يكن من أمر ، فان هذا الكتاب سيلقى من المدح القليل ، ومن القدح الكثير ، لأنه ذاهب الى بحر لا ينضب ماؤه . غير أن الذى يشفع لنا ازاء المدح والقدح معا أننا نقول ما قلناه سابقا : اننا لم نقصد به سوى وجه الله ، والوطن ، والحق ، والخير ، والجمال .

د. عبد الحى دياب

الروضة فى ١٩٦٨/١١/٨

الفصل الأول

نشأة الاقطاع الفكرى

« ولسوف يبقى الوطن زمانا طويلا يشعر في حلقه بمرارة الذل الذى أحسه في هذه الفترة المتأزمة من جراء استهانة الاستعمار بنضاله استهانة فاقت كل حدود الاحتمال البشرى »

الميثـاق

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن نشأة الاقطاع الفكرى فى مصر أن نقف على مفهومه ، لأنه لا يمكننا الحديث عن نشأة الشيء قبل أن نتعرف على حقيقته ما هى ، وما المقصود بها ، ولعل ذلك فوق هذا وذاك يتفق والمنطق الصحيح لطبائع الأشياء .

وما دمنا قد رسمنا لأنفسنا أن نتحدث عن مفهوم الاقطاع الفكرى كما نتصوره فمن واجبنا أن نتعرض أولا وقبل كل شيء الى معنى كلمتى « اقطاع ، وفكر » .

ومن سوء الحظ أن معاجمنا العربية لا تزال على حالتها القديمة بالنسبة لمعانى الكلمات التى خرجت بها ، بالرغم من تطور الكلمات فى الدلالات والمعانى والمصطلحات ، وأرى أنه لا بد لتلافى هذا النقص فى معاجمنا أن يعنى اللغويون بوضع المعاجم التاريخية التى تبين معانى كل لفظ فى كل عصر ، كما تحدد المصطلحات فى كل بيئة ، مستهدين بذلك مصنفات الكاتبين ، ذاكرين تواريخها ، مستهدين بعباراتهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلا .

* * *

وليس من شك فى أن كلمة اقطاع « القاموسية » تشير الى ذلك المدلول الحسى للكلمة ، يدلنا على ذلك « قطع الطريق اخافه لأخذ اموال الناس ، وهو قاطع الطريق ، والجمع قطاع ، وهم اللصوص الذين يعتمدون على قوتهم .. واقطعته البلد اقطاعا جعلت له غلتها رزقا » .

ولم تتحدث القواميس العربية عن التطور الذى حدث للكلمة بعد ذلك حتى أصبحت مرتبطة الى جانب المفهوم اللغوى بمفهوم

اقتصادى ، وآخر سياسى فى عصرنا الحديث . ومن المقطوع به كذلك أن القواميس كما قد وقفت ازاء كلمة اقطاع جامدة هامدة ليس بها حراك ، فقد وقفت مكتوفة اليدين بالنسبة للتطور الدلالى الذى حدث لكلمة « فكر » فالفكر فى قاموسنا هو اعمال النظر فى الشىء ، وتردد الخاطر فيه بالتأمل والتدبر ، يطلب المعانى ما يخطر بالقلب منها ، « ولى فى الأمر فكر » أى نظر وروية ، والفكرة والفكرى أعمال الخاطر فى الأمر ، والفكر والفيكر والفكير : الكثير التفكير » .

* * *

ومن هنـــا يتضح ان التركيبة اللغوية لهاتين الكلمتين بالمعنى القاموسى المحدد لهما قد لا تكون جائزة لغويا . غير اننا نشير الى مدلولها الحـــديث الذى نحســـه جميعا مع التفاوت فى تمثـــله والافصاح عنه .

وخير من هذا أن نقول : اننا لا نقصد بالاقطاع الفكرى أن يقطع انسان ما فكر انسان آخر ، لأنه فضلا عن أنه لم يحصل ، فانه غير جائز ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن نتصوره .

وخير من هذا أيضـــــا أن أقول : اننى لا أقصد من الاقطاع الفكرى ، تحصيل قدر كبير من الثقافة لانسان ما ، لأنه ان كان على هذا النمط فانه يصبح محمودا ، لا غضاضة فيه ، بل يقبل الناس على الأخذ به ، ولا نغلو فى الحقيقة ، ولا نكون مجاوزين للصواب اذا قلنا يا حبذا لو استطاع أكثر المواطنين أن يكونوا اقطاعيين للفكر بهذا المعنى .

وانما أقصد بأن الاقطاع الفـــكرى يأتى لمن حصـــل قدرا من الثقافة حينما يقطع الطريق على أى مفكر آخر ، وذلك عن طريق هيمنته على بعض المؤسسات الثقافية ، أو يفرض آراءه ومعتقداته على الناس منـــذرا كل من يتجاسر على مخالفتها بالويل والثبور وعظائم الأمور ، أو ينسب الرئيس فى ديوان من الدواوين انتـــاج

مرءوسيه الفكرى لنفسه ، على مرأى منهم ومسمع ، وهم لا يستطيعون فى هذه الحالة أخذ حقهم ، أو حتى الاعتراض على ذلك ، وان كان نصيبهم من ذلك التشريد فى كل بعيد ، والتحقيقات الطوال ، والمصائب الجسام ، التى لم تدر يوما ما بخلدهم ، لقلة تمرسهم بألاعيب الرؤساء ومكائدهم .

على أن هناك صورة أخرى للاقطاع الفكرى ، تتجلى فى ذلك الصحفى الذى يخاف الناس لسانه ، ولذلك يقدمون اليه الهبات ، والعطايا ، والمنح المشروعة وغير المشروعة .

والاقطاع على هذا الوان شتى تبدو فى أكثر من صورة ، كما تبدو فى أى مناسبة ، وفى أى مؤسسة ، أو فى أى صحيفة أو مدرسة أو غير ذلك ..

هذا هو مفهوم الاقطاع الفكرى كما يبدو لنا ، ولكننا لا نعرف من اى وقت نشأ هذا اللون فى مجتمعنا على وجه التحديد . غير انه يمكننا أن نقول فى أمر هذه النشأة ان هذا اللون من الاقطاع قديم قدم الاستعمار فى هذا الوطن المفدى سواء أكان استعمارا تركيا أم استعماريا فرنسيا أم انجليزيا .

فنحن نعلم أن الاستعمار التركى لم يكن يستخدم المصريين فى الأمور التى هى من شأن المصريين فى تقرير مصيرهم ومصالحهم وغير ذلك ، وانما كانوا يعتمدون على الأتراك الذين جاءوا الى مصر حينا ، والمماليك أحيانا وهم أخلاط من الأتراك والشراكسة . وحسبنا أن نعلم أن الأتراك قد نقلوا أكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس الى بلادهم ، وليس هذا فحسب ، بل تجاوزوه الى نقل كثير من العلماء والأدباء والأمراء والمهندسين ، والناشرين وأرباب الحرف ، وقد بلغ عدد هؤلاء وهؤلاء ممن نقلوهم حوالى ألف وثمانمائة على تقدير ابن اياس الجركسى ، وقد لقى كثير منهم

حتفه قبل أن يصل الى تركيا ، وذلك لغرق بعض السفن التى كانت تقلهم .

* * *

ومن ناحية أخرى فانهم فرضوا اللغة التركية على البلاد ، بل انهم قد اعتبروها اللغة الرسمية فى الدواوين حتى فشت على السنة الناس . وفى الوقت نفسه نجد أن العربية قد توارت من الوجود ، اللهم الا من كانوا يستعملونها فى القرى استعمالا عاميا . أما فى المدن فقد كان الكثيرون يتعلمون التركية بحيث اصبحت لهم لسانا يتحدثون به ويكتبون . ومن هنا نرى أن هذا التصرف من جانب تركيا قد أثر على حياة المصريين الفكرية ، وجعلهم يتخلفون عن سواهم من الأمم التى كانت مصر لها مصدر الهام واشعاع .

* * *

وظلت الحال كذلك طوال حكم الأتراك فى مصر ، فلم ينبغ فيها تقريبا عالم أو طبيب ، ولا شاعر أو أديب كبير ، وتدهورت الحالة الاجتماعية والأدبية ، لأنها مرآة للحياة السياسية الى حد كبير .

ونكاد نقول ان هذه السيطرة التركية لم تفارق مصر حتى بعد أن دانت لمحمد على وأسرته ؛ اذ ظل الأتراك المقيمون بمصر يرون انهم سادة هذه البلاد ، ويتعصبون لجنسهم فى مصر التى يأكلون من خيراتها ويرتوون من نيلها .

* * *

ويتضح مما سبق أن هذه السياسة التركية فى مصر قد قضت على عوامل الابداع عند المصريين ، وأفقدتهم كل شىء حتى الثقة فى أنفسهم ، وظلوا يلجئون فى أمورهم الخاصة والعامة الى الباب العالى ، ويدعون للسلطان بالنصر كما يقولون .

ولم يكن الاستعمار الفرنسي بأقل خطرا من الاستعمار التركى ؛

اذ أن الفرنسيين قد بذلوا غاية جهدهم فى تقريب المصريين اليهم ، وترغيبهم فى أسباب الحضارة ، وتعويدهم عاداتهم فى الحياة التى يحيونها بكل ما تشتمل عليه من مأكل ومشرب وملبس ، كما انهم أخضعوا حكومة مصر لطرق الادارة الفرنسية .

وبجانب ذلك فانهم سيطروا على الطبقة المستنيرة من المصريين حتى أصبح هؤلاء دعاة للتفكير الفرنسى والحضارة الفرنسية فى مصر حتى بعد أن رحلت الحملة عنها .

غير أن هذا لم يكن هو كل ما صنعه الفرنسيون فى مصر ، لأنهم انشأوا المدارس الفرنسية والجمعيات العلمية التى ظلت تنشر الثقافة الفرنسية فى مصر حتى يتم لهم الغزو الأدبى ، والتمكين للغتهم فى مصر .

وحسبنا فى هذا المقام أن نعلم أن الآباء العزارين قد اسسوا أول مدرسة فرنسية بمصر فى عام ١٨٤٤ ميلادية ، ثم جاء « الفرير » واسسوا أول مدرسة لهم سنة ١٨٤٥ ، وتوالى تأسيس المدارس الفرنسية فى مصر على هذا النمط وقد قصدها آلاف من الطلبة المصريين حتى بلغ عددهم فى عهد اسماعيل ما يربى على ثلاثة آلاف طالب وطالبة ، وفى سنة ١٩٣٦ بلغ عدد طلاب هذه المدارس اكثر من اثنين واربعين الف تلميذ وتلميذة .

* * *

ولعل هذا الاهتمام البالغ من جانب فرنسا بالتعليم الفرنسى فى مصر ، هو الذى جعل انجلترا ـ قبل ان تأتى الى مصر محتلة لها ـ تتجه هى الأخرى الى نشر نفوذها الأدبى عن طريق الارساليات التبشيرية والتعليمية بمصر ، ولذا فانها أرسلت البعثة الاسكتلندية البروتستانتينية وفتحت لها مدرسة بالإسكندرية ، وتلتها بعثة

(١) تقرير وزارة التربية سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ .

أخرى فى عام ١٨٦٠ برئاسة (مس وتلى) كريمة كبير أساقفة (دبلن) .

وبجانب هذه الجهود من قبل انجلترا لنشر الثقافة الانجليزية ، فان جهودا أخرى بذلتها البعثة الأمريكية فى عام ١٨٥٥ ، تلك البعثة التى أيدتها الأموال الطائلة حتى استطاعت لذلك أن تؤسس فى كل عاصمة من عواصم القطر ، بل كل مركز من مراكزه فرعا لمركزها الرئيسى بالقاهرة ، حتى وصل عدد مدارسها فى عام ١٩٣٢ الى ما يزيد عن اثنين وأربعين مدرسة ، بها ما يزيد على ٦٩١٤ تلميذا وتلميذة (١) .

* * *

وكان لنشاط هذه المدارس الأجنبية أثر على التعليم المصرى الصميم ، **اذ اتجه الأغنياء من هذا الوطن الى التعليم الأجنبى فى بلدنا ، وذلك ليتعود أبناؤهم وبناتهم الحياة الأوربية ، والتفكير الأوربى فيصبح بينهم بين سواد الشعب حائل كثيف من حيث الأخلاق والعادات والتفكير ، بل ان بعضهم لا يسوؤه أن يجاهر فى وقحة بالغة بانه لا يعرف العربية ، لأن لغته التى يتحدث بها هى الفرنسية ، أو الانجليزية حسبما يتفق والمدرسة الأجنبية التى تعلم فيها .**

* * *

ونضيف الى ذلك جهود المستر (دانلوب) الذى أسلمه (كرومر) قيادة التعليم فى مصر عام ١٩٠٦ قبل أن يغادرها .. اذ قيد المستر (دانلوب) التعليم بقيود شنيعة من القوانين الصارمة ، لا يحيد عنها ، ولا يعرف سواها ، وكان لسياسته تلك الأثر البالغ فى افساد التعليم المصرى ، والرجوع به الى الوراء ، **لأن همه من** تلك السياسة أن يخرج طبقة من الموظفين الحكوميين ، لم يتعمقوا فى

---

(٢) المرجع السابق نفسه .

الدراسة ، ولا يصلحون للقيادة الفكرية بل يكونون آلات فى أيدى رؤسائهم من الانجليز وأتباعهم من المصريين ؛ ومن هنا نرى أن هؤلاء الوظفين ، قد انطصرفوا الى تملق الرؤساء وأصحاب الحول والطول والجاه .

* * *

الاقطاع الثقافى :

واذا كنا قد علمنا أن المدارس الأجنبية ، لم يفد اليها الا الأثرياء ممن يلوذون بالحكام ، أو من أبناء الحكام أنفسهم ، لكى ينشئوا نشأة بعيدة كل البعد عن النشأة التى ينشأ عليها أبناء الشعب ممن يتلقون التعليم فى المدارس الحكومية ، واذا صح أن هؤلاء الأغنياء هم الطبقة المرموقة فى المجتمع المصرى ولأنهم الحكام من ناحية ، أو الذين يعاونون الحكام ويتبعونهم فى سهراتهم وغدوهم ورواحهم كما يتبع الظل صاحبه .. فان مقدرات الوطن الاقتصادية كانت بأيدى هذه الفئة الباغية ؛ ومن هنا كان يمكنهم أن ينفذوا ما يعتقدونه ، أو مايوجهون اليه من المستعمرين .

ولا عجب اذن ـ بعد أن نعلم هذا ـ أن نرى الاستعمار فى كل مراحله يعتمد على هذه الطائفة التى تمثل حفنة قليلة من الشعب تربط مصير كل شىء فى الوطن برغبة السادة المستعمرين .

ولا عجب أيضا أن نرى فى الوقت الذى يصلح الانجليز من شأن مدارسهم الأجنبية عندنا فى وطننا . فى نفس هذا الوقت يتوجهون بجهود الجبابرة الى افساد التعليم المصرى الصميم على يد المستر (دانلوب) . وفى نفس الوقت أيضا نراهم ينظرون بعين الريبة الى نشاط الفرنسيين فى نشر ثقافتهم فى مصر مستجيبين فى ذلك لنصيحة نابليون التى يقول فيها ((**علموا المصريين اللغة الفرنسية ، ففى تعليمها خدمة الوطن الحقيقية**)) . فى ذلك الوقت رأى كرومر أنه لن يطمئن بهذه الديار الا اذا عمل على اضعاف هذا النفوذ الفرنسى الثقافى ، ومكن للغة الانجليزية ، وأجبر المصريين على تعلمها وجعلها اللغة الأولى فى البلاد ؛ ومن هنا قرر الغاء ارساليات

البعثات الى فرنسا مرغما الحكومة المصرية على ذلك ، وصدر به قرار في اواخر اغسطس عام ١٨٩٥ ، قوبل بضجة صاخبة من الجرائد المصرية والفرنسية على السواء (١) .

* * *

وفي اعتقادنا ان هذا الصراع بين اللغتين الفرنسية والانجليزية كان على حساب اللغة العربية ، لأن لغة التعليم أصبحت اللغة الانجليزية ، وحرمت مصر آنئذ من البعثات الي الخارج ، ومن التعليم العالى الصحيح ، وامتدت يد الانجليز للغة العربية في كل مكان ، ولم يبق أمامها سوى مدرسة واحدة ظلت اللغة العربية فيها تتمتع بشيء من القوة النسبية تلك هى (دار العلوم) ، لم تستطع تلك اليد الانجليزية العابثة أن تصبغها صبغة انجليزية ، وذلك لتدخل الشيخ محمد عبده الذي كلم (كرومر) في هذا الشأن ، فكف عن ذلك . على أن الانجليز لم يستطيعوا أن يقضوا على اللغة العربية ، لأنهم لم ينجحوا الا في تخريج جيل من المتعلمين في المدارس بجيد الانجليزية أكثر من اجادته للغة العربية لغته القومية .

بيد أن الباحث في هذا الموضوع يروعه ما شجر بين هذا الجيل ، والذين تخرجوا في المدارس الفرنسية من تناظر بدا فيه ضعف الاحساس بالذاتية العامة الى حد عجيب . فقد انقسموا بحكم ثقافتهم الى سكسونيين ولاتينيين ، فجعلوا بذلك أساس الخلاف الذى يقوم على مزاج أمم لا صلة لها بأمتهم ، ومهما يكن اتصالهم بتلك الثقافات فهو اتصال عارض لا يمكن ان يؤثر في وراثاتهم وبيئاتهم التى نشأوا فيها وارتدوا اليها (٢) .

على اننا نوضح أكثر من هذا فنقول ان هذه المناظرة التى قامت بين طه حسين والعقاد كانت تدور حول اصالة اللاتينيين

(١) المؤيد عدد ٢٣ سبتمبر سنة١٨٩٠ ، ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى ط ثانية ص ٦٠.

(٢) طه حسين : لاتينيون وسكسونيون . مجلة الرسالة السنة الاولى العددان ٢ ، ٣ في ١ – ١٥ فبراير سنة ١٩٣٣ وراجع كذلك : الاسس الفنية للنقد الاولى ص ٩ للدكتور عبد الحميد يونس .

فى النقــد أو السكسونيين ، وكل منهما يحاول جاهدا أن يثبت وجهة نظره فى المسألة ، وينتصر لمن تزود بمعارفهم ؛ ومن هنا كان طه حسين فى جانب اللاتينيين ، والعقاد فى جانب السكسونيين ، مما دعا أستاذا كالدكتور عبد الحميد يونس الى أن يقرر أن هذا الموضوع لا يصلح للمناقشة ، ولا تنتهى فيه المناقشة الى نتيجة عملية .. وفيه أيضا تناس لذاتيتنا العامة والاحساس بها (١) .

* * *

وبجانب ذلك فان الانجليز قد أخفقوا فى التــأثير على الجيل الماضى الذى كان مسيطرا على الصحافة ، وهى مدرسة الشعب . ومن هنا فانهم شنوا حملة شعواء على اللغــة العربية الفصحى زاعمين أنها سبب تأخر المصريين فى الابتكار الأدبى والعلمى ، وأن الأولى للمصريين أن ينهضوا باللغــة العامية حتى يســايروا ركب الحضارة لأنها لغة حية ، دائمة التجدد ، ويفهمها جمهور الشعب ، ولذا فان (وليام ولكوكس) نصحهم باتخاذ العاميــة أداة للتعبير الأدبى ، اقتداء بالأمم الأخرى ، واستشهد بالأمة الانجليزية ، وقال : انها أفادت فائدة كبيرة منذ هجرت اللاتينية التى كانت لغة الكتابة والعلم يوما ما .

* * *

وقد أثارت هذه الحملة الجائرة سخط الأدباء والكتاب حتى ان حافظ ابراهيم أنشد قصيدة فى هذه المأساة التى توشك أن تدمر اللغة العربية ، وقد قال قصيدته على لسان اللغة الفصحى (٢) :

رجعت لنفسى فاتهمت حصــاتى
وناديت قومى فاحتسبت حيــاتى

رمونى بعقم فى الشــباب ، وليتنى
عقمت ، فلم أجزع لقــول عداتى

(١) الاسس الفنية للنقد الاولى ص ٩ ط أولى دار المعرفة سنة ١٩٥٨ .
(٢) من خطبة له ألقاها بنادى الازبكية سنة ١٨٩٣ .

ولدت ولما لم أجد لعرائسى
رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
انا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى
فيا ويحكم ابلى وتبلى محاسنى
ومنكم وان عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فاننى
أخاف عليكم أن تحين وفاتى

* * *

أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوما علمتم
بما تحته من عثرة وشتات
ارى كل يوم بالجرائد مزلقا
من القبر يدنينى بغير أناة
وأسمع للكتاب فى مصر ضجة
فأعلم أن الصائحين نعاتى
أيهجرنى قومى ـ عفا الله عنهم ـ
الى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة
مشكلة الألوان مختلفات»

الى معشر الكتاب والجمع حافل
بسطت رجائى بعد بسط شكاتى

فاما حياة تبعث الميت فى البلى
وتنبت فى تلك الرموس رفاتى

واما ممات لا قيامة بعده
ممات لعمرى لم يقس بممات

وهنا نرى أن حافظا قد بسط تلك المشكلة ، وانحى على العامية باللائمة فى الوقت الذى بين فيه مزايا الفصحى .

* * *

غير اننا اذا أمعنا النظر فى اللهجات العامية ـ كما يقول الدكتور عبد الحميد يونس ـ لوجدناها عربية الأصل ، وذلك لأن فيها شبها عظيما بالفصيح . ومن ناحية أخرى فان هناك تماثلا بين هذه اللهجات فى مصر وبين اللهجات فى العالم العربى ، ومعظم الخلاف يعود الى توزيع القبائل العربية على ريف مصر وصعيده (١) .

* * *

ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الحملات على اللغة العربية الفصحى ـ مهما قيل فى العامية المصرية من أرومتها العربية الصحيحة ـ أنها كانت سببا فى يقظة قومية ؛ اذ تنبه نفر من الناس الى الأخطار المحدقة باللغة العربية الفصحى ، وانتهزوا فرصة تولى سعد زغلول وزارة المعارف ، وقدموا اقتراحا قد

---

(١) من حديث شخصى مع الدكتورعبد الحميد يونس فى اول ديسمبر عام ١٩٦١

الجمعية التشريعية يقضى بارجاع اللغة العربية الى المدارس ، وابطال التعليم باللغة الانجليزية .

* * *

من هذا كله نرى ذلك الصراع الدامى بين الفرنسية والانجليزية من جهة ، وبينهما وبين العربية من جهة أخرى ، وذلك الصراع انما هو من أجل التوجيه القيادى للفكر والثقافة فى هذا الوطن .

وقد تكون العربية قد عادت الى التعليم ، واصبحت لغة التعليم ، وتوارت الانجليزية من أن تكون لغة التعليم ، قد يكون ذلك كله ، أو بعضه متحققا ، لكن الذى لم يكن ابدا أن تفقد الانجليزية أو الفرنسية نفوذها ، اذ تعصب لكل منهما فريق من أثرياء البلد الذين أقعدهم الانجليز فى مقاعد الحكم ، والذين كان بيدهم التوجيه الفكرى والقيادى لسواد الشعب ، فكنت ترى أن المصريين — وليسوا كلهم — يتهافتون على المدارس الأجنبية ليودعوا أبناءهم وبناتهم فيها ، كما تتعلم الطبقة الأرستقراطية . وليس هذا عجيبا الى حد ما . انما العجب يأتى بل يتضاعف حينما يسيطر خريجو هذه المدارس — بحكم تمكين طبقتهم فى مقدرات الشعب — على الوظائف والمؤسسات القيادية .

* * *

الصراع الحزبى :

هذا ولم يكن الصراع الثقافى الذى بذره الاستعمار بيننا ، وتحطيم لغتنا سببا فى الاقطاع الفكرى فحسب ، بل ان هناك صراعا حزبيا نجح الاستعمار فى خلقه بين المصريين ، وهو ذلك النوع البغيض الذى كان يحدث بين الأحزاب أيضا . وهنا يحق لنا أن نتساءل : ممن تتكون تلك الأحزاب ؟ ؟

أليست تتكون من الطبقة الاقطاعية من الحكام وكبار أثرياء الأرض والمال والعصبية القبلية . نعم تتكون من هؤلاء . ومن

هؤلاء انفسهم تكونت طبقة أخرى تشكل نفسها داخل احزاب لتصنع من نفسها اقطاعا آخر أساسه التميز الفكرى ، بحيث كنت ترى أن لكل حزب معاونيه الذين يتولون الدفاع عنه ، ويتحدثون باسمه . والى هؤلاء كانت تتجه الأنظار الى خطبهم ومقالاتهم فيؤمن بها المنتمون الى الحزب ، وذلك بعد أن يوصدوا أمام عقولهم كل منفذ للتفكير . ومن هنا كانت القيادة الفكرية يسيطر عليها فريق من الاقطاعيين الذين يسيرون دفة الأحزاب فى مصر .

ومما يؤيد ما ذهبنا اليه ما ذكر فى الميثاق (١) من أن الذين رفعوا الشعارات الوطنية بعد ثورة عام ١٩١٩ هم كبار ملاك الأرض الذين كانوا دعامة التنظيمات الحزبية القائمة ، وأشركوا فيها بعض الانتهازيين الذين اجتذبتهم عملية تقسيم الغنائم بعد انتكاسة الثورة ، ولقد ظهرت فى هذا الجو فئات طفيلية .

لقد استطاع هذا الانحراف أن يجلب الى الجو الحزبى الفاسد جماعات من المثقفين ، كان فى قدرتهم أن يكونوا حراسا على أمانى الثورة الحقيقية ، لكن الاغراء كان أقوى من مقاومتهم .

ثم انتهى المطاف بهذه الأحزاب جميعها الى الحد الذى دفعها للارتماء فى أحضان القصر تارة ، وفى أحضان الاستعمار تارة أخرى ، وفى الواقع كان القصر والاستعمار بحكم مصالحهما فى صف واحد ، وان بدت الخلافات السطحية بينهما فى بعض الظروف .

لكن الحقيقة الكبرى أن كليهما كان يقف فى الصف المعادى لمصالح الشعب والمضاد لاتجاه التقدم .

ولعل فى وصف الميثاق لما كانت عليه الأحزاب فى مصر فى تلك الفترة الغابرة أصدق دليل على أن هذه الأحزاب لم تكن الا مباءة للفساد والانحراف عن مطالب الشعب وآماله وأمانيه ، وأنها لم تكن تعمل الا من أجل أناس بأعيانهم ، مهملة مصلحة الوطن العليا

(١) الباب الرابع ص ٢١

التى كانت تزعم أنها تهـــدف اليها فى كل ما تدعيـــه من أقوال وشعارات . وهل عقمت مصر فليس من بنيها رشـــيد يثور على هذه الأوضاع ؟

والاجابة لا تلبث أن تبــــدو فى صورة تهديدات ذلك التركى المتمصر للصحف دوما . ومن هنا فقد سد الطريق على فتية آمنوا بوطنهم وبحريته وبكرامتـــه ، وراحوا يلتمسون نشر أفكارهم فى الصحف رجاء أن ينتفع بها الناس فهالهم أن يجـدوا الطريق الى النشر موصدا أمامهم ، ومفتاحه بيد شاعر البـــلاط كما كانوا يسمونه . ومن هنا أيضا اتجهوا الى تحطيمه شاعرا ، ونظروا فى بدائع آياته من الشعر وفرائده ، نظروا فيها بعين المصرى المثقف الواعى واذا هم يخرجون منها بأنها هراء لا يليق بالمصريين قراءته ، وأن شوقيا هذا ما هو الا تركى متمصر يتحدث بلســـان المصريين ويكتب بلغتهم ، ولكنه يشعر شـــعور التركى ويتذوق الآداب والحريات كما يتذوقها التركى .

***

وقد يكون فى تلك الحمـــلة على شوقى من هؤلاء الشـــــباب (عباس العقاد وابراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى) قد يكون فيها قسوة وشدة . غير أنه يمكن رد تلك القسوة وذلك العنف الى دسائس شوقى لهم فى القصر ، من هنا كانت رد فعل لعمله هذا . ولعل فى سلوك شوقى هـــذا اقطاعا فكريا بصورة تقشـــعر منها النفس ، بل حتى تصل الى درجة التقزز .

***

وبالرغم من هذا السلوك الذى لا يقبله انسان له كرامة ، فان مظهر وظيفة شوقى الخادع البراق ، قد جعل شاعرا من شعرائنا هو مصطفى صادق الرافعى يهـــاجم خلف شوقى فى القصر من الشعراء الأستاذ عبد الله عفيفى بغية أن يحل مكانه . غير أن الرافعى

قد أسف فى مهاجمته لشاعر القصر اسفافا لا يحسد عليه ، اذ استخدم على عادته أوقح الألفاظ وأشنع الشتائم التى لا تليق أن تنشر بصحيفة لها مكانتها الأدبية مثل مجلة (العصور) ، فضلا عن نشرها فى كتاب تقرؤه الأجيال مثل كتاب « على السفود » .

* * *

وقد كان هناك نفر من الشعراء أيضا يحسدون شوقى على ما ناله من مجد أدبى فى حسبانهم لأن شعره أسير من شعر غيره من الشعراء الذين عاصروه ، كانوا يحسدونه على هذا . ومن هنا نراهم قد انتهجوا نهجه فى مدح الملك ومن يلوذ به ، ووقفوا أكثر شعرهم على هذا الضرب من المديح والتهانى ، وذلك كعلى الجارم الذى تخصص فى مدح الملوك والأمراء حتى انك لتحس ذلك وانت تتصفح ديوانه الذى يشتمل أكثره على هذا النوع من المدح للملوك والأمراء حقيقة ، وحسبنا أن هذه المقطوعة التى قالها منفعلا حين قرأ فى الصحف أن جملا فر من جزاره وأخذ يعدو حتى دخل قصر عابدين :

عابدين كعبة مصر وركنها حرم
للخائفين اذا خطب بهم نزلا

تهوى اليها وفود الأرض ضارعة
ترجو بها الأمن أو تحيى بها الأملا

أمر وعاه بنو الانسان وحدهم
فمن بربك قل لى آخير الجملا ؟ !

ولعلنا نجد أن الجارم يسخر الشعر لأسخف التوافه رجاء أن يصل من ورائه لما يصبو اليه من التعطف السامى من صاحب عابدين كعبة مصر .

* * *

ومن هذا يتضح لنا أن القصر قد نجح فى اجتذاب أغلب الشعراء

ليتجهوا اليه بشعرهم ، وبسط لهم نفوذا فى الصحف ـ من حيث النشر ـ وفى الوظائف ، وغير ذلك ، فى الوقت الذى نراه يعمد الى تشريد من يعلم أن لهم مواقف ليست فى صالحه . وفى هذا من الاقطاع الفكرى ما فيه .

ذلك لأنك لا تجد فى صحيفة أو كتاب أو غير ذلك أفكارا تخالف أفكار القصر والأمراء والوزارة الحاكمة ، ولو فرض أن رأيا حمل الى صحيفة والتبس على رئيس التحرير ونشره ، فانه والكاتب للخبر يذهبان الى غياهب السجون ، وذلك نظرا لأن الجميع يحرصون كل الحرص على أن يكونوا موضع الرضاء من القصر ، الأمر الذى جعلهم ينزلون من على عروشهم الفكرية ليجرى الواحد منهم لاهثا رجاء أن يحظى بلقب من الألقاب التى يلقبهم الملك بها .

* * *

ومن عجب أن يحدث هذا كله وفى البلد ما يسمى بالديمقراطية التى تحكم على أساسها والتى يقوم بتنفيذها حفنة من الاقطاعيين محترفى السياسة فى ذلك الوقت ليخدعوا بها الشعب عن حقيقة مطالبه .

ولسنا نجد وصفا يصدق على الديمقراطية التى كانت سائدة فى ذلك الحين من وصف (١) الميثاق لها بأنها « الديمقراطية المضللة » التى تعتبر ملهاة مهينة .

ذلك لأن الشعب فى ذلك الوقت لم يعد صاحب السلطة ، وانما أصبح أداة فى يد السلطة ، أو بمعنى أصح ضحية لها .

ولم تعد أصوات الجماهير هى التى تقرر خط السير الوطنى ، وانما أصبحت أصوات الجماهير تساق وفقا لارادة السلطات الحاكمة وأصدقائها ، ولقد كان ذلك نتيجة طبيعية لاغفال الجانب الاجتماعى من أسباب ثورة الشعب فى عام ١٩١٩ .

---

(١) الميثاق ص ٤١ وما بعدها :الباب الرابع .

ولا ينسى الميثاق أن يتحدث عن النتيجة التى ترتبت على تلك الديمقراطية الزائفة ، ديمقراطية رأس المال المستغل وكبار الملاك والحاكمين .. وذلك حينما يقول ما مفاده : ان الذى يحتكر رزق الفلاحين والعمال ويسيطر عليه .. يقدر بالتبعية أن يحتكر أصواتهم وأن يسيطر عليهم ويملى عليهم ارادته .. لأن حرية رغيف الخبز ضمان لا بد منه لحرية تذكرة الانتخاب . ومن هذه الأزمة العنيفة فتحت أمام سلطات الأسرة المالكة أبواب جاهد النضال الشعبى طويلا لكى يسدها ..

ولكن بالرغم من ذلك النضال الشعبى ، فان الأسرة المالكة قد تجاوزت كل الحدود . ومن هنا غدا الدستور الذى رضيت به القيادات الثورية منحة من الدخيل مجرد قصاصة ورق . بهتت عليها الحقوق الشكلية التى كانت قد ألقيت للشعب لينشغل بها ويتلهى .

ويمضى الميثاق فى وصفه لتلك الأزمة قائلا : ولقد استسلمت القيادات التى تصدت للنضال الشعبى أمام سلطة القصر المتزايدة بسبب ضعفها المتزايد ، وركعت جميعها تلتمس الرضى الذى يصل بها الى مقاعد الحكم ، وتخلت بذلك عن الشعب ، وأهدرت كل قيمة له ، ناسية بذلك أنها تتخلى طواعية عن مصدر قوتها الوحيد ومنبعها الأصيل .

وانتهى بهم الأمر الى حد أنهم هانوا على الشيطان الذى باعوه أرواحهم فوصل بهم الهوان الى حد أن تغيير الوزارات أصبح له ثمن معلوم يدفع للقصر ولوسطائه . ان القيادات الوطنية حين تخلع جذورها من التربة الشعبية تحكم على نفسها بالذبول .. وبالموت .

ولسوف يبقى الوطن زمانا طويلا يشعر فى حلقه بمرارة الذل

الذى احسه فى هذه الفترة المتأزمة من جراء استهانة الاستعمار بنضاله استهانة فاقت كل حدود للاحتمال البشرى (١) .

غير اننا نود أن نقرر فى هذا المقام ان هناك بعض المفكرين قد آثروا الوطن وقضيته ، على مصالحهم الشخصية ، فلم يبيعوا أرواحهم للدلك الشيطان ، بل عارضوه بشدة فى سياسته ومطامعه ، وان كانت معارضتهم هذه قد كانت سببا فى انزال الحاكمين بهم أشد العذاب واقساه ، وان يسيموهم الخسف ويزجوا بهم فى غياهب السجون مع القتلة سفاكى الدماء وناهشى الأعراض .

ولكى ننصف هؤلاء من جيلنا ومن انفسنا يجدر بنا أن نسجل لهم بعض مواقفهم فى محاربة الملك بشتى اساليبه وحيله فى سياسة الوطن المنحرفة عن قضيته ، ومحاربة الاقطاع بشتى صوره أيضا ، ونضالهم فى هذا الصدد لا ينكره أحد ما ضد اقطاع سابقيهم ، وضد ولايتهم على حرية الكلمة .

ولعلنا لا نكون مجاوزين للحقيقة والصواب اذا بدأنا بأكثرهم نضالا واقساهم حملة على الاقطاع الفكرى فى الجيل السابق ، وحينئذ نرانا نقف وجها لوجه أمام الأستاذ عباس محمود العقاد الذى كان يشترط على كل صحيفة يعمل بها ألا يستمد الرأى من أحد ، لأنه يكتب حسبما يتفق ورأيه فيما يكتب ، وكانت الصحف تقبل منه هذا الشرط ، ولذا فقد كان أسلوبه فى الكتابة لاذعا ساخرا ، ويدلنا على ذلك وصف أحد خصومه له وهو الأستاذ إبراهيم هلال بقوله : « لما يئس الوفد من مناقشتنا بالبرهان والحجة لجأ الى ذلك الوحش الرابض فى جريدة البلاغ ففك عنه السلاسل والأغلال وأطلقه علينا يفتك كيف شاء » .

أضف الى ذلك أنه قام بحملة شعواء على شوقى حينما وجد أنه يهدد كل صحيفة تحاول أن تنشر لأى شاب مقالة فى نقد

(١) راجع الميثاق ص ٣٢وما بعدها الباب الرابع .

الشعراء السابقين ، أو قصيدة شعرية أو غير ذلك من انتاج الشباب ، وبجانب ذلك كان يعطي الصحف والمجلات راتبا شهريا نظير هذه المهمة ، ويتفاوت هذا المرتب بتفاوت الصحف والمجلات من حيث القيمة الأدبية حتى كان أقل راتب تحصل عليه مجلة هو ما كانت تحصل عليه « الصاعقة » ، والذى كان يبلغ ثمانية جنيهات شهريا ، وهو مبلغ اذا قيس بزمنه فانه يعتبر مبلغا كبيرا ، ولكن لا علينا أن نفكر فى كبر المبلغ أو ضخامته ما دمنا نعرف أن شوقيا كان شاعر القصر وتحت يده المصاريف السرية ، التى استطاع بواسطتها أن يجعل فى كل صحيفة من يشتم أولئك الشباب الذين لا يرضى عنهم من أدباء عصره ، كالعقاد ، وابراهيم عبد القادر المازنى ، وعبد الرحمن شكرى .

ومن هنا لم يجد العقاد بدا هو وزميله ابراهيم المازنى من تأليف كتاب « الديوان فى الأدب والنقد » أرسيا به قواعد مذهبهما فى النقد ، وفى الوقت نفسه حملا فيه حملة شعواء على شيوخ الأدب من أمثال شوقى والمنفلوطى وغيرهما ، وكان قوام هذه الحملة بعض المبادىء النقدية الحديثة المشوبة بالكثير من الشتائم والسباب التى توجها بها الى شخص من ينقدونه .

وبجانب ذلك نرى العقاد يهاجم وزارة « اليد الحديدية » التى أعلن رئيسها محمد محمود أنه سيحكم البلاد بيد من حديد ، واصبح أنصاره يتشدقون بهذه الكلمة حتى رددتها الصحف الانجليزية ، وهنا يجد العقاد مجالا للتهكم والسخرية فينشر مقالا تحت عنوان « يد من حديد ، ولكن فى ذراع من جريد » .

كما شبه رئيس أحد الوزارات فى جبروته وسطوته بشارلى شابلن ، وقارن بينهما فى وقت كان الارهاب فيه على أشده ، وغدا ينشر المقالات تلو المقالات والتى تحمل عناوين فكاهية مثل « طبيب الكالو » و « وعلوبة يكره الأوباش » و « حلمى عيسى على الربابة » و « الوزير الفرسيسى » .

* * *

وقد قدم العقاد للمحاكمة بتهمة « العيب فى الذات الملكية » وذلك حينما وقف يتكلم فى البرلمان فى عام ١٩٣٠ حين اجتمع اجتماعا خاصا للنظر فيما يدبر للحياة النيابية فى مصر ، تكلم العقاد وأنحى باللائمة على أعداء الأمة وأعداء الدستور ونطق بكلمته الخالدة « ان الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس يخون الدستور أو يعتدى عليه » وراحت بعض الصحف التى كانت تعادى العقاد فى ذلك الوقت تنشر الكلمة بالخط العريض ، وقد تردد صدى هذه الكلمة فى أنحاء البلاد . وعرفت « السراى » أنها المقصود بهذا الكلام . غير أنها لم تستطع محاسبة العقاد على ما قال وهو متمتع بالحصانة البرلمانية ، ولذا فانها دبرت له قضية العيب فى الذات الملكية من مقالاته المتتالية التى كان يكتبها عن الرجعية وأعمالها ضد مصلحة البلاد فى جريدة « المؤيد الجديد » بعد حل البرلمان والغاء الدستور .

وقدم العقاد للمحاكمة فقضت المحكمة بحبسه تسعة أشهر وتلقى العقاد حينئذ الحكم بابتسامة ساخرة قائلا : « ولو » .

وتمر الأيام تباعا ويخرج العقاد من سجنه فى أول عام ١٩٣١ ، وحينئذ نجد أول عمل يقوم به العقاد ساعة خروجه من السجن هو التوجه الى ضريح سعد زغلول ، وكأنه يلقاه فى بيت الأمة عقب معركة سياسية خرج منها خروج الظافرين ، وألقى أبياته الخالدة على قبر سعد زغلول ، والتى يقرر فيها ثباته على مبدئه واصراره على محاربة خصوم الأمة وقد ختمها بقوله :

عداتى وصحبى لا اختلاف عليهما

سيعهدنى كل كما كان يعهد

* * *

حمل العقاد كذلك على وزارة توفيق نسيم وأماط اللثام عن نواياها فى جرأة واقدام ، واشتد فى حملته على وزير المعارف آنذاك نجيب الهلالى الذى كان يضطهد بعض المواطنين فى وزارته

حتى اضطر الهلالى الى أن يدخل على رئيس الوزارة ومعه فى يده استقالته ، وفى اليـــد الأخرى مقالات العقاد ، وكانت الوزارة « النسيمية » تعمل لحساب السراى تارة ولحساب الانجليز مرة أخرى ، ومن هنا لم تحرك ساكنا فى أمر اعادة الدستور ، ولذا فان العقاد حمل عليها حملته تلك بالرغم من أن المعروف وقتذاك أنها جاءت لتمهد لحكم الوفد .

ولعل هذا الاعتبار هو الذى حدا بالنحاس أن يستدعى العقاد لمقابلته بالاسكندرية وعتب عليه حملته على الوزارة النسيمية ، وحدثت بينهما مشادة حادة جاء فيها أن النحاس قال له : أنا زعيم الأمة أؤيد الوزارة فماذا عساك تصنع يا عباس يا عقاد ؟

ولم يكن رد العقاد على النحاس الا قوله : أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك ، (مشيرا الى بضعة أشخاص من أعضاء الوفد) ولكنى كاتب الشرق بالحق الالهى .

وهنا لجأ النحاس الى تهديد العقاد بقوله : أن وزارة نسيم باقية ما دام الوفد يؤيدها ويضع ثقته فيها . وهنا رد عليه العقاد بقوله : لن تنتهى برية هذا القلم الا وقد انتهى أجل هذه الوزارة (واخرج قلما صغيرا من جيبه) ، ثم قفى على ذلك بقوله : ستدور الدوائر ليعلم الظالمون أى منقلب ينقلبون .

* * *

على أن العقاد هاجم معـاهدة سـنة ١٩٣٦ بمقالات نشرتها صحيفة « مصر الفتاة » فند فيها أبوابها ، كما حارب الفاشـية الموسولينية ، والهتلرية النـازية المنتصرة فى جميع الميـادين الحربية ، ووقف وحده يكتب ويذيع ويحاج الكثيرين من الكتاب ورجال السياسة الذين كانوا يؤمنون بفوز هتلر النهائى وبخاصة بعد فتح باريس قال العقاد : لقد فتح هتلر باريس ولكنه سينهزم وينهزم ، وقد انهزمت الفاشية والنـازية وتحقق رأى العقـاد فيهما .

وحارب العقاد أيضا الشيوعية والصهيونية باذاعاته وبمؤلفاته مع أنه ليس رأسماليا ولا من أصحاب الأموال ، وانما حارب الشيوعية لأنه يدعو الى السياسة الشعبية كما تشهد بذلك مؤلفاته العديدة التى تربى على تسعين كتابا .

* * *

ولن ننسى موقف العقاد من فاروق عام ١٩٣٨ حينما زار فاروق الصحراء الغربية ، وكان العقاد يمثل دائرة الصحراء بمجلس النواب ، ولذا فانه وقف يلقى قصيدة يرحب فيها بالملك ، وفى أثناء القاء العقاد للقصيدة مال فاروق برأسه الى من بجواره وهمس فى أذنه قائلا : كان أبى اولى منى بذلك الترحيب ! وحينئذ أحس العقاد بما حدث من فاروق فانقطع عن الالقاء وجلس وتوقف الحفل حتى قال فاروق انه لم يقصد ما فهمه العقاد ، وكان قوله هذا بمثابة اعتذار للعقاد . غير أن العقاد بالرغم من ذلك انقطع عن الرحلة وظل فى الفندق الذى كان ينزل فيه ولم يلب دعوة الملك الى العشاء أو غيرها .

* * *

ومهما يكن من شىء فاننا لنذكر موقف العقاد مع الدكتور طه حسين والأستاذ على عبد الرازق مؤازرا لهما حينما صادرت السلطات كتابيهما « فى الأدب الجاهلى » ، « والاسلام وأصول الحكم » وآذتهما بعض الأيذاء ، الأمر الذى جعل العقاد يقف معارضا الحكومة فى مجلس النواب ، ناعيا عليها سلوكها ضد المفكرين ، لأن مصادرة الكتاب ليست وسيلة ناجحة فى علاج المشاكل الفكرية التى تصطدم بمقدساتنا وعقائدنا ، وانما العلاج الناجح فى رأى العقاد يكون باصدار كتاب آخر يضع تلك المشاكل — التى عرض لها المفكر فى كتابه — موضعها الصحيح وابطال الشبهات التى أسس عليها المفكر نظريته .

ويعتبر هذا الموقف من العقاد محددا لمنهجه فى القضايا الفكرية وما يجب أن تقابل به ولا يرتضى لها مصادرة أو ايذاء لاصحابها من اى سلطة كانت ..

* * *

واذ نكون قد انتهينا من مواقف العقاد التى وقفها مناوئا للاقطاع الفكرى فانه يجدر بنا أن نعرض لبعض المواقف التى وقفها رائد آخر فى سبيل تحرير الكلمة من ربقة الاقطاع الفكرى ، وهو الأستاذ محمد توفيق دياب الذى اضطرته الحكومة الى تقديم استقالته من عمله فى ادارة الجامعة فى عام ١٩٢٨ ، أو يعمد الى تكذيب مقالته التى نشرها آنذاك تحت عنوان « من الأعماق » تلك المقالة التى حمل فيها على الحكومة والقصر والانجليز جميعا .

غير أن هذا الكاتب قد آثر الاستقالة على أن يرجع عن رأيه الذى أعلنه عن تدهور الحالة فى مصر على أيدى حكامها .

أجل ، استقال توفيق دياب ، ولم يكن يعرف عن مصيره قليلا ولا كثيرا ، ماذا يصنع من الأمور وماذا يدع .. ولكنه كان يعرف فقط شيئا داهما وخطيرا .. ذلك الشيء هو أنه حينذاك لم يكن على ثراء يكفل له المعيشة على المستوى الذى كان يعيش عليه قبل الاستقالة . ومن هنا لاح له أن يتفرغ للكتابة فى الصحافة المصرية ، وأن يوالى ضرباته للحكومة المصرية ومليكها والانجليز جميعا ، حتى اتهم فى قضية سياسية فى عام ١٩٣٣ برأته فيها محكمة الجنايات ، وأدانته فيها محكمة النقض والابرام برياسة عبد العزيز فهمى . وكانت هذه أول مرة رات فيها محكمة النقض أن من حقها اصدار حكم فى القضايا الصحفية دون اعادتها الى محكمة الجنايات ، وقد قضى توفيق دياب تسعة شهور فى السجن . لبس فيها البدلة بين القتلة واللصوص وتجار الغواية ، وارتدى البدلة الزرقاء ، وعرف كيف يفترش الحصير على الأسفلت فى

زمهرير الشتاء ، وذلك على حد وصفه للشهور التسعة التى عاشها بين أحضان السجن .

غير أن هذه المدة التى قضاها الأستاذ دياب فى السجن لم تحل بينه وبين اعلان رأيه ، اذ ألقى محاضرة مساء خروجه من السجن بعنوان « ماذا أضرنى سجنى وماذا أفادنى » جاء فيها :

« ان ما كسبت من سجنى يربو على ما خسرت أضعافا كثيرة ، أما خسارة السجين فهل يجهلها أحد ؟.. فقدان حريتى عدة شهور ! وفى هذه الكلمة وحدها ما يغنى عن الشرح والاسهاب . لكن ما هو الخير الذى خلص لى من هذا الشر ؟ ما وجوه النعمة التى استحالت اليها هذه النقمة ؟ هأنذا أعالج الجواب .

احسست يوم نزعت ملابسى لأرتدى ثياب السجون ، احسست فى تلك الساعة كأنى نزعت كرامتى بيدى ، وأن الاعدام أهون على نفسى من هذا التمثيل برجل له من الأنفة ما ليس لكثير من تلك الأشباح التى لا تحس سوى أن تهوى بمصر الى الحضيض . فى ذلك اليوم ، بل فى ذلك الأسبوع كله ، عانيت أزمة نفسية أوشكت أن توردنى موارد الحتوف ، وانى لفى هذه الحال اذا صوت خفى يناجينى من أعماق ضميرى : « أيتها النفس الأمارة بالسوء ، متى كانت الكرامة البشرية ثيابا تنزع أو ثيابا ترتدى ؟ انى انا الروح المتعالى فوق المكاره والمحن ، وانك لأقرب الى الله وأكرم عنده فى ثياب المحنة هذه منك فى الحلل الفاخرة . وليس فى وسع كائن من كان أن يغض من كرامتك وان كان فى وسعه أن يغض من ثيابك ، انما خلعت كساء من صوف ، لتسبغ عليك أمتك المفداة كساء من عطف واشفاق ..

ومضى يقول فى محاضرته أيضا : « ان الحرية فى مصر ما زالت جنينا فى غيب القدر ومن الخير أن يعانى المصريون فى سبيلها كثيرا من الشدائد ، حتى لا تهون عليهم ، اذا تمخض عنها اليوم السعيد

المنتظر .. لقد جلت المحنة وانجلت ، دون أن تزيدنا الا غيرة على خير مصر ، ودؤوبا على نشدانه ، وان فينا لقوة على احتمال محن أخرى اشد وأنكى ، اذا اقتضتها خدمة البلاد ، وأملتها العقيدة .

ثم يقول أيضا مهددا اسماعيل صدقى الذى سلب الشعب جريته وضرب بعضه ببعض بالاضافة الى تعطيل الدستور " وكل ذلك ارضاء للملك وبطانته ومع هذا لو عاد دولته أو مثل دولته الى مثل ما صنع لعدنا الى مثل ما كتبنا ، ولو استحال السجن الى درك فى أعماق الجحيم .

« ان الصحافة المصرية مقيمة على عهدها الوثيق ، فطغيان نيرون لا يزدهيها ، وأموال قارون لا تثنيها عن المبدأ القويم » (٤)

* * *

ولعل الانصاف يقودنا ــ بعد أن تحدثنا عن الرائدين السابقين من الجيل السابق ــ يقودنا الانصاف كما قلنا الى ان نتحدث عن مفكر آخر يعتبر حلقة الوصل بين الجيل السابق وبين جيلنا الحاضر الذى نعيشه .

وفى هذا المفكر تتمثل طلائع الأفكار الافكار الثورية بأجلى صورها وأسمى معانيها ، وعلى اسس علمية محددة المعالم ، واضحة المنهج ، معروفة الهدف .. تلك الأفكار الثورية التى حققتها ثورتنا فى السنين العشر الماضية التى تلت ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وذلك هو الدكتور محمد مندور الذى استقال من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى منتصف عام ١٩٤٤ ولما يمض على عمله بالجامعة وعودته من بعثته أكثر من أربع سنين ، لمع فى خلالها اسمه فى مجال الفكر والأدب ، بفضل مقالاته الداوية فى مجلتى « الثقافة » و « الرسالة » تلك المقالات التى جمعت فيما بعد فى كتابيه « نماذج بشرية » و « فى الميزان الجديد » ،

واذا ما تتبعنا بواعث استقالة صاحبنا لوجدنا انه آثر أن يكتفى بالعمل فى الجامعة وعلى منبرها ، والشعب المصرى آنذاك يتردى فى هاوية سحيقة من البؤس والشقاء ؛ ومن هنـــا نراه يترك الجامعة ، ويؤثر العمل بالصحافة ، لأنها أبعـــد مدى ، وأقوى تأثيرا ، وصوته فيها يصل الى الآلاف والآلاف من بنى وطنـه المغلوبين على أمرهم .

بيد أنه عمد كذلك على أن يكون عمله فى الصحافة فى الصحف التى كانت تعتبر حينذاك أكثر شعبية من غيرها ، وهى جريدة « المصرى » ، وجريدة « الوفد المصرى » وجريدة « صوت الأمة » التى تولى رئاسة تحريرها تباعا .

على اننا نرى أن كفاح الدكتور مندور يتجلى بأروع صوره عن حرية الكلمة وحرية الشعب والعـــدالة الاجتماعية ، ومحاربة الاقطاع والرأسمالية والرجعيـــة والعرش والانجليز والحكومات الضالعة معهما أثناء رياسته لتحرير جريدة « الوفد المصرى » ، حيث أفزع السلطات الحاكمة فزعا وصـــل بحكومة اسماعيل صدقى الى حد الهستيرية .. وذلك حينما نشر سلسلة مقـالاته عن الباشوات الرأسماليين ، واثبت بالمستندات الرسمية الآلاف المؤلفة من الجنيهات التى كان يبتزها كل من هؤلاء الباشوات من عضويتهم الصورية لمجالس ادارة عشرات الشركات .

ومن ناحية أخرى نرى الدكتور منـــدور يقارن كذلك بين اسماعيل صدقى وبين « الخط » زعيم العصـــابة التى تتخذ من الصعيد مقرا ، وقد نجح البوليس فى القبض عليها بعد جهـد جهيد .. ومن هنا يخلص الدكتور مندور من مقارنته تلك الى تسمية « الخط » بالخط الأصغر ، ويرى أن الأولى بالقبض عليه هو الخط الأكبر اسماعيل صدقى رئيس الوزارة التى يريد سرقة

الوطن كله ليسلمه للانجليز فى معاهدة « صدقى بيفن » الشهيرة التى احبطها جهاد الشعب ، ووأدها قبل أن ترى النور ، وهنا ثارت ثائرة الملك والانجليز واسماعيل صدقى من جراء ما صنعه بهم الدكتور مندور . غير انهم بالرغم مما اصابهم من قلم صاحبنا حاولوا استمالته واغراءه بمنصب سفير فى سويسرا كمحاولة لابعاده عن الوطن ، وأن يتخلى عن المعركة الوطنية فى ابان شدتها وسعيرها ..

ومما يدعو الى العجب والدهشة أن يرفض الدكتور مندور اى محاولة تبعده عن تلك المعركة ولو كانت منصب سفير وفى سويسرا .. وعلى أيدى هؤلاء الحكام بالذات ، وكان لرفضه هذا اثر عميق فى نفوس الجماهير ، الأمر الذى دعا اسماعيل صدقى الى اصدار قرار بالغاء اثنتى عشرة صحيفة ومجلة وعلى راسها جريدة « الوفد المصرى » ، واصدار قرار آخر بالقبض على مائتى كاتب وصحفى فى ليلة واحدة كانت تشبه غزو التتار ، وعلى رأس هذه القائمة طبعا الدكتور مندور ، والقى الجميع فى السجون بتهمة الشيوعية .. تلك التهمة التى كانت تنتظر كل من يتجاسر على محاربة الرأسمالية الجشعة ، والدعوة الى العدالة الاجتماعية .. كأن محاربة الرأسمالية والحال هذه جريمة لا تغتفر ..

ولكى تتم الصورة ظهرت فى نفس اليوم صحيفة « أخبار اليوم » بعنوان أحمر ضخم ترحب فيه بالقبض على الدكتور مندور باعتباره الواسطة بين الوفد والكومنترن أى المنظمة الشيوعية الدولية .

بيد أن القضاء قد أنصف الدكتور مندور واطلق سراحه بعد ستة واربعين يوما قضاها فى ذلك الجحيم الذى تلظى به من لهب يولية وبعضا من اغسطس وشواظهما ، وفى عام ١٩٤٦ فى تلك

الزنزانة الضيقة المساحة المحكمة الاغلاق ، التى اختصمت كل وسائل التهوية كأن بينهما تارات وتارات .. وبجانب ذلك فقد أدان القضاء جريدة « أخبار اليوم » بقذفها فى حق مفكرنا ، وقضى بتغريم صاحبها مائة جنيه ، وبتعويض مالى سخى فى ذلك الوقت للدكتور مندور لقذفها فى حقه بالباطل .. ونكاد نعتقد أن الدكتور مندور اذا كان لم يستطع أن يتغلب على الاتجاه الاقطاعى الرأسمالى داخل حزب الوفد المصرى الذى انضم اليه رغم تكوينه لجناح يسارى فيه ، ورغم قيامه بالمعارضة داخل البرلمان الذى كان خاليا من معارضة رسمية ؛ واستطاع بضغطه فى المعارضة أن يوقف مشروعات قوانين فؤاد سراج الدين - وزير الداخلية آنذاك - لحماية السراى من أى نقد يوجه اليها ، وذلك للعصمة التى أتت اليها على يد فؤاد سراج الدين ، التى تضمنت أيضا مشروعات قوانين والتى أبطلها مندور قبل أن ترى النور البطش بالسياسيين المعارضين فى وقت كانت تتجمع فيه خيوط ثورتنا أخيرة .

نقول اذا كان الدكتور مندور لم يستطع ذلك واستطاع هذا فقط فان هذه الثورة قد حققت جميع ما تصبو اليه من تحرير الوطن من الاستعمار ، وتحرير الشعب من الاستغلال ، وتحرير الفرد من ذل الفقر والمرض والجهل التى كان يسميها عندئذ بالفرسان الثلاثة ..

ولم يكن كفاح صاحبنا فى تحرير الفكر والأدب من الجمود والتخلف عن طريق النقد الأدبى الذى أرسى مفاهيمه الجديدة أقل أهمية وأخطر فاعلية من كفاحه السياسى والاجتماعى ، ذلك الكفاح الذى لاقى بسببه الأهوال الجسام من حبس وتشريد واهمال بكافة الأساليب الظاهرة والخفية ..

ولعلنا بعد أن استعرضنا بعض مواقف هؤلاء الرواد الثلاثة نكون قد رسمنا صورة لكفاحهم - باعتبارهم أعلى قممنا لهذا

اللون من القيـــادات الفكرية ـ وخاصــة وأنهم لم يبيعوا أنفسهم للشيطان بل عارضوه بشدة فى سياسته ومطامعه ..

بيد أن وجود هؤلاء وأمثالهم لا يعنى أن هناك كتابا كثيرين يؤمنون بما آمن به هؤلاء ، ويفعلون ما يفعلونه ، اذ لا يعدو ذلك النوع من المفكرين الأحرار عدد أصابع اليد الواحدة عدا ، يقابلهم عشرات وعشرات يعبدون الشيطان ويبيعون له أرواحهم كما قال الميثاق ..

* * *

ومعنى هذا أن الأخلاق قد تذبذبت واهتزت حتى اختلطت على الناس القيم ، وأصبحوا لا يرون من الكتاب الا نفاقا ومراء ، ومهادنة ومخادعة ، وكان هذا بالطبع أشنع اقطاع فكرى تمنى به مصر وصحافة مصر ، اذ لم يسمح للأفكار الجادة التى تعمل على اسعاد هذا الوطن بالنشر ، بل ان المسئولين قد قيدوا الصحافة والرأى العام بصفة عامة بقوانين فى عام ١٩٣٠ أشد وأنكى من القوانين السابقة التى خلقت فى عامى ١٨٨١ ، ١٩٠٩ من الميلاد .

واذا أمعنا النظر فى تلك القوانين لوجدنا أنهــا لا تتيح نشر او اعلان رأى من الآراء الا ما يوافق الحكام آنذاك ، وهذا بلا شك يمثل ضربا بغيضا من الاقطاع الفكرى يســد الطريق على كل رأى حر يبغى الوطن والمواطنين نشره . ومن ناحية أخرى فان نشر الآراء الحرة معناه أن ينهض الوطن ، ويتكون عنـــد المواطنين وعى قومى نحو واجباتهم ووطنهم . وهذا كله يؤدى الى الخروج ، بل الى الثورة على الحكام ، كما حدث لفاروق والوزراء السابقين فى عام ١٩٥٢ فى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الناجحة .

وهذا بطبيعة الحال لا يرضى الحكام بل لا يرضى القصر ، ومن هنا راحوا يقيدون الصحافة ، ويقطعون الطريق على المفـكرين الأحرار ويزجون بهم فى الســجون خوفا على سـلطانهم الذى يتربعون عليه .

ومن هنا ايضا ـ كما يقول الميثاق (١) ـ ضاعت حرية النقد فى هذه الفترة بضياع حرية الصحافة ، ولم يكن الأمر هو مجرد تلك القوانين الصـــارمة التى وقفت بالمرصاد لحيوية النشر ، وفرضت بالتشريع محظورات ترتفع على النقد وتوسعت فى هذه المحظورات الى حد كاد ان يجعل الظلام دامسا وشاملا .

ويمضى الميثاق فى حديثه عن حالة الصحافة فى هذه الفترة ملقيا بعض التبعات عليها نفسها ، ذلك أن طبيعة التقدم الآلى فى مهنة الصحافة نفسها احدثت أثرا لا يقل فى صورته عما أحدثته قوانين القمع والكبت .

ويعلل الميثاق ذلك بأن هذه المهنـــة العظيمة قد تحولت من كونها عملية راى الى ان غدت عملية رأس مال معقـــدة ، وذلك بفضل التقدم الآلى فى مهنة الصحافة واحتياجاتها المتزايدة الى الآلات الحديثة ، والى الكميات الهائلة من الورق (٢) .

فالصحافة اذن فى هذه الفترة المتطورة فنيا لم تكن قادرة على الحياة وحدها ، اللهم الا اذا ساندتها الأحزاب الحاكمة الممثـلة لمصالح الاقطاع ورأس المال ، أو اذا اعتمدت اعتمادا كليا على رأس المال المستغل الذى كان يملك الاعلان بحكم ملكيته للصناعة والتجارة .

ويشـــير الميثاق (٣) كذلك الى أن ســلطة الدولة والتشريع استعملت (أولا) فى اخضـاع الصحافة للمصالح الحاكمة ، وذلك عن طريق قوانين النشر الظالمة ، وعن طريق الرقابة التى وقفت سدا حائلا دون الحقيقة .

كذلك تزايد الخطر على ما تبقى من حرية الصحافة (ثانيا) بتزايد احتياجات المهنة نفسها لمعدات التقدم الآلى ولم يعد فى قدرتها الا أن تخضع لارادة رأس المال المستغل ، وأن تتلقى منه

(١ ، ٢ ، ٣) الميثاق ص ٤٩ الباب الخامس .

(وليس من جماهير الشعب) وحيها واتجاهاتها السياسية والاجتماعية .

* * *

واذا صح ذلك فاننا نقول ان النظام السياسى فى مصر قبل الثورة لم يكن الا انعكاسا مباشرا للأوضاع الاقتصادية السائدة فيها ، وتعبيرا دقيقا للمصالح المتحكمة فى هذه الأوضاع الاقتصادية .

ومن هنا فاننا نجد أن الميثاق (١) قد فطن لهذه الحقيقة التى تعد من الحقائق البدهية ، فطن الى ذلك حينما يقول : « فاذا كان الاقطاع هو القوة الاقتصادية التى تسود بلدا من البلدان فمن المحقق أن الحرية السياسية فى هذا البلد لا يمكن أن تكون غير حرية الاقطاع . انه يتحكم فى المصالح الاقتصادية ، ويملى الشكل السياسى للدولة ويفرضه خدمة لمصالحه . وكذلك الحال عندما تكون القوة الاقتصادية لرأس المال المستغل .

ويوضح الميثاق أكثر من ذلك حال القوة الاقتصادية (٢) فى مصر قبل الثورة حينما يرى أنها كانت فى يد تحالف بين الاقطاع وبين رأس المال المستغل ، وكان محتما أن تكون الأشكال السياسية بما فيها الأحزاب تعبيرا عن هذه القوة وواجهته ظاهرة لهذا التحالف بين الاقطاع وبين رأس المال المستغل .

---

(١) الميثاق ص ٤٦ ــ الباب الخامس .
(٢) المرجع السابق ص ٤٦ .

ولم تكن سيادة الاقطاع المتحالف مع راس المال المستغل فى مصر على اقتصاديات الوطن الا أن تمكن لهما طبيعيا وحتميا من السيطرة على العمل السياسى فيه وعلى أشكاله وعلى ضمان توجيهها لخدمة التحالف بينهما على حساب الجماهير واخضاع هذه الجماهير بالخديعة أو بالارهاب حتى تقبل أو تستسلم .

وبهذا القياس فى الفهم يعتبر الميثاق (١) أن فقدان الحرية الاجتماعية لجماهير الشعب سلب كل قيمة لشكل الحرية السياسية التى تفضلت بها عليها الرجعية المتحكمة حتى لقد صدر دستور عام ١٩٢٣ منحة من الملك ومنة منه وتفضلا .

ومن ناحية اخرى فان البرلمان الذى اقامه هذا الدستور لم يكن حاميا لمصالح الشعب ، وانما كان بالطبيعة حارسا للمصالح التى منحت هذا الدستور وهى مصالح الرجعية الحاكمة ووسطائها .

ولم ينس الميثاق أن يبرر لما كانت تفتحه الرجعية الحاكمة من متنفس للسخط الشعبى (٢) بأن لا يضيرها ذلك السخط ؛ لأنها كانت تملك جميع صمامات التوجيه وما دامت بيدها تحت كل الظروف اغلبيتها التى تمكن لديكتاتوريتها الطبقية وتحمى امتيازاتها . ومن هنا فان حق التصويت قد فقد قيمته حين فقد اتصاله المؤكد بالحق فى لقمة العيش . ان حرية التصويت من غير حرية لقمة العيش وضمانها فقدت كل قيمة فيها ، وأصبحت خديعة مضللة للشعب .

ومن هنا أيضا فان الميثاق يرى أن حق التصويت ازاء هذه الظروف كلها أمام ثلاثة احتمالات ليس لها بديل (٣) :

(١) الميثاق ص ٤٧ — الباب الخامس .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة (٣) المرجع السابق ص ٤٨

١ - فى الريف كان التصويت اجبارا للفلاح لا يقبل المناقشة ، فلم يكن يملك الا أن يعطى صوته للاقطاعى صاحب الأرض ، أو وفق مشيئته ، أو يواجه تبعات العصيان وأولها أن يطرد من الأرض التى يعمل فيها بما لا يكاد أن يكفى لسد جوعه .

٢ - فى الريف والمدينة على السواء كان شراء الأصوات يمكن رأس المال المستغل من أن يأتى بأعوانه ، أو بمن يضمن ولاءهم لمصالحه .

٣ - فى الريف والمدينة لم تتورع المصالح الحاكمة فى عديد من الظروف أن تلجأ الى التزوير المكشوف اذا ما احست بوجود تيارات متعارضة مع ارادتها .

وفى الوقت نفسه فان الشروط التى كانت تجرى تحتها عملية الانتخابات وفى مقدمتها اشتراط تأمين نقدى باهظ تصد جماهير الشعب العامل حتى عن مجرد الاقتراب من لعبة الانتخابات ، ولم تكن الا لعبة فى تلك الظروف .

وفى الوقت نفسه أيضا فان الجهل الذى فرض على الأغلبية العظمى من الشعب - تحت ضغط الفقر - جعل من سرية الاقتراع وهى أولى الضمانات لحريته أمرا مستحيلا ، أو شبه مستحيل .

هذا ولم يقف تيار الرجعية الحاكمة ، المتسلطة على كل موارد الدولة الى هذا الحد من الاقطاع الفكرى .. عند حد سلب المصريين كل تفكير فى حرية الانتخاب والتصويت وحرية الصحافة ، وغير ذلك من الأمور التى تحتاج الى استقلال فى الرأى ، ولا يمكن أن تكون بوحى من آخرين .. لم تقف عند ذلك ، بل عمدت الى ما هو أبعد مدى من ذلك ..

عمدت الى العلم فقيدته بأغلال وسلاسل حدت من حريته ، بل وأفقدته الحرية من أساسها ، تلك الحرية التى كان فى مقدورها أن تفتح طاقات جديدة للأمل .

لم تشأ الرجعية (١) أن تترك العلم وحريته ، لأن فى هذا وبالا عليها ، خلاصة ما يقال فيه تقويضها . ومن هنا كان لا بد لها من أن تطمئن الى السيطرة المعبرة عن مصالحها . ومن ثم انعكست آثار ذلك على نظم العلم ومناهجه ، وأصبحت لا تسمح الا بشعارات الاستسلام والخضوع .

وليس أدل على هذا الاستسلام وذلك الخضوع من أنك تعثر فى مناهج الدين على الأحاديث النبوية ـ التى تكاد تكون موضوعة ، أو قد قيلت فى موقف خاص ـ هى المقـــررة ، لأنهـا تدل على الاستسلام والخضوع مثل :

« اسمعوا وأطيعوا وان أمر عليكم عبد حبشى » .. وتجد فى ثنايا الشرح ما يفيد أن الخروج على الحاكم كفر وبهتان ، وافك وضـلال ، وبغى وعدوان وليس له من جزاء سوى القتل ابعـادا للفتنة ، وحقنا للدماء ، وتثبيتا للملك المسلمين ووحدة الصف ؛ لأن الله يقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

مثل هذا الحديث يقرر على الناشئة لكى يقتل فيهم النخوة ، ويبعث فيهم الخمول والاستكانة والخضوع والاذعان .

يقرر مثل هذا الحديث ، لأنه يؤدى غرض الرجعية الحاكمة ، ولا يقرر الحديث الذى يوحى بالثورة عليهم ، وهو « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » وهو حديث صحيح . كما لا يدرس المبدأ الشرعى فى أصول التشريع الاسلامى القائل « بأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

كما (٢) أن الدارس للمناهج فى التعليم يرى أن أجيالا متعاقبة من شباب مصر لقنت أن بلادها لا تصلح للصناعة ؛ ولا تقدر عليها ،

---

(١) الميثاق ص ٥٠ الباب الخامس .
(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

وان هذه الأجيال قد قرأت أيضا تاريخ مصر الوطنى على غير حقيقته وصور لها الأبطال فى تاريخها تائهين وراء سحب من الشك والغموض بينما وضعت هالات التمجيد والاكبار من حول الذين خانوا كفاحها .

لقد كانت هذه المناهج لا تهدف الى شىء أصلا اللهم الا اخراج موظفين يعملون للأنظمة القائمة وتحت قوانينها ولوائحها ، التى لا تأبه بمصالح الشعب دون أى وعى لضرورة تغييرها من جذورها وتمزيقها أصلا وأساسا .

وقد فطن الميثاق الى الاقطاع الفكرى بحيث يرى الدارس له أنه قد لفت الأنظار الى أن تحالف الاقطاع والرجعية الحاكمة لم يكتف بذلك كله وانما باشر ضغطه على جماعات كثيرة من المثقفين كان فى استطاعتها أن تكون ضمن الطلائع الثائرة فكسر مقاومتها وفرض عليها اما أن تستسلم لاغراء ما يلقيه اليها من فتات الامتيازات الطبقية ، واما أن تذهب الى الانزواء والنسيان .

كما أن الميثاق يؤكد أكثر من مرة ان الشعب المصرى هو صانع الثورة بنضاله وكفاحه وثوراته السابقة ، ولذا فانه أدار ظهره نهائيا لكل الاعتبارات البالية التى كانت تبدد قواه الايجابية ، أدار ظهره لهذه الاعتبارات من يوم قيام الثورة فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . كما أنه داس بأقدامه على كل الرواسب المتخلفة من بقايا قرون الاستبداد والظلم وأسقط ــ الى غير رجعة ــ جميع السلبيات التى كانت تحد من ارادته فى اعادة تشكيل حياته من جديد .

وبجانب ذلك فان قوة الارادة الثورية لدى الشعب المصرى تظهر فى أبعادها الحقيقية الهائلة اذا ما ذكرنا أن هذا الشعب البطل بدأ زحفه الثورى من غير تنظيم سياسى يواجه مشاكل المعركة .

كذلك فان هذا الزحف الثـورى بدأ من غير نظرة كاملة للتغيـير الثورى (١) .

ويعترف الميثاق لهذا الشعب بأنه قد قام بدور المعـلم الأكبر لطلائعه الثورية ، وذلك بتطوير المبادىء الثورية عن طريق تحريكها بالتجربة والممارسة والتفاعل الحى مع التاريخ القومى تأثرا به وتأثيرا فيه نحو برنامج تفصيلى يفتح طريق الثورة الى أهدافهـا اللامتناهية .

كما انه راح يلقن الطلائع الثورية أسرار آماله الكبرى ، ويربطها دائما بهذه الآمال ويوسع دائرتها بأن يمنحها مع كل يوم عنـاصر جديدة قادرة على المشاركة فى صنع مستقبله (٢) .

ويذهب الميثاق الى أبعد من ذلك حينما يقرر أن هذا الشعب لم يكتف أن يقوم بدور المعلم لطلائع الثورة وانما قام فوق ذلك بدور أهم وهو أن أقام من وعيه حارسا على ثورته يحميها من شرور الغير ، ومن شرور النفس كذلك . ومن هنا فانه هزم كل محاولة من أعدائه للنيل من طلائع الثورة . كما أنه قاوم كل الانحرافات التى قد تأتى من النسيان أو الغرور ، وظل دائما يرشـد طلائع الثورة الى طريق واجبها (٣) .

وفى موضع آخر نرى أن الميثاق يؤكد حاجة الثورة العربية الى وعى الشعب ، وبذلك تستطيع أن تصمد لمعركة المصير التى تخوض غمارها اليـوم . وأن تنتزع النصر محققة أهدافهـا من جانب ومحطمة جميع الأعداء الذين يعترضون طريقها من جانب آخر .

---

(١) الميثاق ص ٤ الباب الاول

(٢) المرجع السابق ص ٦ البـاب الاول

(٣) المرجع السابق ص ٧ البـاب الاول

لكن هذا الوعى الذى يقول الميثاق (١) بحاجة الثورة اليه انما هو الوعى القائم على الاقتناع العلمى النابع من الفكر المستنير ، والناتج من المناقشة الحرة التى تتمرد على سياط التعصب أو الارهاب .

ومعنى هذا أن الميثاق يعترف بما للفكر من أثر خطير فى تدعيم الثورة وصيانتها والحفاظ عليها وعلى طلائعها الثورية .

* * *

على أن الميثاق يركز بواعث هذه الثورة كلها فى النضال الشعبى ويرى ان القوات التى خرجت من الجيش لتنفيذ الثورة لم تكن صانعة للثورة ، وانما كانت أداة شعبية لها . لانها استولت على الأمور فى الجيش واختارت للثورة المكان الذى لا مكان غيره ، وهو جانب النضال الشعبى ، وقامت بتصحيح أوضاع بالغة الأهمية والخطر فى تلك الظروف متحدية بذلك ارادة كل القوى الحاكمة التى أرادت عزل الجيش عن النضال الشعبى ، ومن هنا أعلن الجيش ولاءه للنضال الشعبى . ومن فتح الطريق أمام ارادة التغيير .

وبجانب ذلك لقد أثبت الوعى الثورى فى مصر قدرته على تحمل المسئولية الكبرى التى القتها تطورات الظروف عليه ، وذلك لأنه استمد قدرته على الرؤيا الواضحة البعيدة المدى من حسه الوطنى الصافى ، وبذلك أمن اجتياز العقبات التى كان يمكن ان تعترض طريق التغيير الثورى فى مثل ظروف التجربة التى عاشتها مصر تلك الأيام .

وفى الوقت نفسه سيطرت اصالة الوعى الثورى وقوته فى مصر على اتجاهات الأمور ومنحت جميع العناصر الوطنية ادراكا لدورها فى توجيه النضال الوطنى . كما أنها فرضت أن يكون الحدث الكبير

---

(١) الميثاق ص ١٤ الباب الثانى

ليلة ٢٣ يوليو خطوة على طريق تغيير جذرى شامل يعيد الأمانى الوطنية الى مجراها الثورى السليم .

ومن ناحيـــة أخرى رفضت اصـــالة هذا الوعى وقوته كل احتمالات قيام ديكتاتورية عسكرية ، ووضعت القوى الشعبية وفى طليعتها قوى الفلاحين والعمال موضع القيادة الفعلية (١) .

ويؤكد الميثاق مدى حاجة الوطن الى البنـــاء الجديد الثابت الأساس بحيث يكون صلبا شامخا . ومن هنا فان الوطن لم يكن ليكتفى بترميم البناء القديم المتداعى وصلبه بقوائم تسنده وتعيد طلاءه .

ومما يدل على صدق هذه النظرية أن سقوط هذا النظام الذى كان سائدا قبل الثورة ـ هذا السقوط الكامل السريع يقطع بعدم جدوى محاولات الترميم .

ويمضى الميثاق فى حـــديثه عن النظام القديم فيذهب الى أن القضاء عليه قد قضى بالتالى على القيادات السياسية التى كانت تستر الحياة العـــامة ؛ اذ سقطت كلها تحت انقاض ذلك النظام القديم الذى شاركت فيه جميعها بانحرافاتها عن الأهداف الأصيلة التى يجب التزامها فى ثورة ١٩١٩ ، لقد كانت جميعها شريكة فى سياسة : ساوم واستسلم التى صاحبت فترة الأزمة وطبعتها بهذا الطابع المهين (٢) .

على أن الأوضاع الطبقية كانت قد أبعدت عناصر كثيرة صالحة للقيادة الفكرية عن صفوف القوى الشعبية المتطلعة للثورة والمطالبة بها . وفى الوقت نفسه فان الطلائع الثورية التى صنعت أحداث

---

(١) المرجع السابق ص ٣٧ وما بعدها الباب الرابع

(٢) الميثاق ص ٣٨ ــ ٣٩ البـــاب الرابع .

ليلة ٢٣ يوليــة لم تكن قد أعدت نفسها لتحمل مسئولية التغيير الثورى الذى تصدت لخدماته . لكن الشعب المعلم صانع الحضارة راح يلقن طلائعه أسرار آماله الكبرى ومضى يحرك المبادىء الستة .

هذه المبادىء التى كانت أعلاما للثورة ، وليست أسلوب عمل ثورى ومنهاج تغيير جذرى ..

راح هذا الشعب يلقن طلائعه ويحرك مبادئها الستة بالتجربة والخطى نحو وضوح فكرى يصنع التصميم الهندسى لبناء المجتمع الجديد الذى يريده (١) .

ويتساءل الميثاق عن تلك الارادة الحرة التى يتمتع بها الشعب المصرى والتى تجلت فى معركة السويس ، والتى مكنت هذا الشعب من أن يحسن تقدير موقفه ازاء المعركة .

يتساءل الميثاق عن هذه الارادة الحرة التى استخلصها الشعب المصرى من قلب المعركة الرهيبة . ولن تنسب هذه الارادة الحرة .

لكنه لا يلبث أن يجيب عن تساؤله هذا بأنها لا يمكن أن تكون لغير الشعب ولا يمكن أن تعمل لغير تحقيق أهدافه .

ذلك لأن الشعوب لا تستخلص ارادتها من قبضة الغاصب لكى تضعها فى متاحف التـــاريخ ، وانما تستخلص الشعوب ارادتها وتدعمها بكل طاقاتها الوطنية لتجعل منها السلطة القـــادرة على تحقيق مطالبها (٢) .

بيد اننا سنحاول جاهدين أن نتلمس الأرض التى نقف عليها ونختبرها لنعرف جيدا موقف هذا الشعب على حقيقته ، ومن هنا يتسنى لنا السير قدما الى الأمام نحو الغاية المنشودة التى تهدف

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩ — ٤٠ الباب الرابع .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ الباب الخامس .

الى تحقيق الاشتراكية الحقة للشعب ، وتكافؤ الفرص للمواطنين « ليصعد الى القمة من هو بها جدير ، ويهوى الى القاع الكسول الذى لن يهيىء نفسه للعمل الجاد المفيد .

* * *

سنحاول ذلك فى جميع المجالات المضطلعة بالتوجيه فى الوطن المفدى ، لنرى هل من الممكن أن نطمئن الى تنفيذ الميثاق الذى وصلنا اليه بعد طريق طويل شاق ، وتجارب عديدة اتسمت بالصواب أحيانا والخطأ فى أحايين أخرى . اذ ان ملاك الأمر ليس هو وضع ميثاق أو دستور وانما ملاك الأمر حقيقة هو التطبيق ، فلا يكون هناك تحايل أو لف ودوران حو لنصوص الميثاق ليدلف منها تجار المصالح الشخصية والأهواء والنزوات الضالة .. ولكى ينتهى العمل بذلك المبدأ المعروف لدى موظفى الدولة القائل « بالحل العبقرى » ويتضمن الخروج على القانون بطريقة عبقرية لا يدين القانون مرتكبيها .

نقول ذلك لأن المسألة من وجهة نظرنا مسألة وازع وضمير وأخلاق قبل أن تكون مسألة ميثاق ودستور وشروح عديدة لذلك الميثاق وهذا الدستور .

ولسنا مغربين فى هذا القول ، أو بمنأى عن الصواب ، وانما يتفق وما ذهب اليه الأستاذ الكبير احمد بهاء الدين فى هذا الصدد ، اذ ذهب الى أن الميثاق فى حد ذاته ليس هو الضمان والسلاح الحاسم النهائى .

واستدل على ذلك بمثل واضح وهو القرآن وكل الكتب المقدسة السماوية . ذلك « أن القرآن عاش مع المسلمين أكثر من الف وثلاثمائة سنة ، ولم تكن هناك لحظة واحدة شك فيها المسلمون فى قداسة القرآن ، أو انصرفوا عن قراءته وعن حفظه ، ومع ذلك فما أكثر ما ابتعدت حياة المسلمين خلال العدد الأكبر من

هذه السنين عن جوهر القرآن ، وما اطول ما تراجع المجتمع الاسلامى وتراجعت الامبراطوريات الاسلامية عما ينطوى عليه القرآن من قيم انسانية أساسية ومن ثورة انسانية عميقة ضد الظلم والتواكل والتخلف والاستبداد والفساد . قرون طويلة من الظلام الهائل لم تبق خلالها من الدين الا طقوسه .

ولم يبدأ هذا الانحراف بعد نزول القرآن بقرون ، بل بدأ بعد نزوله بعشرات قليلة من السنين . فقد كان صراع على ومعاوية بمثابة نقطة الانفجار التى تنبهت بعدها كل الغرائز والدوافع الجاهلية والسياسية والمصلحية التى جاء القرآن لتهذيبها أو للقضاء عليها . تنبهت كل هذه الغرائز والدوافع والمصالح ، رافعة راية الاسلام ذاته ، متخذة من التفسيرات المنحرفة وسيلة لتبرير كل انحراف ، بل كل انقلاب على جوهر القرآن ذاته » .

وينتهى أحمد بهاء الدين الى « ان الميثاق فى ذاته ، ليس الضمان ، لأن الضمان يكمن فى الطاقة التى ستحشد لتنفيذه ، ولنشر الوعى به ، ولتجنيد الذين يحملون رسالته » .

« ان أى دعوى سياسية أو اجتماعية لا يمكن أن تسير خطوة الى هدفها الا على أقدام ، هى الناس ، هى المؤمنون الواعون الذين يحملون هذه المبادىء على محمل الجد ، لا على محمل الهزل ، أو المسايرة ، أو الموضة أو الانتهاز » (١) .

ومعنى هذا أن الميثاق يحتاج الى شعب متمتع بالوازع الأخلاقى الذى يعصمه من الناحية الشخصية ، ويجعله ينكر ذاته فى سبيل الوطن المفدى .

---

(١) اخبار اليوم تاريخ ١٩٦٢/٦/٣٠ العدد ٩٢١

ومن أجل هذا كله سنتحدث عن **المظاهر التى كانت تعوق حرية الكلمة فى العهد الماضى فى جميع المجالات الثقافية وغيرها ، تلك المظاهر التى سببت ذلك الاقطاع الفكرى البغيض ، لأنه من وجهة نظرنا يعوق وصول الدولة الى أهدافها المنشودة ، ويشل فى الوقت نفسه العبقريات الخلاقة التى ترسبت فى القاع . بينما يتيح الفرصة للفقاقيع أن تطفو على السطح وتتصرف على مستوى الدولة ، وتظهر فى كل مجال ، وفى كل مناسبة حتى تغطى بتفاهتها هذه على المفكرين الأصلاء الذين كان من الممكن أن يفيدوا الوطن والمواطنين .**

ومن ناحية أخرى نتحدث عما يجب أن يكون عليه المواطنون ازاء كل مظهر من المظاهر فى مجتمعنا الجديد الذى يختلف اختلافا جذريا عن مجتمع ما قبل الثورة . وذلك لكى ندعم القيم الثورية ونقويها ، لا أن نوهنها ونقوضها ..

الفصل الثانى

الاقطاع الفكرى فى التعليم

« ان التنــازع على السلطات يؤدى الى شلل القيادات العامة فى التطور الوطنى .. والتطلع الثورى بكل آماله ومثله العليا يهتم بالبناء الجــديد اكثر من اهتمامه بالأنقاض التى تداعت .. »

الميثــاق

الاقطاع الفكرى فى وزارة التربية :

ولعل الواجب يشير علينا ان نبدأ الحديث عن وزارة التربية نظرا لأهمية الدور القيادى فى المجال الفكرى الذى تقوم به فى الوطن لأبنائنا وبناتنا بناة المستقبل البسام ؛ ومن هنا كانت نظرتنا لها — على انها اخطر وزارة فى تكوين الرأى العـــام ، وخلق الجيـــل الصاعد — تتفق والحقيقة الناصعة ؛ ومن هنا أيضا فان الحديث عنها يستحق الاولوية على الحديث عن الوزارات الأخرى من ناحية خطرها الكيفى ، ثم من ناحية كمها العددى أيضا ؛ اذ يبلغ عدد موظفيها أكثر من نصف موظفى الدولة .

ولعل اهمية هذا الدور الذى تقوم به هذه الوزارة ، هو الذى جعل السيد رئيس الجمهورية يلقى على المعلمين تبعة هذا الجيل ، وذلك فى المؤتمر الذى عقـــده المعلمون للتعبئة القـومية بمدينة الاسكندرية فى اغسطس عام ١٩٥٨ ، وكان مما تضمنه حديثه فى هذا المؤتمر :

« أيها المعلمون .. يا رجال العلم والثقافة .. ان دوركم فى بناء الوطن كبير وخطير ، فعليكم تقع أمانة خلق جيل يؤمن بأهداف الثورة ، وان أعظم عمل يمكن أن تقوموا به فى عمليـــة البناء أن تتذكروا أن لنا جميعا اخوة فى الريف تراودهم الأحلام فى حيـــاة كريمة لائقة ، فذلك القروى الذى يحيا فى أقصى نقطة بالصـــعيد يتطلع الى اليوم الذى يجد له مسكنا من حجرتين نظيفتين مزودتين بالماء والنور ، ولا يمكن أن نضمن لهذه الأحلام أن ترى النـــور الا اذا شعرتم بمدى مسئوليتكم تجاه هـــذه الأمانة ، أنتم الذين أتيحت لكم حظوظ التعليم وفرص الاستقرار والعيش الكريم ، أنتم الذين تفتحت بصائركم ، ونمت مداركم مطالبون اليـــوم بأن تمهدوا لأهلكم وذوى قرباكم شيئا من هذه السعادة يعيد اليهم ثقتهم فى المستقبل ، ويصون لهم حريتهم وكرامتهم » .

ومعنى هذا أن هذه الوزارة تلعب دورا خطيرا فى توجيه الجيل وبنائه ، ولكن المسئولين فيها كانوا لا يفهمون مهمة وزارتهم ، حتى لو فهموها فانه فهم نظرى بارد ليس فيه حرارة الايمان ، ولا غليان أصحاب الرسالات الذين ينقلون النظريات الى واقع ، لأن حديثهم يخرج من القلوب فتنفعل به القلوب حتى يصبح فى النهاية عقيدة وشريعة . ومما يؤسف له أنها كانت تحارب أصحاب الرسالات حربا عوانا لا هوادة فيها .. ولعلنا لا نكون مجانبين للصواب فى ذلك اذا قلنا أنها كايت تحاسب الموظف فيها على عمله الخارجى .. على نشاطه الشخصى فتقيده بأغلال من الحديد اذا ما تعرض نشاطه الشخصى لشخصية تتصل من قريب أو بعيد ببعض الكبار فيها .

وفى هذا المجال نحن لا ننسى ، والتأريخ كذلك لا ينسى موقف وزير المعارف (حشمت باشا) فى عام ١٩١٣ من المدرس ابراهيم عبد القادر المازنى الذى كان يدرس مادتى التاريخ والترجمة بمدرسة الخديوية . وأصل هذه القصة يرجع الى أن الناقد الكبير المرحوم المازنى قد تعرض بالنقد للشاعر حافظ ابراهيم ، وكان نقده بلهجة قاسية . وفى الوقت نفسه كان حافظ ابراهيم صديقا ونديما لحشمت (باشا) وزير المعارف آنذاك ، وكان أثيرا لديه فوق هذا وذاك ، وليس أدل على ذلك من أنه هو الذى عينه بدار الكتب ، ولذا فان وزير المعارف قد نقل المازنى من المدرسة الخديوية الى مدرسة دار العلوم العليا ، والنقل وان بدا فى ظاهر الأمر ترقية ، الا أن الغرض منه عزل المازنى عن تلك المدرسة ، والحط من قيمته الأدبية فى نظر وزارة التربية ، ذلك لأن مادته التى سيدرسها فى دار العلوم لا خطر لها ، اذ أن اللغة الانجليزية كانت يومئذ مادة ثانوية ، ومن هنا كان النقل عقوبة ، ولذا فقد استقال المازنى رحمه الله من وزارة التربية والتعليم فى عام ١٩١٣ .

ويتضح مما سبق أن نشاط المدرس الخارجى فى الميدان الفكرى

كان مقيدا بوظيفته فى وزارة المعارف ، ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا أن أى مدرس لا يستطيع أن ينقد أى رئيس من رؤسائه فى أعماله الفكرية .

الكتب المقررة :

لعل أول ما يتبادر الى الذهن أن أساس اختيار الكتب هو صلاحيتها وقيمتها العلمية ، لأن وزارة التربية تؤمن ايمانا عميقا أن العلم هو كل شيء فى الحياة . فهو الذى يستفيد منه المتعلم فى حياته العملية ؛ ومن هنا قامت الوزارة من أساسها ، لأن العلم ما دخل فى شيء الا ضمن تقدمه ، وحفظ اتزانه ، واذا كان العلم هو الفيصل فى الحكم على الكتب ، فان أحدا لا يخرج على حكمه بل يذعن له ، ويرضى به . .

وينبغى أن نقرر فى هذا المجال أن الوزارة تؤمن بذلك كله جملة وتفصيلا ، ولذا فاننا لا نستغرب منها أن يكون أساس اختيار الكتب المقررة هو القيمة العلمية لها ، وموافقتها للمناهج الدراسية ، لا نستغرب ذلك ، لأنه بدهية من بدهيات منطق وزارة التربية ، كما يتبادر للذهن لأول وهلة .

ولكنك اذا عرفت أن لاختيار الكتب فى وزارة التربية دروبا ومسالك أخر ـ وليس للعلم فى الاختيار أية قيمة ـ فانك لتجزع أشد الجزع ، وتشفق أشد الاشفاق ، وسيجر عليك هذا الخبر تشاؤما شديدا .

ولعل نظرة واحدة الى الكتب المقررة قبل عام ١٩٥٢ ، أى قبل قيام الثورة تهدينا الى أن الحال ظل على ما هو عليه ، ولم يتغير فيه شيء مطلقا عن ذى قبل . وحسبنا أن نعلم أن كبار المؤلفين وهم كبار الوزارة كانوا يستهدفون بتأليفها الحكام ، ولذا فانك لواجد أن المؤلفين فى اللغة العربية والمواد الاجتماعية قد حصلوا

على رتبـــة « البـــكوية » اللهم الا القليـــل الأقل منهم » وذلك جزاء لما حشدوه من النصوص التى تتحدث عن الملك وآل بيتــه الكرام الذين وصلوا على أيدى بعض رجال الدين أنهم من آل بيت رسول الله » تلك النصوص التى تصــور العظمة الخالدة فى بيت اسماعيل والفاروق العظيم .

وكذلك فى التــاريخ كانت المعــارك التى خاضها محمد على وأبناؤه ، وما أضفى على هؤلاء وهؤلاء من الأسرة المالكة من المجــد المؤثل والخلود ، وما أسدوه لهذا الوطن من خدمات وخدمات .. وما .. وما .. الى آخر ما حشد فى هذه الكتب من ضلالات خادعة مضللة كان المقصود بها الحصول على المنح والهبات الملكية ، وليس أدل على ذلك من قول كبير المؤلفين فى ذلك العصر ، وهو على الجارم حين مدح فاروق فى عيد ميلاده :

أنا فى فيض لــه متصـــل ... أنعم تمضى فألقى منعمـــا
ليس بدعا ان زها شــعرى به ... يزدهى الروض اذا الغيث همى

ويحق لنا ولك أن نتساءل قبل أن ندلف بك على تلك المسالك والدروب التى يجعل فريقا من المؤلفين يفوزون بكتبهم فى المسابقات التى تعلن عنها الوزارة ..

من هم المؤلفون لتلك الكتب ؟

ومن الذى يضع شروط تلك المسابقات ؟

بل من الذى يرتضى المنهج للمادة التى يتضمنها الكتاب ؟

ولعلنا لا نستطيع أن نجيب على تلك الأسئلة الا اذا أجبنا على السؤال الثالث أولا ..

وتهدينا الاجابة الى أن الذين يضعون المناهج للوزارة هم كبار مفتشيها الأوائل وأعوانهم ممن يرشحون للبحث فى مناهج المادة .

وتسوقنا هذه الاجابة الى الاجابة على السؤال الثانى والتى تتضمن أن الذين يضعون شروط المسابقات هم واضعو المناهج للمادة ، وبما أن واضعى المناهج هم كبار المفتشين ومن يرشحونهم لتلك المهمة ، فان لهم حقا لا يعترض عليه أحد وهو أن يؤلفوا للمادة الكتبه التى تحتاج اليها والتى تتفق وشروط المسابقات ، ومن حقهم أيضا أن يدخلوا بهذه الكتب تلك المسابقات مع غيرهم ممن يدخلونها ان كان هناك من ألف مثلهم وتقدم بكتبه للمسابقة .

* * *

والى هنا لا ضير عليهم فى تأليفهم ودخولهم المسابقات فانما شأنهم فى ذلك شأن غيرهم . وانما يأتى الضير لو كانوا يسلكون الى ذلك سبيلا غير مشروعة ، معتمدين على مراكزهم ، وخاصة وأنهم أعلم ببواطن الأمور ..

ونحن لا نريد أن نرجم بالغيب فى هذا الشأن ، ولكننا نريد أن نسأل سؤالا هو ألزم سؤال ؟ .

نريد ان نسأل عن نتائج المسابقات .. من الذى يفوز فيها غالبا ؟

والاجابة على هذا السؤال انما تعتمد على وثائق وزارة التربية وهى يسيرة وتحت متناول اليد ..

تقول الوثائق ان أكثر الذين يفوزون فى مسابقات الكتب هم كبار المفتشين ومن يعتمدون عليهم ، وحينما نقول أكثر المفتشين نقولها على سبيل التقتير فى نتائج المسابقات ، لأن الحقيقة الناصعة تشير الى أنه لا يتخلف من كتبهم كتاب فى المائة عن الفوز فى المسابقات .

وهذا النجاح الباهر فى المسابقات يحرك فى أذهاننا سؤالا لا محيد عنه لفهم حقيقة النجاح وهو :

كيف الوصول الى ذلك الفوز الساحق لكل من يدخل من هؤلاء المفتشين تلك المسابقات ؟ وما هى الدروب والمسالك التى يسلكونها لكى ينجحوا ؟ .

وخلاصة ما يقال فى هاته الدروب وتلك المســالك التى كانت تقود مفتشى هذه الوزارة الى النجاح فى مسابقاتها ، تكمن فى أن هؤلاء المؤلفين هم الذين كانوا يعدون المسابقات ويعلمون وقتها ، ويحددون لها الزمن ، ويتصلون بالمسئولين بطريق مباشر أو غير مباشر .

والذى كان يحدث دائما من جراء فوز هؤلاء الرؤساء حرمان الأكفاء الذين كان يمكنهم أن يفيدوا الوطن بأفكارهم الناضجة ..

أجل .. يحرم الأكفاء لا ترفعا عن الدخول فى المسابقات ، ولكن لأن الطريق قد قطع عليهم ، ومن هنا فانهم لم يستطيعوا أن يسهموا فى بناء هذا الوطن من الناحية الفكرية ..

وفى اعتقادنا أن هذه التصرفات من جانب مؤلفى الكتب لوزارة التربية تمثل الاقطاع الفكرى البغيض الذى يكاد يجذبنا بعنف الى الاقطاع المادى ، فضـــلا عن تعويق الأذهان عن الانفعال بالقيم الأخلاقية والسياسية والدينية الصالحة .

ومعنى هذا بالطبع اثراء على حساب مصلحة الوطن ، ومبادئه ، مستخدمين فيه استغلال النفوذ ، ليصلوا من وراء هذا الاستغلال الى عدم دخول أحد فى عالمهم .. عالم التاليف فى وزارة التربية .

الأسس الفكرية فى التاليف :

وعلى كل حال فالذى نقصد اليه الآن هو الأسس الفكرية فى التأليف لأنها ذات أهمية قصوى فى التوجيه الفكرى والقيادى فى وطننا العزيز ؛ ومن هنا فلا بد أن تكون الكتب قد ألفت على أسس ثورية عميقة ، وأن تدعيم صلاتنا الثقافية بيننا وبين البلاد العربية ،

وأن تربط التلميذ بواقعه ، لا أن تجعل بينه وبين الواقع سدا منيعا ، لا يقدر على اقتحامه اذا ما أتيحت له فرصة النزول الى معترك الحياة .

والذى لا شك فيه أن الكتب المدرسية بهذا الوصف انما كانت تمثل انعزالا تاما عن الميدان الثورى الواقعى الى حد ما ، لأن مؤلفيها كانوا يمثلون فى الأغلب الأعم طائفة من كبار المفتشين — أى ممن جاوزوا الخمسين واقتربوا من الستين ؛ ومعنى هذا أن هؤلاء المؤلفين قد خمدت فى نفوسهم تلك الانفعالات الثورية التى يتمتع بها الشباب من المدرسين الذين تربوا على أحدث النظم التربوية التى تكفل للوطن رفعة ورقيا ، لم يتمتع هؤلاء المؤلفون بهذا ، وانما يتصدون للتأليف بعد ذلك .. يتصدون للتأليف فى مادة كاللغة العربية والدين ، هذه المادة التى تعتبر مفتاح القيادة مع المدرس الحكيم لتلاميذه ، والتى يمكن أن يحقق بها فى درس واحد ، ما لا يمكن أن يحققه مدرس الكيمياء ، أو العلوم فى سنوات معدودات ، لأن الأول انما يخاطب وجدان التلميذ ، والأخير انما يخاطب تلميذه بالتجربة البحتة التى ليس فيها وجدان ، ولا انفعال ولا جيشان للخاطر .

والناظر فى تأليف التربية القومية مثلا ، أى فى التاريخ والجغرافيا .. فترى عجبا .. ترى أن المواقع التى كانت البسالة فيها للجيش .. للشعب .. ترى هذه المواقع نفسها انما نسبت الشجاعة فيها لأناس كانوا بعيدين عن المعركة تماما ، وقد يكون أمر هؤلاء كأمر فاروق من معركة فلسطين .. يعلن الحرب ، ثم يخون الجيش الذى يزعم أنه قائده الأعلى ، ويخون الوطن الذى يزعم أنه مليكه .. يخون هؤلاء وهؤلاء ، ويخون معهم أيضا القضية الفلسطينية .. ومع ذلك كله كانت الكتب تتحدث عن فلسطين وعن معارك الجيش فيها فتحدثك بأن الانتصارات انما تمت بوساطة القيادة الحكيمة لقائد الجيش الأعلى .. قائد الجيش الذى يقضى

ليله معربدا سهران مخمورا .. قائد الجيش الذى لم ينزل الى أرض المعركة قط ، ولم يعرف مكانها ، وكان ينوى أن يقضى على الدرة التى تكلل هام البلاد ، وهى جيشها الباسل الذى ألف من الصفوة من أبنائها .. أبنائها الأصليين .. أبناء الزراع .. وأبناء التجار .. وأبناء أوساط الناس ، أما القلة المترفة فهم آنذاك كانوا فى ضلال يعمهون .

وهل كان الملك يدير المعارك من مصر مثلا .. لم يحدث مطلقا ، وهب أنه حدث ، فماذا كان يصنع أبطال الفالوجا ، وهم فى ميدان المعركة يقعون تحت ضغط نيران العدو ، وفى دوامة من فقد المئونة الحربية والمادية وغيرها ، ومع ذلك لم يسلم واحد منهم قط .. حقيقة ماذا كان يصنع هؤلاء بأوامره ، لو أن له أوامر أرسلها اليهم ، وهو لا يحس ما يحسون به ، ولا يشعر بشعورهم .

وبالرغم من ذلك كله فان الكتب كانت تحدثك حديثا عجبا عن الفالوجة .. عن الاستبسال الذى نفح به الملك جنوده فصمدوا فى المعركة ، ولو أنصفت الكتب وارادت التعريف باستبسال الملك لكانت نتيجته : **اما تسليم فلسطين** فى يوم وليلة ، **واما القضاء** على جيشنا قضاء مبرما فى أقرب فرصة يتيحها لهم الملك ، بامدادات من أسلحته الفاسدة التى زود بها الجيش الذى كان هو نفسه قائده الأعلى .

تتحدث الكتب عن الملك .. عن المدائح التى قيلت فيه .. عن عيد ميلاده . عن مجد آبائه وأجداده .. عن .. وعن .. وتنسى – ظالمة – الشعب الذى هو بالحديث أحق وأجدر .. تنسى الشعب الذى صنع أبطال ثورتنا وعلماءنا ومفكرينا وشبابنا وشاباتنا .. تنسى مجد هذا الشعب لا مجد الملك .. تنسى صبره على الأزمات التى حلت به ، والتى يجتازها واحدة تلو الأخرى فى سبيل مصلحة الوطن العليا .. قلب اذن فى كتب وزارة التربية الماضية ، وتجاوز

التقليب فيها الى القراءة ، وحدثنى ان شئت عن الأثر الذى خرجت به منها ، وسأختصر لك هذه العملية محدثا اياك بما وجدته فيها .

فى كتب اللغة العربية وآدابها .. كان التأليف فيها يسير على الطرق التربوية التى كانت سائدة منذ أمد طويل ، وانتهى العمل بها ، وأصبحت فى ذمة التاريخ التربوى . على أن الكتب لم تكن تقف على أحدث ما وصلت اليه الدراسات الأدبية فى أمر البلاغة بجميع فروعها من بيان ومعان وبديع .. هذه الفروع التى كانت تدرس ظلما بطريقة آلية عضلية .

ومن ناحية أخرى فنحن لا ننتظر من هؤلاء المفتشين وقد درسوا منذ أمد طويل وانتهت قراءتهم بانتهاء حصولهم على اجازاتهم الدراسية ، اللهم الا اذا كانت فى الكتب التى كانوا يدرسون فيها ، أو التى تعتبر امتدادا لها .. واذا تحريت الدقة فى هذه القضية فسل من شئت من مفتشى ذلك العهد عن الكتب التى يقرؤها ، وانك لن تخرج الا بما خرجت به الآن ، وستصدق ما قلته لك ، لأنه حكم على أساس الاستقراء والتجربة معا . واذا توفر للحكم هذان المبدآن كان صادقا منطقيا ، ومفجعا للعاطفة ، لأنه لا يعترف بها أمام المنطق الصراح .

أقول نحن لا ننتظر من هؤلاء التأليف على أحدث الطرق التربوية ، وحسبما يتفق وآخر ما انتهت اليه الدراسات الأدبية ، وانما ننتظره مثلا من أساتذة الجامعات والناضجين من رجال وزارة التربية الشباب الذين يقومون بالعمل فى الميدان ، والذين يستطيعون معرفة التلاميذ معرفة صحيحة قائمة على فارق السن البسيط .

وبجانب ذلك اذا اتجهنا للأمور الفرعية نجد أن التمثيل بالشعر ، أو بالنثر من أدبنا الحديث فى كتب وزارة التربية يقوم على اختيار آثار الأصدقاء من الشعر أو النثر .

ستجد مثلا قصيدة للمفتش الكبير ، بل قصائد ، وستجد أيضا قصيدة أو قصائد لأصدقاء المفتش وزملائه .. وستجد فى النهاية أن النصوص انما تمثل أسرة بعينها تعرفها بملامحها وتفكيرها من خلال النصوص والأسماء التى تتقدم النص الأدبى .

نعم اختيار الأمثلة يسير على هذه الأسس التى تعمى هؤلاء المؤلفين عن اختيار الأصلح الأقوم .. فقد يكون هناك مئات من النصوص التى تمثل الدرجة العليا فى البلاغة والذوق الأدبى ، والاحساس الانسانى الضخم ، ولم يقع عليه اختيار أصدقائنا المؤلفين » لأنه حال بين صاحبه وبين المؤلف أولى أسس الاختيار وهى الزمالة فى التخرج فى معهد واحد .

هذا هو الأثر الذى تخرج به من قراءتك للكتب الدراسية فى وزارة التربية وهو يذكرنا بالتنظيم الأسرى الذى خرجت عليه الثورة وقضت عليه قضاء مبرما .. فهل يدعو هذا الأثر الذى نخرج به من تلك الكتب الى الاشتراكية وبعثها فى نفوس أبنائنا التلاميذ .. هل يدعو الى الاشتراكية فى الحقوق والواجبات وتحقيق مبدأى تكافؤ الفرص والبقاء للأصلح بيننا ..

لا نظن ..؟ ؟

فى التفتيش :

وفى عملية التفتيش يظهر الاقطاع الفكرى ، والتنظيم الأسرى بجلاء ووضوح شديدين . غير أنه يجمل بنا قبل أن نتحدث عن التفتيش والمفتشين أن نبادر فنبعث بالتحية الخالصة الى أشخاصهم كآباء موقرين لهم علينا واجبات السن وفوارق العمر . كما أننا لا نقصد بحديثنا هذا ذواتهم لأنها ليست موضع المس والتناول ، ولكننا سنعرض فقط لما كان يفعله البعض منهم ممن يحتمون بوظيفتهم .

ومن جهة أخرى فان الروتين الذى يسير عليه المفتشون قد جعل مهمتهم مقبرة للمواهب ، وتجميدا للعقول المفكرة الخلاقة ، لأن المفتش منهم يريد من مدرسى الوزارة جميعهم أن يكونوا على نموذج واحد اشترعته تلك الحفنة من المفتشين الكبـار الذين يتوارون خلف مكاتبهم ، بحيث يصبح كل المدرسين كنسخة مكررة فى كل مدرسة .. فى كل فرقة .. فى كل فصل .

والويل والثبور وعظائم الأمور لمن تحدثه نفسه بأن يخالف ذلك المنهج الشكلى .. منهج المفتشين .. وان كان يعمل فى الوقت نفسه بجد واخلاص ومهارة .. الشكليات أولا وأخيرا ..

اما الضمير .. أما الوازع الخلقى فى تأدية العمـل .. فليس المفتش مسئولا عن ذلك ، لأن هذا شىء ثانوى لا تأبه له الوزارة حينذاك ، ولا تعيره اهتماما .

وهـذه الشكليات نفسـها لا يمكن على أساسها ان يحاسب المفتش المدرس على عمله ، ولا مراقبته بأى صورة من الصور ، بل ان المدرس الذى يفتقد الضمير والوازع الخلقى بوسعـه أن يلعب بالمفتشين وأن يخلص من أحابيلهم ، بل بوسعه أيضـا أن يهمل التلاميذ ، وأن يفسـد التعليم ، وأن يقضى عامه الدراسى موفور الراحة ناعم البال ولتكن نتيجة التلاميذ فى آخر العام ما تكون ، ما دام هو يستطيع أن يعبث بالمفتشين وبالدولة من ورائهم ..

ويحق لنا أن نتساءل هنا ..

كيف يمكن للمدرس أن يعبث بالمفتشين وبالدولة ؟ لأن الاجابة على هذا السؤال سوف تهدينا الى واقع المدرس المسلوب الارادة والتفكير وهما مناط الاقطاع الفكرى الذى يحدث من المفتشين للمدرسين ..

نعم ، فالمدرس يعبث بالمفتشين ، لأنه اذا كانت براعة المفتش ، أن يضبط « دفتر التحضير » فان المدرس يستطيع أن يملأ له

« دفاتر التحضير » من أول العام الى آخره ، يستطيع أن يملأها بالعلم الحديث ، مزينــا بالتنظيم الجميل الذى يجمع مختلف الالوان بحيث يغدو دفتر التحضير كالحديقة الغناء التى تسر المفتش وكبير المفتشين ان حضر اليه فى المدرسة . يستطيع المدرس أن يعد فى داخل الاعداد السنوى السابق لكل حصة واجبها ، وما عليــه فى أثناء اليوم المدرسى الا أن يضبط التاريخ الهجرى والميلادى . والمفتش يرى حينئذ أن دفتر التحضير نموذجى لأن هناك خطوطا زرقاء وحمراء تفصل بين الحصص وبعضها ، وهى ولا شك موضع تقديره . ويؤسفنى أشد الأسف وآلمه أن هذا الذى أقول باستطاعته للمدرس . يؤسفنى أن أقول أيضا انه هو الذى يحدث عند ٩٥ فى المائة من المدرسين .. ومن هنا نرى أننا قد وصلنا الى المدرس المكرور الذى نجده فى كل مدرسة .. فى كل فرقة .. فى كل فصل ..

* * *

وقد يتوهم المفتش أنه يستطيع أن يتخذ كراسة التلميذ مادة لمحاسبة المدرس على ما فرط منه فى حق التلاميذ ، يستطيع أن يراجع كراسة وكراسات ليرى هل تتفق وعدد الموضوعات التى يمكن أن يكون التلميذ قد أخذها ، وهذا على طريقـــة التفتيش « العضلى » الذى نراه سائدا بالوزارة ، حيث يعمد المفتش الى عد موضوعات الانشاء والاملاء والتطبيق ، ثم يحسب الأيام التى مضت من العام الدراسى ، ويوازن بين الزمن والعـــدد من تلك الموضوعات وهل هى ملائمة من حيث الكم أم غير ملائمة ..

يحسب المفتش الموضــوع كميا ، ولا ينظـر اليها من حيث الكيف .. من حيث نوع الموضوع .. من حيث افادة التلميـــذ منه .. من حيث الأثر الذى انطبع فى ذهن التلميذ من أعمـــاله التحريرية ..

والذى لا شك فيه أن الموضوعات الكثيرة التى يملأ بها التلميذ كراسته لا تفيده فى كثير أو قليل ، لأنهـا ليست من وحى خاطر التلميذ بل من وحى املاء الموضوع عليهم ، أو من « انشاء اليوم » ذلك الكتاب الذى ألفه جماعة من مدرسى اللغة العربية ، وغير ذلك من الكتب التى تهتم بتحفيظ الأولاد بعض الموضـوعات التى يحتاجون اليها .

اجل . قد يتوهم المفتش أن كراسة التلميذ سيصيب بهـا مقاتل المدرس . ولكن ليطمئن المفتش ولتهدأ أعصابه الثائرة ، لان الكراسة ليست مأزقا للمدرس يصعب التخلص منه ، على انسان عادى ، فضـلا عن مدرس متخابث يريد التخلص والهروب من العمل ..

حقيقة فى وسع المدرس المهمل أن يتخلص من الشكليات التى كان المفتش يعلق عليها الأمل الكبير فى ضبط اهمال هذا المدرس ، وذلك بأن يوصى عددا من تلاميذه بأن يكتبوا موضوعات كثيرة ابان الدورة التفتيشية ، ويسرع بتصحيحها ، ويقـدمها للمفتش ، ويحسب له عدد الموضوعات التى كتبها التلاميذ ، وذلك فى الوقت الذى لا يوجد نصف هذه الموضوعات بكراسات أغلب التـلاميذ الآخرين ، الذين لم يقع عليهم اختيار المدرس لكتابة الموضوعات التى أوصى بها زملاءهم الآخرين ، وبذلك يكون قد نفذ من العقاب المنتظر ، والتهديد المرتقب ، وهذا هو الذى كان يحدث فعلا .

ومن ناحية أخرى فانه فى وسع المدرس الذى أعد دروسه منذ شهور مضت أن يملى على التـلاميذ املاء الموضوعات ويصححها بمنتهى البساطة ، ولن يتعب فى تصحيحها ، لأنها من صنع يده ، وليس للتلميذ فيها تفكير أى تفكير مما يؤدى الى ترديه فى الأخطاء التى تتعب مدرسه .

كمـا انه مما لا يرقى اليه الشـك أن يتوهم المفتشون انهم

يستطيعون محاسبة المدرسين ، لأن المدرس الذى افتقد ضميره لا يستطيع مفتش أى مفتش ان يأخذ عليه أى تقصير من الواجبات الشكلية التى يهتم بها ، ويعول عليها المفتش ، والتى تسىء فى الوقت نفسه الى كل من المفتش والمدرس معا ، وهذا بالاضافة الى اساءتها الى التلاميذ والدولة فى آن واحد .

المدرس اذن لا يعمل بجد واخلاص الا بواسطة شىء واحد ، لا يستطيع المفتشون أن يعثروا عليه ولو اجتمعوا على قلب رجل واحد ، وفى صعيد واحد ، وهذا الشىء هو الضمير . واذا وجد هذا الضمير عند المدرس فليست الدولة ولا المدرس فى حاجة الى الشكليات التى تلتحف بها وزارة التربية ، مع اغفالها أن المدرس لا يمكن أن يعمل وسيف المفتش بشكلياته وشكليات الوزارة مصلت على رقبته ، ذلك أنه لا يستطيع أن يقوم بتلك المهمة التى هى أعمق من كتابة الموضوعات واستظهارها ، مهمة التربية وتقويم المعوج من التلاميذ ، وتكوين الوازع الخلقى والدينى والوطنى فى نفوسهم .

أجل ، لا يستطيع المدرس أن يقوم بتلك المهمة ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، وأما وقد افتقد الثقة فى حبه للعمل ومزاولته ، فمن باب أولى فانه لا يستطيع أن يغرس تلك الثقة فى نفوس تلاميذه ، يستطيع فقط أن يخرج منهم شخصيات مهزوزة لا تفيد وطنها بقدر ما تضره ، لأنها لا تعمل الا على أساس من المراقبة والتخويف والتهديد والوعيد .

التقرير الفنى :

وانتقل بعد هذا الى كتابة التقرير الذى تتمخض عنه وظيفة المفتش ، ذلك التقدير الذى لكتابته قصة عجيبة ، اذ انها غالبا ما تخضع لأهواء المفتش قبل أن تخضع لصلاحية المدرس . وليس له بعد ذلك من شأن يذكر فى ترقية المدرس ، لأن ترقيته تأتى أولا وأخيرا من مكاتب التفتيش بالوزارة .

واذا صح هذا فلم يخضع المفتش اذن الى نزواته فى كتابة التقارير عن المدرسين ؟. والجواب على هذا هين يسير .. يكمن فى عدم تجاوب المدرس للمفتش فى أوامره التى يلقيها فى دورته الأولى والتى تسمى ظلما « دورة توجيهية » . وقد تكون هذه التوجيهات أو الأوامر مختلفة كل الاختلاف عن أحدث النظم التربوية التى درسها فى كليته .. قد يكون ذلك .. ولكن هذا لا يهم ، لأنه لا تعقيب على مفتش ، والا كانت العاقبة وخيمة .. أهونها النقل وتقدير « ضعيف » فى التقدير .

ولأجل أن نعرف مدى سلطة هؤلاء المفتشين ، أو قضاة « محاكم التفتيش » بتعبير آخر لأجل أن تعرف ذلك يحق أن نروى تلك القصة التى رواها لى أحد الأصدقاء والأسى يحطم نفسه والشجو يحتفظ بنصيب الأسد من صوته .

يقول الصديق انه كان حديث التخرج من احدى كليات الجامعة ودرس التربية العامة والخاصة وعينته وزارة التربية فى وظيفته التى تخصص فيها وهى وظيفة مدرس لغة عربية ، ومضى عام دراسى حاول هذا المدرس فيه أن يقوم بمحاولات فى تدريس الانشاء بحيث تفيد التلميذ فى التعبير وفى تكوين الثقافة التى ينعاها ديوان الموظفين على طلاب الجامعة وطالباتها ، وفى هذا العام حظى بتقدير ٨٨ درجة من مائة وبجوارها تقدير أدبى عظيم .

وشاءت قدرة الله أن ينقل المفتش الى الزقازيق ، وأن ينقل المدرس الى مدرسة أخرى ليلتقى بمفتش آخر كان مثالا للارهاب والتهديد بواسطة سيفه الذى قلدته اياه وزارة التربية ، وهو التقدير ، وليمض العام رويدا رويدا بطيئا متثاقلا ، نال المدرس تقديرا غاية فى الشناعة اذ حصل على ٧٦ درجة وبجوارها مايتضمن ان المدرس يرهب المدرسة الى آخر ما كتب المفتش أعفاه الله .

فلما كان العام الثالث التقى بمفتش آخر ، وشاءت المنطقة أن تعقد مؤتمرا لمدرسي اللغة العربية ومفتشيها وحضر ذلك المفتش . وقام المدرس ونعي على المفتشين أنهم ينظرون الى عملية التفتيش على انها محاكمة بين طرفين مقضي على أحدهما الا يدافع عن نفسه ، لأن هذا الحق لم يخول له بعد . نعي المدرس على المفتشين هذا ، كما نعي عليهم انهم يحاسبون المدرس محاسبة عضلية بمعنى عد الموضوعات ، وتقدير ما بقي من الزمن وما فات ، وعمل معادلة للزمن الماضي ، والزمن الباقي مقسومين على عدد الموضوعات .. وهكذا .

تقدير عضلي يمكن لأي كاتب أن يقوم به ، وتقويم تافه لا يحتاج الى الابقاء عليه .

حدث هذا في المؤتمر في أول العام ، ومضى بعد ذلك العام الا خمسة عشر يوما ، وفي ذلك الوقت حضر المفتش ليقوم بمهمته . وهنا لجأ الى الناظر ، وقال له حينما حضر .. انني لم أحضر الى الآن نظرا لمهاجمته .. لنا في المؤتمر ، فأسر الناظر الى المدرس بذلك وفاتح المدرس المفتش بذلك فلم ينكر ما حدث ، وقام بالتفتيش وانصرف . وفي هذه المدة كان الدكتور محمد مندور قد كتب كلمة تقدير للمدرس من واقع كراسة أحد ابنائه في المدرسة ، قال فيها انه طالما أوصى بأن تغير الوزارة ذلك النظام العتيق البالي في تدريس الانشاء ، وارتضى منهج مدرس ابنه ، ــ وهو المدرس الذي هو غريم المفتش ــ بل انه قد طالب أيضا بأن تحقق الوزارة هذا المنهج في جميع مدارسها .

ولما كانت عادة كل مفتش أن يرسل تقارير المدرسين عقب الدورة التفتيشية فلم يرسل هذا المفتش تقارير مدرسي هذه المدرسة حتى انقضى العام الدراسي ، وابتدأت الاجازة السنوية ، وانتهت أيضا ولم تحظ المدرسة بتقاريره التي أعطاها للمدرسين

مخافة أن يثور هذا المدرس الذى بيت النية لغمط حقه فى جنح الظلام من زوايا ضميره المدلهمة .

واخيرا حصل المدرس على التقدير الذى يبلغ ٧٦ درجة أى يزيد على تقـدير « مرضى » وهى أضعف التقديرات ـ بدرجـة واحدة ، وبجواره أن المدرس يعرف كيف ينتفع باجازاته . وهذا كذب صراح لأن سجلات المدرسة تشير الى أن هـذا المدرس لم يأخذ اجازة مرضية واحدة ، لا بل لم يأخذ اجازاته العرضية .

وفى التقرير أن المدرس لم يتعاون مع المدرسة ، وهذا خطأ بين ، لأن المدرس كان يشرف على جماعة التمثيل ، وظل يصرف لمدرب التلاميذ على التمثيل مكافأته ويحضر معه الى آخر العام ، وذلك من واقع سجلات المدرسـة ، كما أنه كان يشرف على جمـاعة الصحافة ، وأخذ تلاميذه فى يوم من أيام الجمعة الى الأستاذ عباس العقاد عمل معـه تحقيقا صحفيا نشر بالمجلة ، كما انه قام بعـدة تحقيقات صحفية نشرت كذلك .

الى آخر ما جاء فى التقرير من مفتريات يعـلم الله كذبها ، وتنقضها سجلات المدرسة ، وينقضها وازعه الدينى ـ أن صح أن عنده وازعا دينيا ـ والا لما أخفى التقدير عن المدرسة ..

فانظر يا ـ رعاك الله ـ ماذا يصـنع المفتشون فى المدرسـين ، لا سيما الأكفـاء منهم بشهادة أحد كتاب مصر الأفذاذ ، وبشهادة النتيجة السنوية لتلاميذه الذين يدرس لهم ، والتى لم تخرج عن مائة فى المائة فى سنواته التى درس بها الى الآن ..

فالمفتشون اذن يرهبون المدرسين بتلك التقارير .. رجاء أن يسيروا كما يريدون ، وينسوا انفسهم وذواتهم وعقولهم وتفكيرهم ينسون كل ذلك على مذبح « قضاة التفتيش » مفتشى الوزارة .

ومن هنا فانك لواجد أن كل القيم الثورية الجديدة .. أن الدماء الثورية التى تغلى فى عروقهم تنصهر فى بوتقة يشكلها هؤلاء المفتشون حيث يرجعون بالمدرسين الى الوراء عشرات من السنين .

دعك من قولهم الذى يتشدقون به فى كل وقت ان الوطن يتطلب كذا وكذا .. فهذا والله ظلم — لو تعلمون — عظيم .. ظلم للوطن وللمدرسين ، لأنهم فى هذا الوقت الذى يقولون فيه هذا ، نراهم يلتفتون الى همزة غاب عن تدوينها التلميذ .. ويكتبون عنها فى التقرير « والمدرس لا يعنى بالتصحيح » ..

واذا ما تحدث المدرس عن التطور الحتمى للتاريخ وتناول أكثر من موضوع كتب له فى التقرير « والمدرس يجمع من هنا وهناك ، كأنه حاطب ليل » ، أو « لو قيست الدرجة بالأخلاق لأعطيته امتيازا » ويسكت المفتش على هذا ..

ولطالما سمعت المفتش انه يمن على المدرسين بطريقته فى التفتيش ، تلك الطريقة الحديثة « المودرنيزم » ، لأنه عاش حياته العملية أسود من الليل ، شاهد فيها المفتشين من أمثال المرحوم على الجارم يشتم المدرسين فى الفصل أمام التلاميذ ، وشاهد كذلك الناظر وهو يأمر الساعى بألا يفتح المدرسة للمدرس الذى لم يحضر قبل الدراسة بنصف ساعة ..

يمن المفتش بهذا ، وما درى أن هذا كان يحدث والاحتلال قائم على أرض مصر وعلى رءوس المصريين أيضا ، بل ولا زال له آثار فى رءوس أمثال هؤلاء المفتشين الذين طالما ترحموا على الماضى الذى كان المدرس يشتم فيه أمام تلاميذه ، ويغلق الباب فى وجهه من فراش المدرسة .. وهم يحنون الى الماضى .. ويريدون أن ينقلوا الصورة لمعاملتهم فى شبابهم الى المدرسين فى العهد الماضى .

ونخلص من هذا كله الى ان الشكليات التى يحتفى بها المفتش ، والتفتيش العضلى الذى يغرم به ، والطاعة العمياء التى يتطلبها

المفتش من المدرسين . كل ذلك يجعل من المدرس انسانا ينسى نفسه وتفكيره وعقله ويبدده على صخرة التقدير الذى كان المفتشون يخوفون به ويهددون . يصنع هذا المدرس ويتحور الى انسان آخر يهتم بالشكليات ، ولا ينظر الى العمل الا من الزاوية التى ترضى المفتش فقط ، وينسى المصلحة العامة » وينسى كذلك ضميره ووازعه والقيم التربوية الجديدة .. ينسى هذا وذاك فى سبيل ارضاء المفتش .

ومعنى هذا بكل اسف أن المدرس اذن يعمل بفكر المفتش ، ولا يسلك سلوكا لا يوافق عليه مفتشه ، والا كانت النتيجة النقل والتشريد ..

واذا نظرنا الى نفسية المدرسين لوجدنا أنهم اناس لا يريدون أن يزيدوا اعباءهم المالية اعباء مالية أخرى يتطلبها النقل من مكان الى آخر . ومن هنا فانك لواجد كذلك أن هذا العدد الضخم ـ الذى يعد بعشرات الآلاف بعد المائة ـ يذعن للمفتشين اذعانا فيه اخلاص شكلى أيضا ، بحيث يظهر للمفتش انه لا يرى الا بعينيه ؛ ولا يسمع الا بأذنيه ، ولا يزاول حواسه الا كما يزاولها المفتش ..

* * *

ومعنى هذا كذلك أن التعليم بهذه الصورة مشجع للاقطاع الفكرى ، لأن هذا بطبيعة الحال ينعكس على التلاميذ فيقتل فيهم مدرسهم كل باعث للحرية أو التفوق أو النبوغ ، لأنهم هم المادة الطيعة التى يستطيع المدرس أن يبث فيها روح اليأس والقنوط والاشمئزاز من الحياة .

وليس هذا غريبا على مدرس لا يستطيع أن يمارس الحرية فى أدنى مظاهرها مع المفتش ورؤسائه أن ننتظر منه أن يكون معلما للحرية ، لأن أولى بدهيات المنطق تقول « فاقد الشيء لا يعطيه »

فمن العبث اذن أن ننتظر منه تلك المهمة ونحن نعلم أنه يقاسى الأمرين من معاملة المفتشين له .

وانما يأتى الانصاف حينما ننظر الى الواقع المر بكل ما له وما عليه .. حينما نرى أن المدرس ينظر الى تلاميذه كآلات يحركها بيده ، ويؤذي من يخالف منهم أوامره ، لأنه يعامل هكذا من مفتشه الكريم السخى فى الايذاء .

ومن هنا لا بد من العمل على تغيير مهمة المفتش : فبعد أن كانت مهمة قاض من قضاة محاكم التفتيش ، تصبح مهمة موجه فقط ، يرشد المدرس الى الأخطاء التى قد تكون مرت عليه ولم يتنبه لها ، وبذلك تسود المحبة والوفاء بين المفتش كرئيس ، والمدرس كمرءوس . وهذا ولا شك ينعكس على التعليم والعملية التعليمية ، التى يقوم بها المدرس ، ويصبح انسانا مبتكرا فى حدود الاطار العام الذي يسميه رجال التربية بالمنهج المرسوم .

وبذلك ايضا نتخلص من القابلية للاقطاع الفكرى التى تمزق العلاقة الانسانية ، وتئد روح الاخوة بين المفتش والمدرس فى مهدها ، وفي الوقت نفسه تقضى على نظام « أسرة المفتشين » فى تلك العملية التركيبية المعقدة ، وبذلك نستطيع أن نقف بالمدرس وقفة من يخلق الأجيال ويبنيها ويقومها .

وحينما نقول هذا القول ونحن بصدد الحديث عن وزارة التربية ، فانما يدفعنا اليه دفعا لا هوادة فيه طبيعة مجتمعنا الجديد ، ذلك المجتمع الذى لا يفتأ رئيس الجمهورية يتحدث عنه ، ويصفه بأنه « مجتمع جديد يستكمل ملامحه الأساسية ليكون مبعث العزة والكرامة لكل فرد فيه ، وليكون لكل منهم حقه ، وليكون لكل منهم فرصة .. ليكون لهم جميعا حقا ثابتا فى الكفاية والعدل .

« ان أمة جديدة تتحرك .. ان امة جديدة تعيد كتابة

التاريخ .. ان أمة جديدة تتحمل مسئولياتها لتكون قوتها دعامة للعرب جميعا وللأحرار جميعا فى كل مكان » (١)

فهذا المجتمع الذى يتحدث عنه الرئيس دائما بمثل هذه اللهجة الحانية ، وبهذا الفهم العميق لمجتمعنا الطبيعى الأصيل .. هو الذى دفعنا الى أن نفكر مرات ومرات فى شئون التربية والتعليم الملقاة على عاتق هذه الوزارة .

ولعلنا لا نكون مجانبين للصواب اذا عرضنا للاتجاه العام لعملية التربوية فى مدارسنا ليتسنى لنا الحديث بعد ذلك عن سس الاتجاه الذى يتفق ومجتمعنا الجديد .

* * *

وحسبنا فى هذا المقام أن نعلم أن الدافع الفردى هو الذى يسيطر على العملية التربوية وذلك من حيث الواقع الفعلى ، لا من حيث ما هو مدون فى المناهج واذهان المربين الذين يسيطرون على تقويم العملية التربوية فى المدرسة المصرية .

ونحن لا نعيب ذلك الاتجاه من حيث أنه يجعل للفرد قيمة عليا ، وانما نعيبه لأن نتيجة الأخذ به فقط هى انعدام روح الفريق فى المواطنين ، ومن هنا كان خطرها جسيما .

حقيقة ان مناهج وزارة التربيـة تقول بأن هدف التربيـة هو تشكيل الفرد إجتماعيا حتى يتمكن من المساهمة فى حياة الجماعة ومظاهر نشاطها ، ومن أجل هذا فهموا المدرسة على أنها مجتمع ملىء بالخبرات ، ومن هنا أخذوا فى تزويدها بكل ما ينمى هـذا الهدف لدى التلاميذ .

حقيقة هذا هو المدون على الورق ، والمنفذ فعـلا من حيث يجاد الوسائل .. لكن الذى يحدث غير هذا ، ولكن لماذا ؟..

---

(١) من خطاب الرئيس فى عيد الثورة التاسع ٢٣ يولية ١٩٦١ .

لأن المدرسة غير عابئة ولا مهتمة بنمو الطفل الذاتى ، لأنه نقطة البداية فى العمليــة التعليمية ، ولا بتحرير قدراته ، وعدم تدخل الكبار فى نموه ، كما لا تهدف الى تشكيل التلميذ اجتماعيا حتى يتمكن فى النهاية من مواجهة واقع الحياة ، ومن المساهمة فى حياة الجماعة ومظاهر نشاطها ..

ونوضح اكثر فنقول : من الذى يقوم بتنفيذ هذا الاتجاه فى مدارسنا ؟ سيجيب القارىء على الفور قائلا : المدرس .. ونجيب نحن فنقول ان المدرس الذى يقوم بالتدريس رجل تخرج واقسم فيما بينه وبين نفسه الا يقرأ ثانية ، لأنه ليس عنده وقت من ناحية ، وليس بحاجة الى القراءة ودفع أثمان للكتب التى سيقرأها وهو فى حاجة الى هذه النقود . ومعنى هذا انه وقف فى تطوره ، فلا يفهم اذن من هذا الاتجاه شيئا ، وانما يقرؤه ولا يستطيع تطبيقه فى الفصل .

وبجانب ذلك فان هذا الاتجاه نفسه ليس محققا بين المدرسين أنفسهم اذ أن التلميذ معرض لعواصف شتى تهب عليه من كل الجهات ، وهى تحمل فى طياتها تحطيمه حتى تجعل منه انســانا مشدوها يرقب ما يدور فى الفصل فى خوف وحذر ، والفصــل فى المدرسة المصرية عبــارة عن معرض لحشد من المدرسين الذين لا تجمعهم رابطة ولا اتفاق فى المشاعر ولا وحدة فى الفكر ، ولا غير ذلك من الصلات التى يجب أن تتحقق فى المدرســة الحديثة التى تهدف الى بناء أمة وتكوين دولة .

والنتيجة التى تبرز من وراء ذلك أن كل مدرس يهدم ما يعمله زميله ، أو يهتم بمادته هو على الأقل .

ومعنى هــذا أن كل مدرس عالم بأسره ، له أحواله وطبيعته التى لا تختلط بأحوال وطبائع العوالم الأخرى من زملائه .

ولسنا بحاجة الى أن نقول فى شأن المادة الواحدة أن مدرسيها

لا يكادون يجتمعون أيضـا على أى رأى أو اتجاه ، لأنهم مختلفو المؤهل ، والتربية ، والتكوين الشخصى ، وكل منهم يرى أنه أحق بمكان الصدارة ، وله شكاواه ومبرراتها من واقع نفسه طبعا . ولم يدفع ثمن هذا كله غاليا سوى أمتنا فى أعز شىء لديها وهو ثمارها من أبنائها الأعزاء .

* * *

هذا هو الوضع الذى تقوم عليـه مدارسنا وهو لا يتفق مع طبيعة مجتمعنا الجديد ، وحينئذ نسائل أنفسنا عن حقيقة الوضع اللائق الذى يجعل من مدرستنا المصرية مدرسة حديثة هادفة تنقل قيم هذا الوطن ومقـدساته الى أذهان التـلاميذ ، وتتفق مهمتها وطبيعة المجتمع الجديد . وذلك عن طريق جعل المواد الدراسية مرتبطة ببعضها البعض بحيث تكون وحدة عامة تخلق فى التلميذ اتجاها نحو وعى ثقافى ووعى وطنى وسياسى واجتماعى ، وغير ذلك من الأمور التى يراد غرسها فى التلميذ عن طريق الايحاء ، وهو فى أيدى بناة البشر ، وموجهى الأجيال .

* * *

ولكى نصل الى ما نريد من الاتجاه الملائم لتطورنا فى مجتمعنا الجديد ، لا بد أن نعمل على تثقيف المدرسين وتدريبهم ، واعلان التعبئة العامة للمدرسين الذين يفتقدون نوعا من التأهيل العلمى أو التربوى ، وذلك عن طريق دراسـات تدريبية تلقى عليهم فى فترات من العام الدراسى .

كما نعلن التعبئة العـامة على كل مدرس بأن يكون على ذكر بمعلوماته التى تلقاها فى معهده من ناحية ، وأن يستقبل الجـديد فى الطرق التربوية من ناحية أخرى ، وبأن يقف على مدى التطـور الذى أحرزه مجتمعنا ، وألا يرقى الا بعد اجتياز مسابقات تحريرية وشفهية فى مادته بحيث يتابع الجديد فيهـا وهو يقوم بالتدريس

ولا يقف فيها على ما حصله فى كليته من معلومات ضئيلة بالنسبة الى التطور الدائم المتتابع .

وبجانب ذلك فلا بد من أن ننظم للمدرسين مسابقات لاختيار افضل المرشحين فيها للسفر الى تكميل دراساتهم بالخارج ، ونتيح الفرصة لكل من يحصل على تقدير معين مع استمراره فى دراساته العليا بأن يتفرغ للدراسة مع منحه راتبه كاملا .

وكل هذه الأشياء تدفع بالمدرسين الى التزود من المعارف لكى يكونوا مواكبين للتطور الذى أحرزه مجتمعنا . غير أننا لا نغفل فى هذا المقام ما يعانيه المدرسون فى اداء مهمتهم التى تحتاج الى جهد كبير فى الأداء ، وجهــــد أكبر فى التحصيل وذلك فى الوقت الذى يشعر المدرس منهم أنه لم يحصل على حقــه كاملا ، ذلك الحق يحصل عليه زميله الذى عين فى وزارة أخرى من خريجى دفعتــه فى كليته التى تخرج هو فيها ، وذلك بالرغم من أن مهنة التدريس شاقة ، وتحتاج الى اعباء مالية كبيرة ، كان لابد أن تتحملها الدولة ليخلص فى ادائها على الوجه الاكمل .

نقول اذا تحقق له هذا فاننا سنضمن نجاحا أكبر فى مهمته المنوطة به ؛ ونضمن كذلك أن يكون تفــكيره وسلوكه اشتراكيا ، ويصــبح هذا الحشد من المدرسين لسان الاشتراكية فعـــلا فى مدارسنا ، وذلك من واقع أعماقهم وأغوار نفوسهم ، بل ويعملون على خلق وعى اشتراكى بناء فى نفوس أبنائنا وبناتنا .

وعلى الوزارة أن تكفل المدرس حرية التصرف فى نشــــاطه الخاص خارج المدرسة ، بحيث لا يكون لهذا النشاط أثر عليه فى وظيفته ، وخاصة اذا كان هذا النشاط فى الميدان الفكرى ، فله اذن أن ينتقد اى رئيس من رؤسائه فى أعماله الفكرية على شريطة أن يكون النقد بناء وهادفا ، لأن النقد لهؤلاء لا ضرر فيه ، بل انه يعمل على اصطراع الآراء تجاه الموضوع الذى ينقد ، ويخرج هؤلاء

وهؤلاء من هذه المعركة بالحصاد الذى هو الثمرة المرجوة التى تفيد الوطن ، على أن يكون هذا النقد كما قلنا قبل ذلك بناء وهادفا .

* * *

اما من ناحية الكتب المقررة فلا بد أن يكون أساس اختيارها هو صلاحيتها وقيمتها العلمية ــ لأن العلم هو كل شىء فى الحياة ، ولابد ان تكون موافقة لمناهج الوزارة بغض النظر عن المؤلفين سواء اكانوا كبارا أم صغارا فى الوزارة . وأن يعمل على أن يسهم فى تلك المسابقات لهذه الكتب أساتذة الجامعات المتخصصين فى المادة التى يطلب فيها التأليف وأن تتخلص الوزارة من الدروب والمسالك التى كان يسلكها الفائزون فى تلك المسابقات مع كثرة القوانين المشروعة لهذا الصدد ، فلسنا بحاجة الى القوانين الكثيرة ، قدر ما نحن بحاجة الى تطبيق هذه القوانين على حقيقتها . ذلك ان المشكل ليس هو اشتراع القانون ، وانما المشكل حقيقة هو تطبيق هذا القانون على مشاكلنا وامورنا التى نحتاج فيها الى القانون .

وبذلك نستطيع ان نحمى الأكفاء الذين يدخلون تلك المسابقات ، والذين يمكنهم أن يفيدوا العلم وبتقدموا به فى غير اخلال بقواعده وجوهره وروحه ، نظرا لأنهم قد تخصصوا فى المواد التى هى موضوع المسابقات ، بالاضافة الى الذكاء والخبرة ، ويريدون أن يسهموا بذلك كله فى بناء هذا الوطن من الناحية الفكرية .

وبجانب هذا فان الأسس الفكرية التى تقوم عليها الكتب المقررة يجب أن تكون أسسا ثورية عميقة لا تغفل أمر المجتمع واحتياجاته .. بمعنى أن تكون النصوص الأدبية المختارة مشتملة على النصوص التى تصور الشعب وتطوره النفسى فى كل عصر من العصور ، لا أن يقتصر اختيارها على النصوص التى تصور الحكام والأمراء فحسب ، وذلك لان هذه المادة تعتبر مفتاح القيادة مع المدرس الحكيم لتلاميذه ، والتى يمكن أن يحقق بها فى درس واحد ، ما لا يمكن أن يحققه مدرس المواد التجريبية فى سنوات .

ومن ناحية أخرى ينبغى أن تكون كتب التربية القومية مرآة واضحة لصانعى التاريخ وهم الشعب ، فالمعركة التى يستبسل فيهـا الشعب مثلا لا تنسب شجاعته هذه الى غيره ممن لا يرون المعركة ، ولا يعرفون عنها شيئا الا عن طريق السماع .

على ان هناك ناحية يجب الا نغفلها فى هذا المقام ، وهى اختيار المادة للتأليف ، فيجب ألا يختار المؤلفون فى اللغة العربية مثلا نصوصا لأصدقائهم وزملائهم ، ويتركون انتاج خلق الله الذى يفوق انتاج زملائهم من حيث الجودة الفنية والفكرية ؛ لأن اختيار نصوص الزملاء المؤلفين يعميهم عن اختيار الأصلح الأقوم من النصوص التى تمثل الدرجة العليا فى البلاغة والذوق الأدبى ، والاحساس الانسانى الضخم .

وبجانب ذلك فان الأصل النفسى لبرامج التعليم فى مدارسنا ومعاهدنا يجب أن يكون انسانيا عاما ، كما أن هذه البرامج يجب ان تعمل جاهدة على دعم اتاحة الفرص المتكافئة فى نفوس الطلاب وقبلهم المدرسين والمسئولين فى القطاع التعليمى بصفة عامة ، وأن هذه البرامج تعمل كذلك على تطور نفسية الطالب حسبما يتفق والتطور الاجتماعى والسياسى حتى يمكن الطالب أن يضطلع بذلك فى حياته العامة .

وخلاصة الخلاصات فى أمر هذه البرامج من الناحية النفسية انها يجب أن تعمل على اعداد قواد للثورة النفسية ، بحيث يكونون نماذج لمن سواهم فى الايثار والتضحية والنزاهة واحترام الذات ، ونشر المحبة بين الناس ، واحقاق الحق ، والتمسك بالفضيلة ونصرتها فيما يكتبون من دراسات أو يذيعون من أحاديث ، أو ينشرون من مقالات .

ذلك أن الوطن فى حاجة الى جهود السادة المدرسين وتلاميذهم

في هذه الآونة العصيبة من تاريخه ؛ ومن هنا فان برامج الوزارة يجب الا تقتصر على اخراج موظفين للعمل فى مكاتب الحكومة .

* * *

على أن الميثاق (١) قد نبه الى اعادة دراسة مناهج التعليم ثوريا لكى يكون هدفها هو تمكين الانسان الفرد من القدرة على اعادة تشكيل الحياة . واذا تحققت هذه الدراسة لمناهج التعليم وتغييرها بما يتفق وجوهر الثورة وهدفها ، فان هذا سوف يتيح الفرصة لتنمية ثقافة نابضة بالقيم الجديدة ، عميقة فى احساسها بالانسان ، صادقة فى تعبيرها عنه ، قادرة بعد ذلك كله على اضاءة جوانب فكره وحسه وتحريك طاقات كامنة فى أعماقه خلاقة ومبدعة .

ومعنى هذا أن العلم فى عهدنا الحاضر يجب ان يكون السلاح الحقيقى للارادة الثورية ، والذى يجب أن تعتمد عليه الثورة لتحرز تقدمها الذى تنشده ، والذى تعلق عليه أكبر الآمال فى الوصول الى حياة أفضل للمواطنين .

واذا تخلت الثورة عن العلم فانها لا تعدو أن تكون انفجارا عصبيا تنفس به الأمة عن كبتها الطويل ، ولكنها لا تغير من واقعها شيئا (٢) .

وبالاضافة الى ذلك يجب أن تتخلص الوزارة من « الروتين » الذى يسير عليه المفتشون بحيث تصبح مهمة المفتش منهم توجيه المدرس ، وترك الحرية له فى العمل الذى يقوم به ، بحيث يختار الطريقة التى تلائمه مع وجود الضمير والوازع الأخلاقى ، ومع عدم الاخلال بالاطار العام الهادف من العملية التربوية ككل .

وليس معنى هذا أيضا أن يرتجل المدرس فى عمله ما دام قد تركت له الحرية ، وأصبحت وظيفة المفتش هى التوجيه قبل أن

---

(١) راجع الميثاق ص ٥٦ الباب الخامس .

(٢) الميثاق ص ١٠٢ الباب الثامن .

تكون المراقبة ؛ ذلك لأن المدرس يعمل بوحى من ضميره ، وايمانه بعمله مستعينا فى ذلك بتوجيه المفتش لا برقابته .

غير اننا نعتقد أن الرقابة الكبرى على المدرس ــ لكى ينتج ــ تأتى آخر العام من نتيجة تلاميذه بشرط أن يكون الامتحان جادا ، اذ أن أغلب النظار ان لم يكن كلهم يحاولون ارجاع نتيجة الامتحان الى المدرسين ليرفعوا نسبة النجاح حتى تكون وسيلة الى الترقى ، واذا ما رفض المدرسون الخضوع لأوامره ، انصاع لهـا المدرسون الأوائل ورفعوا تلك النسـبة الى الضعف أو يزيد ، وذلك يحـدث دائما فى امتحان اللغة العربية بوصفها لغة رسوب . .

ويضاف الى ما سـبق تمرد الطـلاب على قواعد الامتحان وأخلاقياته وجنوحهم نحو الغش والتزوير فى الامتحان تحت سمع المدرسين وبصرهم ، بل ان بعض المدرسين يساعدهم على ذلك فى أغلب الأحيان .

نقول ان النتيجة هى المسئولة عن عمل المدرس لو سار الامتحان كما ينبغى ، ولم يتدخل النظار فيها . . ولعل هذا أجدى ــ فيما نعتقد ــ للمدرس وللمفتش والتلاميذ والدولة على السواء ؛ لأن ذلك يدفع المدرس الى الابتكار فى ميدان التجربة ، ولكن فى حدود الاطار العام الذى يسميه رجال التربية بالوزارة « بالمنهج المرسوم » وبذلك نكون قد تخلصنا من القابليـة للاقطاع الفكرى التى كادت أن تمزق العـلاقات الانسانية ، وكادت أن تئد الاشتراكية بين المدرس والمفتش من أول الطريق . .

ونخلص من هذا كله الى أنه يجب على المسئولين العمل على التخلص من تلك المعاملة التى يعامل بها الرؤساء فى وزارة التربية وغيرها من الوزارات مرءوسيهم . والطريق الى هذا التخلص سهل يسير ؛ حيث يجب أن ينظر الى المواطنين على قدم المسـاواة مع

رؤسائهم ، وعلى كل منهم أن يرفع رأسه تجاه الآخر ، وان يعاقب المهمل منهم سواء أكان رئيسا أم مرءوسا .

ويجب أيضا القضاء على الروتين نوعا ما ، فيما يخوله للرؤساء من حقوق تجعلهم لا يناقشون فى آرائهم على الرغم من خطئها وخطأ ما يقولون به ؛ بل على العكس من ذلك توجب لهم الطاعة العمياء . وهذا بعينه هو الذى يؤدى الى افساد بعض القطاعات فى الأداة الحكومية ، وهو بنفسه أيضا الذى يشجع على اختلاس الرؤساء من الأشياء التى كانت موضوعة تحت حمايتهم ، وبجانب ذلك فانه يشجعهم أخيرا على العمل بأفكارهم .. أفكارهم المغرضة أحيانا ، الهدامة أحيانا ، الحاطمة أحيانا .

ولطالما سمعنا بهز الجهاز الحكومى هزا عنيفا أتاح للشباب الفرصة فى أن يشتركوا فيما يقومون به من عمل بما يتفق وأهداف الثورة التى تعمل على تحقيق الاشتراكية فى الوطن ، ومبدأ تكافؤ الفرص بين الجميع ، وبعد ذلك يعاقب المهمل من الموظفين أشد العقاب وأقساه بل أن مما يساعد على ذلك أن الدولة قد اشترعت قانونا لعقاب المهملين يسمى قانون الاهمال ، فالموظف الذى لا ينتج جزاؤه الضرب بيد من حديد ، لأن الموظف يقوم بخدمة عامة فى هذا البلد الذى يؤويه ، والعمل فى القطاع العام خدمة اجتماعية ، والعمل فى القطاع الخاص خدمة اجتماعية كذلك .

وعلينا اذن أن نحقق أهداف هذا الوطن فى التقدم الذى يصبو اليه كما يقول رئيس الجمهورية « وعلينا أن نحدد المسئولية ونعطى الثقة ، وعلينا نحن أن نحاسب على أساس العمل ولابد أن نعطى الموظف حرية فى العمل الذى يقوم به ، وأن نمنع احتكار الناس للأعمال ، ولقد أصدرت قرارا بالأمس يقضى بأن يقوم المواطن بعمل واحد فقط ؛ لأجل ألا يستغل أناس الفرصة ويسيطرون على كل الأعمال ، أو الغالبية العظمى منها ، ويحرمون بذلك بقية الناس من

الفرص المتكافئة . ولابد كذلك من آن نخلق الفرص المتكافئة وعندنا راسمال من الشباب ، وعندنا رأسمال كبير من الناس القادرين على العمل » (١) .

***

ويتضح من هذا أن هناك اهمالا ولكننا نحاول دائما القضاء على هذا الاهمال ، لانه جريمة ، ولو لم يعتبره القانون كذلك .. ذلك القانون الذى كانت تسير عليه الدولة .. القانون الذى أصدره عبد الفتاح يحيى ، وتوفيق نسيم . ومن هنا نرى أن الرئيس يشير الى تغيير القـــانون فيما يختص بالاهمال ، لأنه جريمة فى حق الشعب ، وينبه الرئيس كذلك الى آن الوطن قد تغير ، وعلى كل مسئوليته الخاصة به فى عمله ، وعليه فقط تقع تبعة اهماله ، وأنه لا مكان الآن لما كان يقال فى الماضى« ان فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » . و « أن المال الميرى مال سايب ، والمال السايب يعلم السرقة .. » .

ويمضى الرئيس فى توجيهاته هـذه الى انه لا يمكن أن يكون تفكيرنا هكذا ازاء القطاع العام ، لأنه ملك لكل واحد منا ، والذى يهمل فى عمله لا بد أن يؤاخذ ، ومن اجل ذلك كله لا بد أن يحاكم المهمل ، وأن يكافأ المجد بغض النظر عن كونه رئيسا أو مرءوسا ؛ فكل الموظفين لدى القـــانون سواء ، وهم يعملون من اجل هذا الشعب ، وفى نفس الوقت لا بد آن نعطى كل واحد مسئولية كاملة فى عمله ، ونعطى له حرية كاملة ، ولكن نطلب منه العمل الشريف والعمل الأمين .

هـذه هى توجيهات الرئيس فيما يختص بعـــلاقة الموظف برئيسه ، وهى تقضى بتحقيق مبـدأ الاشتراكية فى الفـكر تجاه الأعمال التى يقوم بها الموظفون فى القطاع العام .

وفى اعتقادنا ان الرئيس قد أصاب شاكلة الصواب ، وحالفه

(١) من خطاب الرئيس فى عيد الثورة التاسع ٢٢ يولية سنة ١٩٦١ .

التوفيق فى توجيهاته هذه ، لانها انجح الطرق لتخطيط العلاقة بين الرئيس والمرءوس بحيث لا يتعدى أحدهما على الآخر ، وانما كل منهما تجاه القانون سواء ، وأن كلا منهما يعمل فى مجتمعه هو .. فى ملكه .. واى جريمة تقع من أحدهما انما تقع فى حق الشعب ولو كانت بسبب الأهمال .

ونكاد نعتقد كذلك أنهذه التوجيهات تعتبر دستورا للموظفين ، وينبغى الا يخل احدهم بما تقضى به فيكون جزاء اهماله الضرب على يده ، وما يقال فى المرءوسين يقال كذلك فى الرؤساء دون تمييز ولا تفريق .

ومعنى هذا ان الموظفين يجب ان يعلموا مهمة المسئولية التى تقع على عاتق جيلنا الذى نعيشه وأن يدركوا كذلك ان المجتمع اصبح لا يرحم كسلانا ، او محتكرا او خارجا على تقاليده بأى شكل من الأشكال ، وبأى لون من الألوان ، وتلك سمات مجتمعنا الجديد التى لا تشبه فى قليل او كثير مجتمع العهد الماضى بأى حال من الاحوال .

* * *

وربما يقول قائل ان الرؤساء ـ وخاصة الطاعنين فى السن منهم ـ قد كونت أخلاقهم وأفكارهم وانتهوا على هذا النمط ، ولا يمكن بحال من الأحوال ان يخرجوا عن طبيعة تكوينهم ، والا كنا ظالمين لهم قساة عليهم .

ربما يقول قائل هذا ، وهو قول لا شك وجيه ، غير اننا فى هذه الحالة نجيب عليه بما اشترعته الدولة ـ فى كثير من الأحيان ـ ازاء هذه المشكلة . اذ انها أعطت الموظفين الذين يصلون الى سن الخامسة والخمسين الحق فى طلب تسوية معاشهم ، على الا يخسر شيئا من راتبه الى أن يبلغ الستين من عمره وهو سن الاحالة الى المعاش الذى يقضى به القانون ، فلكل موظف اذن الخيار فى ايثار

ايهما على الأخرى ، اما أن يسوى معاشـه ، واما ان يعمل بجـد واخلاص بما يتفق والمجتمع الجديد .

وبهذا تكون الثورة قد أخلت الجو للطاقات الثورية الجديدة ، وضمنت فى الوقت نفسه تقدما ثوريا للأعمال التى كانت تتعطل على ايدى هؤلاء .. هؤلاء الذين لن تفقـد الدولة باحالتهم الى المعاش طاقات ليس لدينا نظيرها . لن تفقد الدولة تلك الطاقات ، لأن الوطن ملىء بمثلهم من التأهيل الوظيفى والمهنى وغير ذلك ، اللهم الا القليل الأقل منهم . ومن هنا فانه يمكن استمرار عملهم على طريقة الندب مع ملاحظة توجيههم ثوريا ، وهذا ممكن لضآلة عدد هؤلاء الذين لا يوجد لهم نظير من حيث التخصص والخبرة فى الشباب .

ويتضح من هذا كله انه يجب أن ننتقل نقلة واسعة المدى فى المجال الفكرى فى ميدان وزارة التربية والتعليم بصـفة خاصة ، والقطاع الوظيفى بصفة عامة ، بحيث لا تمت هذه النقلة بكبير صلة الى ما كان عليه الفكر فى الأيام الماضـية ؛ وبحيث تكون مدعومة بالاصالة فى التفكير وتحمل المسئولية وتحقيق مبدأى تكافؤ الفرص والبقاء للأصح بين المواطنين .

الاقطاع فى الجامعة :

ولكى تتم صورة الحديث عن التعليم فلا بد من الحديث عن الاقطاع الفكرى فى الجامعات ، نظرا لأهمية الدور القيادى فى المجال الفكرى الذى تقوم به لأبنائنا وبناتنا بناة المستقبل البسام .

وكم كان بودنا ألا تكون هناك معوقات للفكر فى الجامعات ، وأن يجد الفكر السليم القويم طريقه فى هذا المعمل الكبير الذى يصهر فى بوتقتـــه عقول شبابنا وشاباتنا ، ذلك لأن الذين يعمـلون فى الجامعات اناس وصلوا الى أرقى الدرجات الجامعية ، ونحسب أن هذه الدرجات تحول بين أصحابها والاقطاع الفكرى بشتى مظاهره ومعانيه ؛ لكن ودنا هذا ليس بنافع ولا شافع ، وما حسباننا فى هذا الصدد الا كالسراب الذى يخيل للظمــآن أنه ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، لأن الذى ثبت حقيقة أن الجامعات كانت ميدانا خصيبا للاقطاع الفكرى ، وما الدرجات الجامعية الا العامل المساعد عليه لا المانع له ، بل ان نوع الدرجات مساعد اكبر للاقطاع الفكرى فى ربوع الجامعات فى أغلب الأحايين .

* * *

واعترافا بالحقيقة نقــول ان للدكتور طه حسين الفضـــل كل الفضل فى وجود الاقطاع الفكرى فى الجامعة ، فهو منشئه ومبديه ، وحارسه وراعيه .

وقد استخدمه الدكتور طه حسين مع الدكتور أحمد ضيف الذى أحسن اليـــه فى فرنســـا ، فكان جزاء احسانه ومعروفه هو محاولة انزاله من كرسى البلاغه والأدب العربى ليحل محله الدكتور طه حسين مع أنه كان يدرس النصوص اليونانية ، ونشر كتابا فى هذا الصدد عنوانه « صحف من الأدب اليونانى » .. والقصة فى

موجزها أن الدكتــور ضيف رجع الى مصر ابان الحرب العالميــة الأولى فى أوائل عام ١٩١٨ ، وكان يحاضر فى الجامعة القديمة وقد حضر سعد زغلول له أول محاضرة فى الجامعة .. وحينما أبعــد الوفد برياسة سعد زغلول عن الحكم استغل طه حسين الفرصة وحاول ان يثب الى مكان الدكتور أحمد ضيف ، وذلك عن طريق عبد الخالق ثروت « باشا » الذى حاول أن يقلد سعد زغلول فى حضوره محاضرات أحمد ضيف ، وحينئذ اعترض أحمد ضيف على هذا التصرف الذى يجعل منه مرءوسا لمن يصغره فى التخرج والسن والرجوع الى القاهرة ، فضلا عن أنه يشغل هذا المنصب .. فلم يبال أحد بدفاعه . وهنا آثر أن يرجع الى وزارة المعارف فى دار العلوم حيث أحيل الى المعاش وهو فى الدرجة الرابعة التى يبدأ راتبها من ٣٥ جنيها .. وبعد ذلك كان طه حسين ينتدبه الى كلية الآداب فى أقسام اللغات ليقوم بتدريس كتب طه حسين للطلبة ، وفى مقدمتها « الأيام » التى لا ترقى الى مســـتوى رواية ضيف « أنا الغريق » والتى تصور تجربته القاسية فى البحر حينما ضربت « طرادة » المانية السفينة التى كان يركبها ، وظل فى البحر ساعات طوالا وهو يعانى من تجسيد الموت أمامه على حين يأمل فى الحياة .

والذى صنعه الدكتور طه حسين مع أستاذنا الدكتور أحمد ضيف صنع مثله مع المرحوم الدكتور علي العنانى الذى كان صديقا شخصيا لأحمــد شوقى وكان يوجهه فى شــعره ، ويأخذ شوقى برأيه ، وكان الدكتور العنانى متخصصا فى الفلسفة والساميات ، لكن الدكتور طه حسين لا يريد أن يكون بجواره أحد ، ومن هنــا راح يناوئه من وراء ستار حتى انتهت حياة الدكتور العنانى على مرارة وسخط شديدين للثقافة والمثقفين .

وقد صنع مثل ذلك مع الدكتور نجيب البهبيتى الذى تخصص فى الأدب العربى مثل الدكتور طه حسين ، ولكنــه ما ان كشف الألاعيب التى تحاك للناس ، وما ان اختلف مع الدكتور طه حسين

حتى اعلن عليه الدكتور طه حربا شنعاء لا هوادة فيها اضرت بالرجل في نفسه وفي رزقه . وأودت به الى المغرب طلبا للرزق ، وانتهى به الامر فيما علمت الى التجنس بالجنسية المغربية .

وأيا كان الأمر ، فان الدكتور طه كان يحارب الأقوياء في غير ميدان للحرب ، ولكن بأساليب لا يعترف بها الأقوياء في حروبهم ، لئلا يظهر هؤلاء الأقوياء الأصلاء بجانبه فيخفتوا صوته ويضيع في الزحام ، ومن هنا نراه يحتضن من تلاميذه وزملائه الضعفاء الذين لا يستطيعون مناوأته ولا يقدرون على ذلك ، لأن قيمتهم رهن برضائه عليهم ، ووسط هؤلاء يظهر طه حسين بينهم كالكوكب بين النجوم المحكوم عليها بالا تخرج عن حقيقتها الى الكواكب وانما ظلت وستظل الى الأبد نجوما لا كواكب ولا سبيل لها الى ذلك .

وقد تابع الدكتور طه حسين في هذا الاقطاع تلاميذه من بعده وغدا الاقطاع بعد ذلك منهجا متبعا في كل الجامعات في محاربة الأكفاء . وذلك كما حدث للمرحوم الدكتور محمد غنيمي هلال الحاصل على دكتوراة الدولة في الأدب المقارن ، اذ تتبعه الدكتور وتلاميذه لأنه كان يكشف نواحي ضعفهم ، وأبان عن زيف الدعاوى العريضة التي يدعونها .. تتبعوه رحمه الله في جائزة الدولة ليمنحوها لأحد تلاميذ الدكتور طه حسين وهو الدكتور صقر خفاجة رحمه الله ، فوقف العقاد في سبيل ذلك وناصر الدكتور هلال ، وألغيت الجائزة في ذلك العام ١٩٦٢ .

وبعد ذلك تتبعوه في مصالحه في الجامعة وغيرها حتى انتهت حياته رحمه الله حزنا وكمدا على سلوكهم تجاهه وتجاه المثقفين .

أجل ، أصبح الاقطاع الفكري رائد الجامعة والجامعات في التعيين لهيئة التدريس أو الترقية لها .. والاساس الذى يعتمد عليه الجامعيون في الاختيار هو « جـ . أ » أو « جـ . ب » يعني زوج أخت أو زوج بنت حتى في أساتذة الشريعة تجد ان هذا متزوج

من بنت ذاك الأستاذ السابق أو من أخته ، وفتش فى الجامعة تجد هذا واضحا أوضح من الشمس ساعة صفائها وضيائها .. ومن الأسس كذلك التى يعتمدون عليها فى الاختيار أن يكون صبيا لأستاذ كأن يكون معيدا فى القسم وقد خدم الأستاذ خدمات جليلة ، منها تحقيق كتاب ، أو دراسة موضوع ، ثم يقدم الكتاب لأستاذه ليشرفه بأن يضع اسمه عليه مع المحقق أو الدارس .

ومعنى ذلك أن الأستاذ سيقتسم معه المكافأة التى يتقاضاها المعيد بوصفه قد شاركه فى التحقيق بدليل وضع اسمه عليه .

وقد تكون الخدمات غير ذلك مما هو فى هذا المستوى أو أقل منه .. الأمر الذى يجعل الأستاذ ينظر الى معيده أو صبيه نظرة إشفاق فيحاول أن يساعده فى رسالة الدكتوراة فى صورة عدم قراءتها وأمره له بأن يطبعها بسرعة للمناقشة حتى لا يزاحمه أحد ..

واذا زاحمه انسان من خارج الجامعة ، أو من الغزاة على حد تعبيرهم فان الأستاذ يتصدى لتجريح مزاحمه أو منافسه فى التقرير الذى يكتبه هو واللجنة بصدد تعيين أكفأ المرشحين من وجهة نظره ، تلك النظرة التى لا تتجاوز نظرة نظار العزب والتفاتيش فى العهد الماضى ، كأن الكلية مزرعة أو مؤسسة تعمل لحسابه هو ، وكأنه هو الذى يدفع للأساتذة رواتبهم .. كأن .. وكان .. وكأن الكلية ليست مؤسسة عامة تتبع الدولة وتديرها وتدفع لها من ميزانيتها كل ما تحتاجه من مال ، لاختيار الطاقات الخلاقة لا مناطق الخمود فى التفكير لكى يقوموا بالتدريس فيها ..

والأمثلة على ذلك كثيرة كثرة توازى عدد الاساتذة والأساتذة رؤساء الأقسام ، بل تصل الى ثلاثة اضعاف عدد الأساتذة بمعنى أن كلا منهم قد انحرف عن القصد فى التعيين للكلية ثلاث مرات

او أربع أو ما شئت وأكثر فى حياته العلمية وهكذا من سبقه ومن أتى بعـــده .

ومما يثير العجب ويستدعى الدهشة ويحير العقول أن الحق قد يكون فى جانب انسان متقدم لدرجة مدرس أو غيرها ، ولكنه لا يظفر بها وتفضل عليه لجنة الاختيار غيره ممن لا يصل الى مرتبته العلمية بل يتمتع بالقماءة فى العقل والاحساس والتصور . وذلك لأن صاحب الحق المتقدم لشغل الوظيفة قد قال رأيه يوما ما بصراحة فى كتاب أو مقالة للأستاذ .. ومن هنا يستحق الاقصاء عن طريق الأستاذ الذى يستحق لقب ناظر مزرعة ، لا لقب الأستاذية ، لأنه يوظف احنه وعداواته وذاتيتـــه فى مؤسسة على مستوى الدولة ، ويحاول جاهدا أن يفلسف رفضه لصاحب الحق ، أو ان شئت فقل « يغطى نفسه » كيلا يرجع عليه صاحب الحق بالتقاضى .. يفلسف رفضه ، أو يغطى نفسه بما يوحى بأن الرفض للصالح العام أى على مستوى الدولة وانه فى هذا لظالم ظلما لو تعلمون عظيم .

أجل ، ان حرمان كفء من التعيين فى الجامعة لا يقبله عقل ، ولا يتفق ومنطق الدراســة الجامعيــة التى كان المنتظر منها غير ذلك .. كان المنتظر منها أن تحـــارب الاقطاع الفـكرى فى شتى ميادينه ، لا أن تكون مساعدة عليه ، وأن تكون مساعداتها فى شكل جماعى يمثل اللجان المنوطة بفحص انتاج الأساتذة . ولعل القضايا التى ترفع ضد هذه اللجان تهدينا الى الكثير منه ، وكذلك الشكاوى التى كانت ترفع الى المسئولين تنير لنا الطريق لنصـــل الى ذلك الاقطاع الجامعى الذى تمثله تلك اللجان أوضح تمثيل وأتمه .

ومن عجب أن تتخبط اللجان فى التعيين هكذا ، وأن تلتحف بالباطل وتتدثر بالظلم ، ولا يوجد هناك من يعقب عليها لأنها تتكون عادة من رئيس القسم أو من أستاذ فيه او اكثر ، والقسم له كامل الحرية فى اختيار المعاونين له ولو على حساب العلم ، وليس للعميد

أو لمدير الجامعة تعقيب على ما يصنع ولو أودى بالقوانين واللوائح ، بل ولو أودى بالعلم نفسه فى غياهب ظلمات النفوس المتعطشة للظلم المتطلعة الى الانتقام ..

على أن الاقطاع الفكرى فى الجامعة يعمد الى الحيلولة بين طلاب الدراسات العليا وبين الأستاذ الذى يختاره الواحد منهم ليكون مشرفا عليه ، ويبدو ذلك فى صورة رفض الموضوع الذى يطلب الباحث تسجيله مرات ومرات ، حتى لقد بلغ ببعض الباحثين أن رفض موضوعه طوال عامين ونصف ، فلما اختار مشرفا آخر من نفس القسم مر الموضوع فى القسم وفى مجلس الكلية ، لكن كان لهذا الانعكاس الأثر السيء على صاحبنا اذ رفض مواصلة الدراسة ما دام قد حيل بينه وبين ما يشتهى من العلم على يد هذا الأستاذ الذى له قداسة وتكريم ، وجد واصالة فى جميع الميادين وشتى ضروب المعرفة فى تخصصه وما يتصل به .

***

وبجانب ذلك فان الاقطاع يبدو أيضا فى ادعاء بعض الأساتذة ملكية نص أدبى ، يصنع ذلك الصنع وهو موقن أن أحدا من طلبته لن يتجاسر على معارضته ، والا كانت هذه المعارضة سببا فى ضياع مستقبله .

***

وليس أدل على ذلك من قصيدة قررها أحد أساتذة الجامعة على طلبته فى سنة ما للفرقة النهائية فى كليته على أنها من شعره هو ، وكان ذلك ردا على سؤال طالب من الذين يمطرون الأساتذة بالشكر على ما بذلوا من العلم الغزير والأدب الجم ، والعبقرية الخلاقة الى غير ذلك من الأوصاف التى ترضى غرور بعضهم ، سأله الطالب بقوله : ألم يقل أستاذنا الشعر ؟

وكانت اجابة الأستاذ ، والله لقد أبى على جيده وأبيت على نفسي رديئه ، لكنى أقوله فى بعض الأحيان حين يلم بالنفس خاطر ، أو تهجس بها هاجسة ، أو يحتدم فيها الانفعال ، ولقد قلت حاثا شباب مصر على القوة والعزة :

أتحنو عليك قلوب الورى ... اذا دمع عينيك يوما جرى ؟
وهل يرحم الحمل المستضام ... ذئاب الفلا أو أسود الشرى ؟
اذا كنت ترجو كبار الأمور ... فأعدد لها همة أكبرا !
وكن يابس العود صلب القناة ... وكن كاسرا قبل أن تكسرا

فصاح الطالب حينئذ بقوله يالا الله لا بد أن تقرر هذه القصيدة علينا كتكريم لسيادتك ونحن فى آخر عام لنا بالكلية ، وكان الأستاذ هو الذى يحاضر فى الأدب والنصوص بالرغم من أنه كان مقررا أن يحاضر فى هذه المادة غيره من المدرسين الذين يعملون معه فى القسم الذى يتولى رئاسته ، ولكنه بقدرة قادر سطا على المادة ودرسها هو ، ولعل فى هذا اقطاعا آخر نعود اليه فى حينه . غير أن الذى يعنينا فى هذا المقام أن الأستاذ وافق على أن تكون القصيدة ضمن المنهج فى هذا العام .

بيد أنه كان هناك طلاب لا يبرحون المكتبات العامة لأنهم من طلاب المعرفة أينما كانت ، واذا أضفنا الى هذا أن خبر شاعرية الأستاذ الذى لم يسمعوا به قبل ذلك قد راعهم وأذهلهم ، اذا قدرنا ذلك فاننا لا نستغرب منهم أن يبحث أحدهم بتوكيل من زملائه ، ولعل بعضهم سافر الى « لندن » لتحضير درجة الدكتوراة وقد عمل فى قسم الأستاذ قبل أن يسافر كمعيد وهو الآن مدرس بالكلية .

* * *

وبعد بحث وعناء استطاع الطالب الذى وكلت اليه هذه المهمة أن يحصل على مصدر القصيدة السابقة ؛ اذ وجدها منشورة فى

صحيفة الرسـالة (١) منسوبة للدكتور محمد عوض محمد ، وكان اذ ذاك أستاذا بمدرسة التجارة العليا ، وهى أربعة عشر بيتا تحوى الأبيات الأربعة السابقة التى نسبها الأستاذ الجامعى لنفسه :

أتحنـو عليـك قلوب الورى ... اذا دمع عينيك يوما جرى ؟
وهل ترحم الحمل المستضام ... ذئاب الفلا أو أسود الشرى ؟
وماذا ينال الضعيف الذليل ... سـوى أن يحقر أو يزدرى ؟
لقـد سمع النسر نوح الحمام ... فـلم يعف عنها ولم يغفـرا
بل انقض ظلمـا ليغتـالها ... وأنشب فى نحـرها المنسرا
وما رد عنها الأذى ذلهـا ... ولا أنهـا ما جنت منـكرا
فكن يابس العود صلب القناة ... قوى المراس متـين العـرا
ولا تتطامن لبغى البغـاة ... وكن كاسرا قبـل أن تكسرا
وأولى لمن عاش مثـل الثرى ... ذليـلا لو احتل جوف الثرى
قلوب الأنام كصم الصـفاة ... وشـق على الصخر أن يفجرا
أرى أيديا لاغتيـال تمـد ... فاجدر بهـا الآن أن تبترا !
اذا كنت ترجو كبـار الأمور ... فأعـدد لها همـة أكبـرا !
طريق العـلا أبدا للأمـام ... فويحك هل ترجع القهقرى ؟
وكل البـرية فى يقظـة ... فويل لمن يستطيب الـكرى !

وهى كما ترى تشتمل على الأبيات الأربعة السـابقة موزعة فى أنحائها كالآتى :

البيتان الأولان فى أبيـات الأسـتاذ هما بلفظهمـا وحروفهما ومعناهما فى قصيدة الدكتور محمد عوض محمد ، والبيت الثالث

(١) الرسـالة العدد الثانى سنة ١٩٣٣ ص ١٦، تحت عنوان من «عيون الشعر»

عند الأستاذ هو البيت الثانى عشر فى قصيدة الدكتور ، أما البيت الرابع عند الشاعر الموهوب فمؤلف من الشطرة الأولى فى البيت السابع عند الدكتور عوض ، والشطرة الثانية من البيت الثامن .

وهذه قصيدة الأستاذ الجامعى مردودة الى أصلها الذى قيل فى ثورة ١٩١٩ ، وكان الدكتور عوض اذ ذاك الوقت من الشباب الثائر الذى يقود المظاهرات مطالبا بحق البلاد فى الاستقلال وظلت القصيدة محفوظة فى أذهان من سمعوها ، تتردد فى أجواء المظاهرات ، حتى صدرت « الرسالة » فى يناير سنة ١٩٣٣ ، وكان ضمن أبوابها باب لعيون الشعر ، فاختيرت هذه القصيدة لتنشر فى العدد الثانى ، فى هذا الوقت نفسه كان صاحبنا الجامعى لم يمض على تخرجه فى كليته سوى شهور لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة عدا ، ومع ذلك فانه قد اعتمد على أن الدكتور عوض لم ينشر شعره فى ديوان ، وسطا عليه حينذاك والرجل لما يزل على قيد الحياة .

* * *

على أن هناك صورة للاقطاع الفكرى فى الجامعة ، والذى يدفع ثمنها الطلبة ، وتبدو واضحة فى التأليف العلمى ، وذلك حينما يشترك أستاذان فى تدريس مادة ما ، ويضع كل منهما كتابا فى هذه المادة ، فالويل كل الويل اذن أن يأتى أحد طلبة هذا ببعض المعلومات من كتاب ذاك فى اجابته .. فاذا تم له هذا فقد ضمن الرسوب مائة فى المائة . ولا عيب على الأستاذ فى ذلك لأن هذا هو المنهج الأكاديمى فى الدراسة .

وبجانب ذلك فان هناك لونا من الاقطاع الجامعى فى المجال الفكرى كان يحصل ببشاعة ، وذلك حينما يقدم بعض الأساتذة على منع ناشر من طبع كتاب لزميل له ، أو محاربته فى توزيع الكتاب ...

هذا هو الاقطاع الفكرى الذى يسود الجامعة فى أبسط صورة ـ لأننا سنعرض له فى كتابنا نحو ثورة تعليمية ـ وهو لا يتفق طبعا والاشتراكية التى نعمل على تعبيد الطريق لها لتسير دون عقبات تجعلها تتعثر فى سيرها . ومن هنا كان لابد من ازالة هذه العقبات التى تمثل الاقطاع الفكرى بأى صورة من صوره ، لأنه لا يتيح للاشتراكية اى تقدم الى الأمام ، اذ هو كالركيزة التى تحاول الاشتراكية دائما التخلص منه ، لكى تنطلق فى سيرها كالمارد ، فينفعل بها الجامعيون والجامعيات على مستوى الأساتذة والطلبة فى هذا المحراب المقدس للعلم ، الذى كان يجب أن يكون بعيدا عن مظاهر الاقطاع ، لأن رسالته أكبر من ذلك بكثير .

والسؤال الذى يسبق الى فكرنا الآن هو كيف نحقق الاشتراكية الفكرية فى قطاع الجامعات ، وهو قطاع معقد حساس ، ومشكلاته كثيرة ، وخاصة المشكلات التى نجمت عن الاقطاع الفكرى بالغة الخطورة ، ولا يمكن درءها بسهولة .

ولكن الاجابة على هذا التسآل هينة ويسيرة ، لا سيما اذا عرفنا ان الجامعات لابد أن تنفض عن نفسها غبار الماضى ، خاصة وانها أول مؤيد للثورة فى أيامها الأولى ، ونذكر بالفخر فى هذا المجال ما صنعته جامعة الاسكندرية التى أيدت الثورة فى أيامها الأولى ، وأسمت نفسها جامعة الاسكندرية بعد ما كانت تسمى بجامعة « فاروق الأول » .

فالجامعات اذن ، لابد أن تتطور وتؤمن بمثل الثورة وقيمها ، ومن هنا تصبح عملية اختيار اعضاء هيئة التدريس بها على أساس واحد هو الكفاءة العلمية والخلقية .

كما انها لابد أن تتخذ هذا الأساس الفيصل فى الترقيات بمعنى أن تكون الترقية منوطة بالقيمة العلمية والخلقية أيضا ، دون التعرض لأشياء أخرى ليست من الأمور المتعارف عليها فى الاختيار للترقية فى جميع جامعات العالم .

ومن ناحية أخرى فان الأساتذة لابد أن يفسحوا صدورهم عن طواعية لطلبتهم أمـام البحث العلمى ، ولا يضير الأسـتاذ أن يرده طالب نابه فى خطأ وقع فيه أو كاد ، وذلك فى النتـائج التى وصل اليها الأستاذ ، أو فى طريقه الى الوصول اليها .

ومعنى هذا أن اتاحة الفرصة للطلبة تؤدى دائما الى اصطراع الآراء ، وتبـادل وجهـات النظر بين الأسـتاذ وطلبته ، وتقليب الموضـوع الذى يدرسـونه على وجوهه المختلفـة ، ويخرجون فى النهاية جميعا بطاقة ضخمة من الآراء التى تخلص فى النهاية من الشوائب المعوقة للوصول الى المعرفة الصحيحة .

ومعنى هذا أيضا أن الأستاذ الجامعى فى عهدنا الحاضر لابد أن يفهـم وظيفته على حقيقتها .. يفهـم أنها للتوجيه والمراقبـة فى الأبحاث ، لا الالقاء ، للحفظ والاستظهار ، ولا لحرمان الأكفـاء من الطلبة والطالبات من أن يبدو وجهة نظرهم فيما يدرسونه .

* * *

وفى تصورنا أن ظاهرة غضب الأساتذة على الطلبة الذين يكتبون فى الامتحان آراء أخرى لأحد الأسـاتذة المتخصصين فى الموضـوع نفســه ، ولكن هؤلاء الأساتذة فى جامعات أخـرى ، أو فى الكلية نفسها .

نقول ان هــذه الظاهــرة لابد أن تختفى تمـاما ، ولا يغضب الأستاذ من طلابه ، ويثور عليهم ثورة عارمة ، اقل ما تنتهى اليـه هو اضطهادهم ووأد نجاحهم على مذبح رأى الأستاذ الذى استبد بآرائه فى الامتحان .

على أننا نقول أيضا اننا لا نسمح لأحد من أساتذة الجامعة بأن يدعى لنفسه ملكية أى نص أدبى ، أو أى دراسـة أدبيـة قام بها دارس مجهول كما كان يحدث من خيـانة بعض الأساتذة للأمانة

العلمية على صخرة الجامعة ، مستترا بعدم تطبيق مهمته على اكمل وجه .

* * *

وبجانب ذلك فاننا نرى أن الجامعة لابد أن تخرج من انطوائيتها التى ترين عليها فى تفكيرها ، وأن تنزل الى مستوى التفكير الذى يهدف الى خدمة المجتمع ، وبتعبير آخر لخدمة الشعب ، وأن يكون ذلك واضحا فى أبحاث أساتذتها التى يقومون بها .

ومعنى هذا الا تهدف الجامعة بأبحاثها الى خدمة طبقة معينة من الشعب كما كانت تصنع فى الماضى .

فالدراسون للأدب مثلا لابد أن يطوروا من نظرياته بحيث تصبح متفقة ووظيفته فى الحياة ، كما أنهم يقومون بدراسة قضايا الانسانية وتطويرها نحو ما هو أفضل ، وأكثر اسعادا للملايين .

وبجانب ذلك فان الدارسين فى المجال النظرى بصفة عامة ، لابد أن ينهجوا نهج الدارسين للأدب ، بحيث تصبح وجهة دراساتهم خدمة الملايين من أبناء هذه الشعب المفدى .

وفى الوقت نفسه لابد أن يكون الدارسون للعلوم التجريبية البحتة كالهندسة والزراعة والطب وغيرها ، كل هؤلاء لابد أن يتجهوا جميعها بأبحاثهم قربانا لخدمة الانسانية فى بلدنا العظيم ...

ومعنى هذا بوضوح أن الجامعة لابد أن تخرج من انطوائيتها التى تدثر بها الى مستوى أوسع وأرحب يشمل جميع أبناء الوطن ، وهذا بعينه هو الذى سيخلدها فى نفوس الشعب ، وفى نفوس الأجيال القادمة ان شاء الله .

على انها بهذا المنهج الجديد الذى نود لها أن تنتهجه انما تتفق

ومبـــادىء الاشتراكية التى نعمــل دائبين على تعبيـــد الطريق لها ..

ذلك أن العــلم كما يحدد مهمته الميثاق (١) هو الذى يجعــل التجربة والخطأ فى العمل الوطنى تقـــدما مأمون العواقب ، ودون العلم فان التجربة والخطأ تصبحان نزعات اعتباطية ، قد تصيب مرة ، ولكنها تخطىء عشرات المرات .

ان مســئولية الجامعــات ومعاهد البحث العلمــى فى صنــع المستقبل لا تقل عن مسئولية السلطات الشــعبية المختلفــة ، لأن الســلطات الشــعبية دون العــلم قد تستطيع أن تثير حماســة الجماهير ، لكنها بالعــلم وحده تقــدر على العمل تحقيقا لمطالب الجماهــير .

وينتهى الميثاق فى حديثه عن الجامعــات وتقــديره لمهمتها فى العهد الجديد الى أن الجامعات ليست أبراجا عاجية ولكنها طلائع ثورية متقدمة تستكشف للشعب طريق الحياة .

ان قدرتنا على التمكن من فروع العــلم المختلفــة هى الطريق الوحيد أمامنا لتعويض التخلف ، والأمم التى أرغمت على التخلف اذا ما استطاعت أن تبدأ الآن معتمدة على العــلم المتقــدم تضمن لنفســها نقطة البــداية تفوق النقطة التى بدأ منها الذين سبقوها المستقبل ، ومن ثم تمنح نفسها قوة اندفاع أشــد فى اللحاق بهم والسبق عليهم .

على أن الجامعات لابد أن تقــوم بتوجيهات الميثــاق فتواجه مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التى يتصدى لها شعبنا اليوم ، تواجهها بحلول علمية ، كما أنها لابد أن توقن ايقانا شديدا بأن العلم للمجتمع ، لأن العلم للعلم فى حد ذاته مسئولية لا تستطيع

---

(١) الميثاق ص ١٠٢ ، ١٠٣ من الباب الثامن .

طاقتنا الوطنية فى هذه المرحلة أن تتحمل أعباءها . ومن هنا فانها تعمل على أن يكون العلم للمجتمع هو شعار الثورة الثقــافية التى تســاوق الثورة الســياسية والثورة الاجتمــاعية .. تلك الثورة الثقافية التى ينبغى للجامعة أن تضطلع بأعبائها .

أجل ، على الجامعات أن تصنع هذا ، لأن معناه أن تكون قد أدركت تمــام الادراك انه يجب عليها أن تزيل كل مظاهر الاقطــاع الفــكرى ، وأنه اذا لم يتم لنــا ذلك ، فان الاشتراكية فى التعليم الجامعى لن تكون الا قرارات وقوانين منفذة فقط بسلطة القانون ، دون أن ينفعل بها الجامعيون ، وهذا اخطر على اشتراكيتنا بصفة عامة من أعدائها الذين يناصبونها العــداء ، لأنهم معروفو الهدف ــ وهو تقويض دعائمها فى وطننا ، واتاحة الفرصة للرجعية العربية أن تظهر من جديد مرة ثانية ــ هؤلاء الأعداء مع كل هذا أرحم من الذين يسيرون فى الموكب ، ويزعمون أنهم اشتراكيون ، ويعملون من أجل الاشتراكية ، وفى الوقت نفســه يسلكون سلوكا مخالفــا كل المخالفة لسلوك الاشتراكية الذى يؤمن بمبادئه الاشتراكية ، ذلك لأن الاشتراكية ــ فيما نزعم ــ سلوك وأخلاق وفكر ، ولكن هؤلاء حينئذ لا يفهمون حقيقتها ، وانما يسيرون مع السائرين الى حيث لا هدف لهم ، ومن هنا كان سلوكهم مخالفا لســلوك الاشتراكيين الذين يفهمون حقيقــة الاشتراكية ، ويفهمــون أنهــا تحقق للوطن العربى الكبير حياة ومستوى أفضل ..

الفصل الثالث

الاقطاع الفكرى فى الثقافة

((وهذه الثورة العربيـــة تحتـــاج الى أن تسلح نفسها بالوعى القائم على الاقتناع العلمى النابع من الفكر المستنير ، والناتج من المناقشة الحـــرة التى تتمرد على سياط التعصب او الارهاب ... والثورة هى الوسيلة الوحيدة لمغالبة التخلف الذى ارغمت عليه الأمة العربية كنتيجة طبيعية للقهر والاستغلال)) .

الميثاق

الاقطاع الفكرى فى الصحافة :

أشرنا فيما سبق الى أن الصحافة كان لها دخل فى العهد الماضى إبان سيطرة القصر عليها بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة فى سبيل القضاء على الناشئة فى الأدب من الشباب .

وها نحن أولاء نتناول صحافتنا كميدان للاقطاع الفكرى الذى يخلق الجبابرة ويزلزل القيم ، ويشهر من لا يستحق الشهرة ، فى الوقت الذى يترك الأكفاء الممتازين فى زاوية النسيان ، يعملون لأن ضميرهم واخلاصهم للوطن هما اللذان يوحيان اليهم بالعمل ، لا يعملون ليقال أنهم عملوا كذا ، وتأتى الصحف حينئذ لتهلل وتطبل وتنشر الأخبار القصار والأحاديث الطوال متوجة بصورهم ، الأمر الذى يثير الكثيرين ممن يعملون فى الميادين كجنود مجهولين ، كما يثير القراء الراشدين أيضا الذين يعرفون حقيقة الوضع الذى تتحدث عنه الصحيفة ، فيعتقدون أنها تفترض فيهم الغفلة والبلاهة ، والا ما كان لها أن تكتب ما كتبت .. ولسنا نعرف السبب فيما تسلكه صحافتنا من نسبتها بعض المشاريع التى يقوم بها بعض الموظفين فى مصلحة من المصالح ، أو مؤسسة من المؤسسات الى رئيس المصلحة أو المؤسسة ، وذلك حينما تنشر الموضوع وبجواره صورة لرئيس هذه المصلحة ناسبة هذا المشروع اليه ، غافلة عن الجندى المجهول فى المصلحة أو المؤسسة الذى ابتكر حقيقة وقام بتنفيذه . غافلة عن ذلك الموظف الصغير الذى يسره أن يجد تشجيعا من الدولة على ابتكاره واخلاصه فى العمل الذى يقوم به .

ولقد كان لهذا السلوك من جانب الصحافة انعكاس على جانب كبير من الخطورة التى كادت أن توقف ملكة الابتكار عند هؤلاء الباحثين والدارسين فى المصالح الحكومية ، وفى الوقت نفسه يجعلهم يائسين من اصلاح الأحوال فى بلدنا المفدى ما دامت القيم شأنها هكذا من الهوان . وبالتالى يقضى على الوازع الخلقى عند

الرؤساء ، لأن كلا منهم سيقلد زميله ، ويجرى لاهثا وراء مندوبى الصحف ومحرريها عساهم يكتبون عنهم وعن المشروعات المنفذة فى المصالح التى يديرونها .

وقد يكون هذا نوع من التقدم الصحفى من حيث فنية الصحافة ، وهو ان يبحث المحرر عن رئيس أو شخصية كبيرة ينسب اليها عمل الآخرين كى يحظى موضوعه بتقدير المسئولين فى الجريدة والقراء معا .

هذه الصحافة بعملها هذا : تحطم الاشتراكية ، لأنها لا تعنى الا بما هو كبير ولو كان غير عامل فى المصلحة العامة ، وهذا يؤدى بدوره الى قتل مواهب الشباب والموظفين الصغار ، ولا يتيح لهم الفرصة لأن يتعرف عليهم المسئولون من خلال أعمالهم فيقدرونهم .

أجل ، ان الصحافة بعملها هذا تهمل الشباب المرصوف طريقه بالضحايا ، والذى لا يملك الوسائل التى تجعلها تهتم به ، اذ انها لا تنشر الا لمن كان قادرا فيسخو على المحرر بالهدايا والدعوات وغير ذلك من الأشياء التى تؤلف بين المحرر والطبيب أو المحامى .. أو .. أو .. الى آخره ..

ومن هنا كان لابد للشباب من أن يضيع بين براثن الكبار القادرين ، وتصبح الحياة لمن له ظفر وناب على حد قول شوقى :
ودعوى القوى كدعوى السباع

ودعوى القوى كدعوى السباع من الناب والظفر برهانها

ولقد كان هذا الخلق الصحفى ــ ازاء الموظفين الصغار ، الذين يكتوون بلهيب العمل ــ ضربا من الاقطاع الفكرى فى وطننا المفدى .

على أن هذه الصورة مرتبطة بصورة أخرى تماثلها ، وهى أن الصحافة تركز نشاطها على العاصمة ، ضاربة بباقى الأقاليم عرض

الحائط ، كأنها قد قامت باخلائها من الناس ، وجاءت بهم الى القاهرة لتكتب عنهم ، وأصبحت القاهرة هى كل الجمهورية العربية المتحدة ، ولذا فانه لا عيب اذن على الصحافة حينما تكتب عن القاهريين . ان فى كل اقليم لصورة مصغرة للقاهرة ، ففيها المؤسسات والمصالح على اختلاف أنواعها ووزاراتها ، واذا لم يعرف الصحفيون ذلك ، فلا علموا شيئا بعده ، وحق عليهم عدم القيام بواجبهم على أكمل وجه وأتمه ، لأن الصحافة تعبير عن الشعب .. عن رغائبه ومصالحه وآماله وأهدافه ..

ونحن لا نظلم الصحافة ولا الصحفيين فى عدم نشر أعمال الشباب أو الصغار من الموظفين ، لأنها تفعل ذلك !! ولكن فى صفحة الحوادث اذا ارتكب أحدهم حادثة أضافوا اليها ـ الملح والفلفل ، على حد تعبيرهم ـ اضافات تبعدها عن الحقيقة ، فى الوقت الذى تغفل فيه الكثير من حوادث رجال المجتمع وسيداته الذين واللاتى يظهرن فى كل مناسبة وغير مناسبة على أنهم من رجال المجتمع وسيداته ، ولعل النوادى غاصة بهم وبهن ، وهى التى تحدثنا حديثا صريحا عما يحدث فيها بين هؤلاء وهؤلاء ، ومع ذلك فان الصحافة تغمض عينيها عن أفعالهم .

ويسوقنا الحديث عن هذه الصورة التى تهتم الصحافة فيها برجال المجتمع وسيداته مهملة سواد الشعب الى صورة أخرى هى اهتمامها البالغ ببعض الدارسين والمؤلفين من الكتاب والشعراء ..

وخلاصة الخلاصات التى تقال فى هذه الصورة أن الصحافة لا تهتم الا بالنجوم من الكتاب كما تسميهم ، وتترك الشباب الناهض الذى يعمل ويخلص فى العمل ، ويجد والناس هازلون ، تتركهم دون التنويه بأى عمل أدبى لهم فضلا عن الأحاديث الطويلة ، التى يحظى بها كبار الكتاب ، والتى تتضمن أحيانا الحديث عن المرأة التى كانت وراءه ، والتى كانت سببا فى مجده .

وبجانب ذلك اذا لزمت الصحافة جانب الجد فانها تسأل عن

الكتاب الذى ينتوى أن يؤلفه الأديب بعد كتابه السابق ، فاذا صرح باسم الكتاب ألفيت الجريدة أو المجلة تفرد له مكانا فسيحا يتصدره عنوان بارز وتحته مضمون الكتاب .

ومن هذا الضرب ايضا اهتمامها بالرياضة والرياضيين ، ونحن لا نعيب على الصحافة اهتمامها بالرياضة ، ولكن الذى نعيبه عليها هو أن يكون هذا الاهتمام على حساب الفنون الأخرى والآداب الأخرى والاهتمام بتصنيع البلاد والأخذ بيدها حتى تصل الى التقدم التيكنولوجى المنشود ..

ان الذى حدث أن الصحافة أغفلت كل ما عدا الرياضة ، وحولتها فى الوقت نفسه الى عصبية شوهاء تتصبى ضعاف العقول والأفهام ، وحولت المجتمع المصرى الى مجتمع مغمى عليه عقليا ، بين ذهنه والواقع انفصال شبكى بحيث لا يستطيع أن يرى الأشياء على حقيقتها ، وغدا المجتمع .. كل المجتمع شيعا وأحزابا .. هؤلاء يحبذون نادى كذا . وآخرون يحبذون نادى كذا .. وآخرون وآخرون .. والصراعات تحتدم والمعارك تنشب .. وتدور رحى الحرب بين هؤلاء وهؤلاء فى كل مكان فى مواطن العمل .. فى الطرقات فى النوادى .. ابان المباريات .. كل هذا والعدو جاثم فى قلب الأمة العربية .. ومن حولها فى كل مكان ..

كما انها حولت الرياضة صناعة للعاطلين لا الدارسين واخذت تتبع اخبار الواحد من هؤلاء وهؤلاء .. حتى أصبحوا نجوما فى المجتمع بلا رصيد .. سوى رصيد الصحافة وغدوا نجوما فى السينما .. و .. و ..

وسبحان الله الذى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..

ونحن نتساءل هل هذا يتفق والاشتراكية التى تريد أن تجعل مبدأ تكافؤ الفرص عقيدة لدى المواطنين ، ولابد أن يكون لكل مواطن حظه فى مرافق الدولة ، ومنها الصحافة ؟؟

والجواب بصراحة أن الاشتراكية بريئة من هذا السلوك براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

ومن هنا كان لابد من النظر فى أمر الصحافة والصحفيين ، لانها ولأنهم يقطعون الطريق أمام أفكار الباحثين الأصلاء فيحولون بينها وبين نشرها وقراءة الناس عنها .

على أن هناك صورة للاقطاع الفكرى فى ميدان الصحافة تتمثل فى ذلك الاقطاع الذى يقع على بعض المصادر التى يستقى منها الصحفيون أخبارهم ، ويتضمن عدة صور جزئية منها :

(أ) **التقول على المصدر بما لم يقله** ، ونشر الأخبار الكاذبة عنه الأمر الذى يضلل الرأى العام ، ولا يدع الصحفى فرصة للمصدر لكى يصحح الخبر أويعلن تكذيبه ، وتساند الجريدة محررها مهما كان مخطئا حتى ولو أدى الأمر الى أن يرفع المصدر قضية على الصحيفة . ومن هنا تأتى تلك الظاهرة التى يسميها الصحفيون « الفبركة » أى اختلاق الأخبار والأحاديث التى تصاغ ضمن التخقيقات الصحفية على لسان أحد الأطباء أو المهندسين أو غيرهم ، والواقع يكذبها تماما .

(ب) **ومن هذه الصور الجزئية ايضا** اختلاق الأخبار أو القصص التى تمس الحرمات أو الأعراض قصدا الى التشهير بالمصادر ، وهذا ما يحدث كثيرا فى بعض الأوساط الفنية على يد بعض الصحفيين ، حتى انه ليس من المبالغة اذا قلنا ان هناك محررين يقومون مثلا بالدفاع عن بعض الفنانات بمقتضى معاهدة لسنا نعرف شروطها ؛ غير أننا فقط نعرف أثر هذه الشروط اذا ما دب خلاف بين المحرر والفنانة ، فاننا نرى أن الذى يحدث حينئذ أن تتحول اليه أكثر من فنانة رغبة فى الدفاع عن كل منهن ، ويتخير المحرر أسخاهن شروطا ، وقد يتم ذلك فى أيام تعد على أصابع اليد الواحدة عدا . ومن هنا تجد القلم يتحول الى تلك الفنانة التى وقع عليها

اختيار المحرر فيدافع عنها ويشيد بغنائها وبكرمها .. وب .. وب .. فى الوقت الذى لم ينقض على اشادته بغيرها سوى أسبوع واحد هو الفرق بين يوميات الأسبوع الفائت والأسبوع الذى يليه .

ولعلنا نكون قد ألممنا بصور شتى للاقطاع الفكرى فى صحافتنا .. ولسنا نزعم أننا قد أتينا على كل الصور التى تمثل الاقطاع الفكرى فى ذلك الميدان ؛ غير أننا سنجتزىء من الصور الباقية صورة تمثل الاقطاع الفكرى بين الصحفيين انفسهم فى داخل مهنتهم ، ولن يرفدنا فى مواد هذه الصورة سوى احترافنا للصحافة منذ عام ١٩٥٢ ، وبذلك نكون قد استطعنا أن نمثل لكل لون من الاقطاع فى الميدان الصحفى بصورة تلقى عليه الضوء ، وتكشف عن جذوره تلك الشجرة الخبيثة التى استطعنا ان نجتثها ونتخلص منها ..

أما تلك الصورة التى تمثل اللون الأخير للاقطاع فى ميدان الصحافة فهى تتضمن ذلك الاقطاع الذى يحدث بين كبار الصحفيين وبين صغار المحررين .

فالذى يحدث فى أغلب الأحوال للمحرر الناشىء أن يقتنص جهوده رئيس القسم الذى يعمل فيه ، وينسب هذا الجهد لنفسه ويوقعه بامضائه ، وقد حدث هذا فيما عرفت للمسئول الأول عن أكبر دار صحفية فى مصر .

ومن ناحية أخرى فان المحرر الناشىء لا يعمل بمقتضى فكره هو ، بل بمقتضى فكر رئيس قسمه ، كأن يفرض عليه الموضوعات ، وعلى المحرر تنفيذها وكتابتها . وليس على رئيس القسم الا ان يقوم بتعديل بعض أساليب صياغتها كما يتفق والأسلوب الصحفى ، وبعد ذلك لا عليه اذا نسبها لنفسه ووقعها بامضائه . ولعل هذه القصة تحدث فى كل جريدة ، وفى كل قسم منها ، بل بين المحررين فى القسم الواحد ، اذا كان بعضهم اقدم من البعض الآخر .

* * *

ومما لا يرقى اليه الشك أن الصحافة مشحونة بكل المؤهلات التى تعمل فى ميدانها ، بل فيها من يعملون فى ميدانها وهم لا يحملون أى مؤهل سوى شهادة لا اله الا الله ، ومنهم من لا يحمل ذلك المؤهل أيضا .

والمؤهلات أو عدمها سبب للاقطاع فى ميدان صاحبة الجلالة ، لأن بعض هؤلاء أو أولئك قد يملك التصرف فى قسم من الأقسام ، ومن هنا تسوغ له نفسه أن يؤثر من يحمل مؤهله على غيره فينشر له كل نتاج فى الوقت الذى يحول فيه بين نشر الآخرين لنتاجهم . وليس أدل على ذلك من التعب والعناء الذى يلاقيه خريجو قسم الصحافة فى الصحف ، الأمر الذى حدا ببعضهم أن يتخلى عن المهنة ويحاول العمل فى ميادين أخرى ليست داخلة فى تخصصه .

بل قد يكون المؤهل سببا فى تحويل المحرر من قسم الى آخر وان كان نشاطه يفوق غيره من المحررين مثل خريجى كليات الأزهر ودار العلوم وقسم اللغة العربية بكليات الآداب الذين يحال بينهم وبين العمل فى أى قسم من الأقسام فى الجريدة ، اللهم الا قسم واحد وهو قسم التصحيح أو المراجعة . وليس هذا هو الذى يحدث فحسب ، بل ان بعضهم قد يحول من قسم التحقيقات الصحفية أو غيره الى قسم التصحيح اذا تبين رئيس القسم بعد عمله معه أن مؤهله احدى الشهادات السابقة حتى وان كان متفوقا على غيره فى العمل ، فان هذا التفوق لا يرأب ذلك الصدع فى نفس رئيس القسم بينه وبين خريجى هذه الكليات والأقسام مع أن الواقع أثبت أن من يستطيع منهم الافلات من هذا الحصار ــ نظرا لقربه من أحد رؤساء التحرير ــ فانه يصبح صحفيا لامعا يشار اليه بالبنان كما يقولون ، وتعتمد عليه الجريدة فى أغلب أعمالها .

* * *

ولعل هذا يمثل الاقطاع الفكرى فى داخل الجريدة بصورة فردية ، بيد أن هناك اقطاعا بصورة جماعية نكاد نلمسه حينما

تنتقل شخصية كبيرة من جريدة الى جريدة أخرى فانها تحمل معها عددا هائلا من المحــررين الذين يتفقون معها فى الاتجــاه والأهواء والرغبات زاعمين أن ذلك ييسر لهم العمــل فى الجــريدة الأخرى ، وارساء اتجاههم فيها .

وقد يكون ذلك جميلا لو وقف عند هذا الحد ، أما أن يصبح ذلك العــدد حائلا بين أفكار الآخــرين ونشرها ، فهنا الخطر كل الخطر ، بل هنا صميم الكلام وجوهر الموضوع ، فالذى يحدث فى أغلب الأحيــان أن ذلك الحشــد يقطع الطــريق على هؤلاء بحيث يوضعون على الرف ، بينما ينشط الآخرون .

ولعل هذه الأضرار الأدبيــة والمادية التى تحــدث للمحررين ـ الذين يفد عليهم الكبير بفريقه ـ هى أخف الأضرار ، لأن هناك نوعا من الاضرار يتمثل فى فصل بعض المحررين الكبار ، واخراجهم من الجريدة ـ وقد تكون خبرة بعض هؤلاء الخارجين أسبق من ذلك الكبير فى ميدان الصحافة فتعتبر شافعا لديه لكى يحول دون فصلهم ، لكنه مع هذا يمضى فى فصلهم غير عابىء بأى اعتبار آخر .

هذه هى الصور التى تمثل الألوان التى يكمن فيها الاقطــاع الفكرى فى ميدان صاحبة الجــلالة ، ولعلنا اذا تمثلناها مجتمعة فاننا نخرج منها بصورة تجمع شتات تلك الصور فى اطار واحــد يمثل خطــرا كبيرا على منهجنا الجــديد فى سياستنا وأخلاقنــا وعقيدتنا .. يمثل ذلك الاطار خطرا داهما حاطما على اشتراكيتنا التى نتخذها عقيدة نؤمن بها ودينا نعتنقه وأخلاقا نسلكها .

الصحافة اذن خطر على الاشتراكية ، وليست داعبة لهــا ، وليست حصنا تحتمى فيه الاشتراكية كما يزعم بعض الصحفيين ، بل انها بهــذا الاقطــاع تمثل مقتل الاشتراكية الوليــدة فى أيامها الأولى .

ولا يتوهمن أحد أن هناك كتابا من الصحفيين يجيدون الحديث

عن الاشتراكية ويكتبون ذلك فى مقالاتهم ، لأننا نقول لهؤلاء : ان هناك فرقا بين المقالة التى تلقى على القارىء القاء فى الاشتراكية ، وليس هناك سلوك اشتراكى يدعمها ، وبين المقالة التى ترسم خطوطا واضحة للاشتراكية مؤيدة بالسلوك الاشتراكى الذى ينتهجه كاتبها ، ومعللة للبواعث التى تؤدى الى الاقطاع بشتى صوره ، وتفلسف تلك البواعث وترسم الطريق الى الخلاص منها بعلاجها . .

فرق بين هذه المقالة وتلك التى لا تعتمد على دراسة فاحصة للموضوع الذى تتضمنه .

ونقول ان هذا النوع من الموضوعات الصحفية لا يجيده الا المتخصصون فى النظريات السياسية والاقتصادية ، غير أن الاقطاع الصحفى يحول بين هؤلاء وبين نشرهم دراساتهم الخاصة بالاشتراكية مثلا ؟ لأنهم يحسبون أنهم لو أتاحوا للمتخصصين أو المفكرين فرصة النشر ، فانهم فى الوقت نفسه يقضون على اقلامهم بالاعدام اغمادا فى جرابها ، لأن أقلام المتخصصين بلا شك أقدر على معالجة تلك المشكلات الاقتصادية والسياسية .

* * *

على أننا نقول بصفة عامة ان صحافتنا قد تأخرت كما وكيفا بالرغم من توفر كل وسائل الطباعة وأساليبها لديها . وليس هذا رأينا الآن فقط ، بل انه رأى كوناه عنها منذ أمد بعيد ، حينما ألقيت محاضرة فى جامعة القاهرة فى عام ١٩٥٤ ، وكنت اذ ذاك أعمل فى احدى المجلات الأسبوعية التى تضطلع بالتوجيه فى وطننا ، وقد جاء فى هذه المحاضرة التى كانت بعنوان « الصحافة المصرية فى الميزان » ما يلى :

« الصحافة قد تخلت عن رسالتها وضلت الطريق اليها ، وأصبح كل همها أن تعرف من أين يؤكل الكتف ، فهدفها الآن هو

كيف تحتال عليك فى اخراج ثمن الجريدة كل صباح من جيبك فى دهشة واستغراب .

« الصحافة كانت لا تفتــأ تطالعنا بالعناوين الرئيســية فى صفحاتها الأولى عن رجوع المطربة .. الى زوجها متتبعة هذا الخبر اسبوعا بأكمله أو يزيد .. وفى اليوم نفسه كان أحق « بالمانشيت » الكبير أن يكتب عن ابادة الجنود الفرنسيين لكتيبة من الشــباب الجزائرى ذلك الشباب المكافح المناضل . وكان أولى من سرقة بيت المثــلة .. أخبار الكفــاح العربى فى بلاد المغــرب الجريح ، أو كشف الخطر الصهيونى الذى يحيط بنا ..

« الصحافة عمدت الى نشر الجرائم المثيرة واختصتها بالنصيب الأوفى فى صفحاتها بيد انها خناجر مسمومة تغمدها فى صـــدور مجتمعنا ، والتى كان من نتيجتها نزع الثقة من قلوب الأزواج فى الزوجات ومن الشباب فى الشابات ، وكذلك من الزوجات فى الأزواج والشابات فى الشباب وما ذلك الذعر الذى يسرى فى شرايين المجتمع وينذر بالفوضوية والهمجية الأخلاقية الا من أثر نشر الجرائم المثيرة الذى تستلذه الصحافة .

« الصحافة كانت صحافة الصور الخليعة العارية والمذكرات التى تحض على الفساد ونشر الرذيلة : دوقة وندسور ومذكرات أم كاميليا عن ابنتها المتوفاة .

« الصحافة كان من مبادئها التحلل من الفضـــائل والتخلق بالرذائل والحث على الاندفاع وراء المارقين لاعتناق المذاهب الهدامة وغيرها .. ومن هنا تأخرت صحافتنا المصرية كما وكيفا .

« وبعد ..

« فنحن فى حاجة الى صحافة من نوع جديد ، صحافة تؤمن بالمثل العليا ، وتكفر بكل ما يشــين ، صحافة تدعو الى اصــلاح لا فســاد ، وفضــائل لا رذائل ، واتحاد لا تفــرق ، واستقامة

لا اعوجاج ، ومحاربة للخلاعة والصور العارية لا الدعوة اليها .

« ونحن فى حاجة أيضا الى صحافيين من نوع جديد ، فى حاجة الى صحفى يؤمن بشىء هو دونه ، ويريد أن يسمو اليه .. يؤمن بقوة يستعين بها على ضعفه ، يؤمن بمثل من الأمثلة العليا يريده لنفسه فردا ولأمته جماعة . يؤمن بمثل عال من الكرامة يصونه عن كل مهين خسيس . فى حاجة الى صحفى ذى رأى مستقل يبديه فى صراحة ويعمل على توجيه الرأى العام ، ويضع تحت أنظاره الرأى الحر البعيد عن الهوى » .

***

واذا كنا قد تحدثنا طويلا عن صحافتنا ــ فيما مضى ــ وعن كونها عاملا هاما فى نشأة الاقطاع الفكرى ، وتنميته والدفاع عنه ، وانه لم يتحقق فيها مبدأ الاشتراكية فى الفكر ، أو بتعبير آخر مبدأ تكافؤ الفرص فيها ..

أجل ، اذا كنا قد تحدثنا عن ذلك كله ، فينبغى الآن أن نتحدث عن حقيقة هذه الصحافة ، ومن يا ترى ذلك الصحفى الذى يصنع الصحافة .

ولعله يحضرنا فى هذا المقام تعريف لها وله قام (١) به العقاد فى نوفمبر عام ١٩٣٨ بمناسبة ما جاء فى خطاب العرش من هذا العام بعرض مشروع لهيئـــة الصحافة ينظم ما لها ولرجالها من حقوق وامتياز ، وما عليهم من تكاليف وواجبات .

يقول العقاد فى هـذا المقام ان اصـلاح الصحافة والصحفيين أمر محمود مطلوب ، ولكن من هم الصحفيون قبل كل شىء ؟

ولم يشأ العقاد الا أن يجيب على هذا السؤال بأن هذه اول صعوبة فى المسألة ، لأن انشاء هيئة للصحفيين ليس كانشاء هيئة

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٨٢ من عام ١٩٣٨ ــ للاستاذ عباس محمود العقاد

للمحامين ، أو للأطباء أو للمهندسين ؛ اذ كل طائفة من هذه الطوائف لها شروط محـــدودة ومؤهلات معلومة لا يقع الخـلاف عليها ، أما الصحفيون فليس من السهل تعريف الصحفي الذى يجب أن يحسب منهم على وجه يبطل فيه الخلاف .

* * *

ويتساءل العقاد فى ذلك : فهل الصحفى هو مالك الصحيفة ؟ أو هو المحرر فى مكتبها ؟ ، أو هو المراسل لها من الخارج ؟ ، أو هو مدير أعمالها ؟ ، أو هو الكاتب أو هو المحصل ، أو هو الوكيل ، أو متعهد البيع الذى يتصل بها ؟

غير أنه لا يلبث أن يجيب على تســاؤله هذا بأن كل أولئـك يعملون فى الصحافة وينتظمون تحت عنوانها ، وليست مصالحهم مع ذلك متفقات فى جميــع الأحوال ؛ فما هو من مصلحة مالك الصحيفة قد يكون اجحافا بمحرريها وموظفيها ، وما هو من مصلحة المحررين قد يكون اجحافا بمالكها ، أو متعهد بيعها ، وقد تتســع المشكلة بين الفريقين حتى تتناول المشكلة « الأبدية » القائمـة بين العمال وأصحاب الأموال .

ويمضى العقــاد قائلا : فأما اذا قلنا ان الصحفى هو الكاتب أو المشرف على مادة الكتابة فما هو شرط الكاتب فى صحيفة يومية ؟ وما هو شرط الكاتب فى مجلة من المجلات على اختلاف اغراض هذه المجلات ؟ »

لكنه يرى أن الصحيفة قد تكون قانونية فهى محتاجة حينئذ الى كفاءة محام ، أو طبية ، فهى فى حاجة الى كفاءة طبيب ، أو مدرسية فهى فى حاجة الى كفاءة معلم ، وقس على ذلك ســائر الصناعات والموضوعات .

بيد أن حصر المرشحين للكتابة فى الموضوعات الفقهية أمر غير ميسور ، وغير مأمون العواقب ، فان المتفق عليه أن طائفة من رؤساء المذاهب القانونية لم يكونوا من أهل القانون فى التربية والنشأة ، وان كان هذا الحكم لايسرى على كبار الشراح والمفسرين ، ويضيف الى ذلك اننا فى مصر لم نعرف بعد مدارس الصحافة ، ولم نبلغ بعد ما بلغته الأمم الأوربية من شيوع التعليم وذيوع الصحافة العامة ، فكيف تكون الصعوبة عندنا اذا كانت صعوبة الاهتداء الى الصحفى « المطبوع » لا تزال قائمة فى أمة كالأمة الانجليزية ؟ . وأين تذهب صحافتنا الى جانب الصحف الانجليزية التى تطبع الملايين وتجمع من الموارد ما يضارع موارد بعض الدول الصغار ويقرؤها اناس كلهم ، أو جلهم متعلمون مثقفون .

ثم يسوق فى هذا المجال قول « ويكهام ستيد » فى الصحافة ، وهو صحفى زاول الكتابة فى أكبر صحف العالم حيث يقول : لن تخرج صحيفة من الصحف بغير مجهود مكتب التحرير ، أى مجهود الصحفيين الخبيرين . فمن هم الصحفيون الخبيرون ؟ لقد بذلت شتى المساعى لتدريب الصحفى على صناعته ، وقامت مدارس للصحافة ، ثم لا يزال مشهورا مقررا بين الكثيرين أن الناجح فى الصحافة لا يجوز امتحان نجاح ، ولا يحصل على درجة مدرسية ولا على رخصة من رخص الحرف والصناعات ، ولعله وهو يشتغل بجلب الأخبار ، وبيع الأخبار لا يبدو فى مرتبة أرفع من مرتبة البائع الجوال الذى يجمع الدريهمات فى الطرقات بالنداء والصياح ، الا أن « الوظيفة » التى يؤديها الصحفيون تخولهم مكانة اجتماعية فوق مكانة أناس ينحصر همهم كله فى اصطياد العيون والأسماع ، فمن أين لهم هذه المكانة ؟ .

ويرجح « ستيد » أن مرجعها الى ادراك الجمهرة العامة بالبداهة الفطرية أن عمل الصحافة الحق ان هو الا رسالة أو مهمة ، وأنها شىء فوق الحرف وغير الصناعة ، وسط بين الفن ودعوة

التبشير ، وأن الصحفى الحق موظف غير رسمى ، **وظيفته أن يخدم مصالح الجماعة الانسانية** ، فهو بهذه المثابة يولد ولا يصنع ، وقد يفتقر الى التدريب والاختبار ، ولكنه لا يوجد فى الدنيا تدريب أو اختيار يجعله صحفيا صالحا ما لم تكن فى نفسه تلك الشرارة الحية التى تميز بين الصحفى الحق ، والآلة الصحفية .

وليس أحمق ، بل ليس أفجع فى بعض الحالات من تخيل بعض الناشئين أنهم متى أفلحوا فى المدرسة ، أو الجامعة وآنسوا من انفسهم قدرة على صوغ الكلمات فهم خلقاء أن يفلحوا فى الصحافة اذا ظفروا بعمل من أعمالها ، ولعلهم يضعون سنوات من أعمارهم ، قبل أن يعلموا أنهم أخطأوا الطريق ، ولم يدركوا « المهمة التى بغيرها لا يكون العمل فى الصحيفة الا مذلة خاوية من السلوى القلبية » .

* * *

ويعقب العقاد على قول هذا الخبير ـ الذى يصفه بأنه من أكبر خبراء الصحافة الانجليزية ـ عن مؤهلات الصحفى بين أناس فيهم من أبناء الجامعات والمدارس العامة والفنية عداد من عندنا من عارفى الحروف الأبجدية ، فكيف يكون الحال بيننا يوم نأخذ فى انتقاء الأعضاء الصالحين لهيئة الصحافة ؟ وما هو شروط العلم والاختبار التى تفصل بين الأصلاء والأدعياء ؟وما هو ضمان البقاء فى تلك الهيئة مع ضمان حرية الآراء ، وحرية الاغضاب والارضاء ؟

* * *

ويمضى فى تعقيبه قائلا : فى البلاد « الفاشية » قانون صريح يجيز للوزير المختص أن يصدر قرارا حكوميا بفصل الصحفى فاذا هو مطرود من جميع صحف البلاد ، محرم عليه استئناف ذلك القرار الى مراجع القضاء .

وفى البلاد الديموقراطية يباح لمن يشاء أن يكتب ، وأن ينشىء الصحف ، وأن يشتغل بأعمال الصحافة دون احتياج الى اذن من الحكومة ، أو رخصة باصدار الصحيفة .

* * *

وبعد ذلك يتساءل العقاد عن موقعنا نحن بين الطرفين النقيضين ؟ أصحفيون موظفون فى دواوين الحكومة ؟ أم صحفيون لا يحسبون حسابا لغير قانون الأخلاق الذى يدين به جمهرة القراء ؟

لسنا فاشيين ، ولسنا بالغين من الحرية الديمقراطية مبلغ الولايات المتحدة وبلاد الانجليز ، فلنكن وسطا بين هؤلاء وهؤلاء ، ولنترك بقية من درجات الارتقاء يرتقيها الصحفيون مع ارتقاء القراء اجمعين ، حتى يكون القراء هم الحكم الفاصل فى آداب الكتابة الصحيفة ، فلا نحتاج فى كل شىء الى نصوص القانون وزواجر المحاكم ، اذ ليس من الانصاف أن تطلب من الصحفى أدبا فوق أدب قرائه مجتمعين ، فاذا كان أدبهم كافيا فقية الفنى عن الزواجر الحكومية ، واذا كان به نقص أو تخلف فالأولى علاج هذا النقص والتخلف قبل كل شىء ؟ لأن علاج الصحافة وحدها ليس باليسير .

* * *

ولعله يحضرنا فى هذا المقام حديث (١) رئيس الجمهورية بمناسبة تنظيم الصحافة وهو أعظم وثيقة فى تاريخ الصحافة المصرية يجب أن يعيها مؤرخو الصحافة المصرية والفكر الحديث .

ذلك أنه تحدث عن الصحافة فنفى عنها أن تكون سلعة تجارية ، وانما دورها الحقيقى والطبيعى هو أن تكون فى خدمة مجتمعنا الأصيل ، مجتمعنا الذى نبنيه الآن وهو المجتمع الاشتراكى

---

(١) حديث لرؤساء تحرير الصحف والاخبار فى ٣٠ مايو سنة ١٩٦٠

الديمقراطى التعاونى المتحرر من الاستغلال السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

ثم وجه حديثه لرؤساء التحرير قائلا : حقيقة لقد تكلمتم عن مشكلات المجتمع .. غير أن المجتمع الذى تكلمتم عنه ليس مجتمعنا ؛ لأنه مجتمع القاهرة والنادى الأهلى والزمالك والجزيرة ، وسهرات الليل .. ليس مجتمعنا هذا ، لأن مجتمعنا يتكون من قرية « كفر البطيخ » من القرية ، أى قرية ، وأنا أتكلم عن كفر البطيخ كمثال .. وهناك تكمن مشكلات مجتمعنا .. مشكلات بلدنا الحقيقية من أراد أن يكتب فليذهب الى هناك ليرى الناس الذين يرتدون « البرانيط » التى صنعت من القش ، ويحملون الأرز طول النهار لكى يعيشوا .. هذه هى بلدنا .

* * *

واضاف الرئيس يقول فى حديثه هذا : أن بلدنا ليست فلانة طلقت وفلانة تزوجت ، ولا فلانة تجـــرى وراء فلان ، وسابت علان .. ليست هذه بلدنا بأى حال .. وماذا يهم الرجل الذى يعيش فى القرية من هذا كله ، وقد كنت أفضل بدلا من أن يكتب عن هذا النوع من السيدات أن يكتب عن العاملات مثـلا .. عن العاملات اللاتى يأكلن عيشهن بعرق جبينهن بشجاعة وشرف .

* * *

ويمضى الرئيس فى حديثـه قائلا : وهل السـيدة التى تترك زوجها وتهرب مع فلان أو علان تمثل المجتمع الذى نعيش فيه .. ان هذا النوع نشاز فى مجتمعنا .. لأن مجتمعنا ليس ذلك المجتمع الذى تقول عنه الصحافة انه مجتمع « الهايلايف » . وانما هو أعمق من هذا بكثير ، ولا يصح مطلقا أن نحصر تفكير الصحافة فى هذا الشذوذ المحدود الذى لا يمثلنا ونتكلم عنه .

ثم يتحدث عن مهمة الصحافة قائلا : يجب ان تكون فى خدمة مجتمعنا الأصيل الطبيعى الذى جئنا منه ، لا ان تكون فى خدمة مجتمع سهرات الهلتون .. السهر بالليل يمكن أن يكون لطيفا ، والحكايات فى السهر وسيرة الناس مسلية .. **وكل واحد حر فى حياته العادية ، ولكن هل هذا هو دور الصحافة ؟.**

ان هذا المجتمع لا يساوى واحد على مليون من بلدنا . ومشكلات بلدنا كثيرة ، فأين الحلول لمشكلاته الحقيقية .. وكيف نصلح من أمر القرى .. وكيف نعمل على أن يكون عندنا مجتمع ترفرف عليه الرفاهية ..

هذه هى مهمة الصحافة نحو المجتمع الذى نريده ، وليست مهمتها تلك الأخبار الصغيرة التى تكتب مثلا عن مليونير شرقى اخذ واحدة متزوجة ، وطلع بها .

ويتساءل الرئيس قائلا : من تلك التى يصدق عليها هذا الكلام .. قد يصدق على واحدة أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة فقط ، ومع ذلك فأنا لا أفهم الحكمة فى مثل هذه الأخبار .. هل هو التشويق مثلا .. ولكن هذا الكلام يؤثر قطعا على المجتمع .. يؤثر على الأسرة التى هى أساس المجتمع عندنا .. فى الوقت الذى نريد فيه أن نتكلم على تدعيم الأسرة ، وهناك أبحاث كتبت عن تدعيمها .. ونفذ بعضها فعلا ، فهل تحدثت الصحافة عنها ، أو على الأقل عن بعضها ؟ .

* * *

ثم يعرض الرئيس لناحية هامة توليها صحافتنا عنايتها وهى مسألة الجنس ، ويصفها بأنها تهدد الأسرة أيضا ، وهو لا يعتقد ان مجتمعا نظيفا يشجع على الكلام عن الجنس بهذا الشكل ، ولكن بالرغم من هذا فان الجرائد تلح دائما فى الكتابة عن الجنس بصورة

مزرية . ومن ناحيـــة أخرى فانها تخرج على الناس بصـــور كاريكاتورية مكشوفة للسيدات تمثل الزوجة على انها خائنـــة لزوجها ، لأنها وضعت ثلاثة رجال فى الدولاب .. حقيقة يمكن أن توزع الجريدة عشر نسخ زيادة ، لكنها فى الوقت نفسه تهـــد مجتمعنا .

ولا يتصور الرئيس أن فى مجتمعنا الأصلى زوجة تفعل مثـل هذا الفعل .. ثم يتهكم حينما يقول : « يعنى ايه تكييف هوا .. » هذا المجتمع الذى تحدثت عنه الصحافة من أين جاء ..

ومهما يكن من أمر فأنا لا أعرف عنه الا أنه نشاز فى مجتمعنا الأصلى الطبيعى البرىء النظيف ، وأفعاله هذه انما تعتبر شذوذا ، ولا يجوز للصحافة أن تركز اهتمامها على الشذوذ .. لا يجوز لها أن تركز اهتمامها على المرأة التى تعرف ثلاثة رجال ، أو التى تغير زوجها كل اسبوع لأن هذا غير معقول .

الصحفيون أكثر الناس اطلاعا على مشكلات المجتمع الحقيقية ، ولا بد أن يقوموا بأداء واجبهم على الوجه الأكمل ، لان دور الصحافة كبير فى هذه الناحية ، وكل واحد منا أمامه الفرصة متاحة للاسهام فى صنع المجتمع الجديد .

* * *

شىء آخر عرض له الرئيس وهو تهـافت الصحافة نحـــو الاعلانات ، لا سيما الاعلانات التى لا تتمشى مع كرامتها كصحافة ، ولا مع كرامتنا كبلد . ثم يتســـاءل قائلا : ولماذا تنشر جرائدنا الاعلانات السياسية ، لأن هناك من يعتبر الجريدة سلعة تجارية ويريد أن يحقق من ورائها كسبا على أى حال ، وبأى شكل من الأشــكال لدرجة أن اعلانات الســفارات الأجنبية على اختلافها أصبحت بندا ثابتا فى الصحف .. هل هذا يجوز .. وهل هذا هو مجتمعنا .. وأين الذى يحصل فى بلدنا حقيقة ..

اين المصانع التى تنفذ يوميا فى انشاص وغيرها ، لا أحد يعرف عن هذا شيئا .

* * *

ويمضى الرئيس قائلا : وأنا أريد أن تكون الصحافة رسالة ، وان نحررها من التجارة ، ولا يمنع هذا أن تتنافس لتحافظ على مستواها ، وتبقى بعد ذلك رسالة ، والناس تعلم أن لها رسالة فى بناء المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى .

ومن حق الصحافة أن تنقد بصراحة ، لا أن تسبح بحمد أحد ، واذا وجدت أى وضع غير مستقيم فلا بد من أن تنتقده بحيث يشعر الناس أن فيه نقدا ، وأن هناك عيونا مفتوحة ، والا فان كل مسئول يتصور نفسه متغطيا لا يراه أحد » .

* * *

ثم يوجه الرئيس النقاد الى أنه ينبغى أن يكون نقدهم على أساس النقد البناء البرىء من التهديد أو الانتقام .

ويضرب الرئيس مثلا للنقد حينما يقول انه اذا وجدت الصحافة « حتة خربانة تقول عنها ان هذه الحتة خربانة » . ولكن ليس معنى هذا أن يجوز لصحفى كما حدث منذ زمن بعيد أن يقول ان الاسكندرية ميتة .. طيب ازاى نصحى اسكندرية اللى ماتت .

وظهر بعد ذلك أن هناك اناسا اجتمعوا وعملوا حفلة ، وطلعوا عشر ستات متصورين » .

ويقول الرئيس : والله اذا كانت المسألة هكذا فنحط فى كل مديرية عشر ستات ونصحى البلد ، واذا كان هذا الحل هو اللذى يسهل المأمورية تبقى مأمورية سهلة .. طيب هناك فى اسكندرية سبعين مليون جنيه للاستثمار فى الاسكندرية لاقامة مصانع

جديدة ولتشغيل العمال .. وهذه هى اسكندرية .. وليست هى عدد من البيوت التى تسهر بالليـــل وترقص الروك آند رول وتشا تشا والكلام ده ، انما هى الناس الذين يعمـلون ويحملون على أكتافهم .. وفيها مليـــونان وفيها كم واحد فى حاجة الى العمل .. وهل يتم تشغيلهم باقامة حفلة أو اثنين أو ثلاثة ، أو نعمل لهم عرض أزياء ونجيب عدد من الســـتات ، أو نحل مشكلات اسكندرية باقامة مصنع واثنين وثلاثة ..

* * *

وطالب الرئيس بأنه لا بد أن تعـرف الصحافة مشـــكلاتنا الحقيقية ، ولا بد أن نعرفها لكى نقـــدر على حلها حلا سليما فى مجتمعنا الحقيقى .. مجتمعنا الذى يوجد فيه من يعمل فى كفر البطيخ ، أو فى المصنع ، أو يبحث عن قوت يومه .. وليس مجتمعنا الذى يوجد فيه العاطلون بالوراثة الذين ورثوا الأموال ولايعملون .. ان هذه الطبقة ستنقرض من مجتمعنا ، ولا بد من أن تنقرض ، ولا نسمح بحال من الأحوال ان يوجد فى مجتمعنا عاطل بالوراثة .

وطالب الرئيس أيضا بعدم الاهتمام بالجرائم ، لأن مجتمعنا ليس هو مثلا السيدة التى طلبت من زوجها أن يطلقها لأنه مريض بالقلب ، ولكن ليس معنى هذا أننى لا أبيح نشر الجرائم ، ولكن لا بد أن يكون وراء النشر فكرة . فمثلا الجرائد والمجلات التى تهتم بالجنس دائما كيف يدخلها الانســان فى بيته ، لأن هــذه ليست حياتنا ، لأن المفروض فينا أننا محافظون باستمرار .

* * *

وعاد الرئيس يتحدث عن مهمة الصحافة فى نقدها ، وأبان بأنه لا بد من النقد ، ولكن النقد البناء ، النقد الذى يوضــع بجواره الحل ، لأن واجب الصحافة أن تكشف الفساد فى المجتمع .. وكل مجتمع فيـــه رشوة ، وفيـــه أناس يعمــلون على الانحراف بهـذا

المجتمع .. وكل هذه الأنواع موجودة فى بلدنا ، ولا يمكننى التخلص ولا الذى بعدى ، ولا الذى بعده ، لأن هذه سنة الكون ، ولكن لا بد ان نوقفها بقدر امكاننا ، ورسالة الصحافة كبيرة فى هذا المجال بحيث تبين هذه الأمور للقراء وتوضحها .

***

على انه لا يجوز للصحافة أن تسرف فى نشر صــــور الممثلين والممثـلات ، ثم لا تهتم الا بمقالة واحد تتـكلم فيها عن الأمور الداخلية والخارجية على السواء .. لا يجوز لها أن تصنع هذا ، كما لا يجوز لها أن تصرف فى التصريحات التى تكتب على لســان الوزراء ، لأن معنى هذا اننا نعد المواطنين ولا نعمل .

ولكن ليس معنى انى أنبه الى عدم ملء الصحيفة بصور الممثلات والممثلين انه يجوز للصحفيين أن يشهروا بالفنانين ، لأن لهم رسالة مثل الصحافة ولكن بالأغنية وباللحن وبالسينما .. وبالصور .. وبالتمثال ، ونحن نعتبرهم رأس مال كبير جدا ، ولهم أثر كبير فى حمل تطورنا الى العالم الخارجى .. لو فتحت الراديو على محطة اذاعة لنـــدن مثـلا فستجدها تذيع اغانينا ، تذيع أغانى محمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ .. وهذا كسب كبير ، ولابد أن ندعم طبقة الفنانين عندنا ، بحيث نمكنهم أكثر من أداء رسالهم طبعا .

وأحب أن أقول انه لا يوجد مثلا فنانون صالحون ١٠٠ فى المائة ، وذلك شأن طبيعة الأشياء .

ومن هنا فلا يجوز للصحافة أن تركز أحاديثها على العـورات التى هى موجودة فى ناحية من النواحى ، لأن معنى هذا اننا نحط من شأن العمل كله ، ولهذا لا اتصور أى منطق لحملات التشهير على الحياة الخاصة للناس ، لأننا نعتبر الفن يؤدى دورا كبيرا فى تطوير المجتمع ، وهذه ناحية لا بد من بنائها .

***

ويختتم الرئيس حديثه لرؤساء تحرير الصحف والمجلات عندنا بقوله : « هــذا ما أردت أن أقوله لكم باختصـــار ، هو يتضمن كلمتين .. أن تكون لصحافتنا رســالة ، وأنتم كصحافة مجندون لخدمة البــلد » لا لخدمة أناس بأعينهم ، والذى لا يؤمن بالمجتمع الاشتراكى التعاونى يمكنه أن يقول أنا غير مؤمن بهذا الكلام » وأنا مستعد أن أعطى له معاشا ويقعد فى بيته .. ولكن الذى يعمل فى هذا الميدان يجب أن يكون مؤمنـــا بالمجتمع الاشــتراكى التعاونى الديمقراطى الذى نعمل جاهدين من أجل تحقيقه ، واذا كانت هناك وسيلة أخرى للبناء غير التى نستخدمها يمكن أن يدلنا عليها .

وعلى هذا الأساس فانى أعتبر الصحافة شيئا كبيرا قويا فى خدمة هذا البلد .

❋ ❋ ❋

ولا أكتم القـــارىء سرا وهو أن الرئيس استطاع أن يرسم للصحافة فى حديثه هـــذا الخطوط الواضحة لكى تفــكر تفكيرا اشتراكيا ، وأبان لها علائم المجتمع الجديد والمهمة الملقاة على عاتقها نحو تأدية رسالتها التى تتلخص فى خدمة مجتمعنا الجديد ، وحقيقة الدور الذى يجب أن تقوم به فى نقدها ، والرقابة التى تفرضها على النظام الاشتراكى للكشف عن مواطن الضعف أو الزلل ، وهى فى مهمتها هذه انما تقف الى جانب النظام الاشتراكى تذود عنه بنقد أى تصرف خاطىء لا يتفق مع أهداف هذا النظام ومخططه .

كما وضح الرئيس فى حديثه هذا ناحية هامة » وهى أنه لا بد أن تفتح الصحافة باب المناقشة العامة على مصراعيه فى الشئون العامة ، وحق الاقتراح والنصيحة والتنبيه والنقد الذى هو من الوسائل المشروعة فى تقويم أى اعوجاج ، وفى الكشف عن العناصر والأفعال الضارة بالمجتمع الاشتراكى .

وحسبنا هذا الحديث من السيد الرئيس فى ايضاح ما نبغيه من الصحافة فى عهدنا الاشتراكى الجديد .. فهو نعم التوجيــه

الرشيد السديد . ولكن الصحافة والصحفيين على سواء لم يعملوا به ولا ببعضه على الرغم من مضى حوالى تسع سنوات ..

فمن الممكن أن يقف القارىء بنفسه على كل توجيه أشار به عبد الناصر ليجد أنه لم ينفذ ، بل زاد الصحفيون فى المساوىء التى من اجلها قام هذا التوجيه ..

ومعنى هـذا أن الصحافة لم تخط خطـوة واحدة على طريق الاشتراكية الا ما ندر على السنة بعض الدارسين فى أبحاثهم .. أما الصحافة .. أما الصحفيون .. فلا يعرفون شيئا عن السلوك الاشتراكى ، وقد قلنا فيما سبق ولا نزال نقول ونلح فى القـول لتأكيد هذا المعنى : ان الاشتراكية سلوك وأخلاق وفكر .

الاقطاع بين الشيوخ والشباب :

واذ قد بلغنا هذه المرحلة من البحث فاننا نجد أنفسنا أمام لون آخر من الاقطاع ، وهو ما يحدث بين جيلين يعاصران بعضهما البعض ، ويمثلان الشيوخ والشباب فى عالم الفكر .

ويكاد يتفق الشباب على أن الشـيوخ اقطاعيون للفـكر ، ولا يتيحون فرصة للشباب كى يحققوا ذواتهم عن طريق الكتابة ، وفى الوقت نفسه نرى أن الشيوخ يتفقون على أن الشباب عابثون ، لا يأخذون أنفسهم بالشدة لكى يصبحوا مفكرين وأدباء ؛ لأن هذا الطريق وعر المسالك مرصوف بالضحايا ، ويذكرون فى كل مناسبة وغير مناسبة ما حدث لهم حتى وصلوا الى ما وصلوا اليه .

وبجانب ذلك لا يستمع الشباب الى توجيه الرواد الكبار ، ومن هنا فانهم ينزعون الى الضحالة والسهولة فى المضمون والتعبير فى كل تجاربهم الأدبية ، حتى أنك لترى أدبهم عبارة عن محاولات لا تصعب على كل من تعلم القراءة والكتابة .

* * *

ونحن ازاء هذا كله حريصون على أن نضع الأمور فى نصابها فنذهب مع الشباب لنرى : هل الشيوخ حقيقة اقطاعيون للفكر ؟

ومن ناحية أخرى نتفحص سلوك الشباب وأعمالهم لنرى : هل دعوة الشيوخ لا زالت قائمة ؟ وأن هؤلاء الشباب لا يستحقون التشجيع ونشر انتاجهم أو اجازاتهم من أى مؤسسة ثقافية ؛ وانما الذى يجب لهم فقط شيء واحد هو مصادرة انتاجهم .

* * *

غير أننا قبل أن نتحدث عن الاقطاع الفكرى عند الشيوخ يجب أن نتعرف أولا على هؤلاء الشيوخ الذين نزعم أن عندهم اقطاعا فكريا ، أو الذين يمكن أن يكون عندهم اقطاع فكرى ، وحينئذ فقط يحق لنا أن نتساءل ؟

هل نعتمد فى معرفة هؤلاء على عامل السن فيصبح الشيخ هو المعمر فقط ، وغير المعمر ليس بشيخ ؟ ؟

ام نعتمد فى معرفتهم على عدم اتاحة الفرصة للآخرين لكى يحققوا ذواتهم — كما أشرنا الى ذلك قبلا — فى المؤسسات التى يهيمنون عليها . ومن هنا تصبح عنونتنا لهذا اللون من الاقطاع غير ذات موضوع ، لأنها ستشمل عمل المهيمنين على المؤسسات الثقافية ، ومنهم من ليس معمرا ، وسيدخل فيها أيضا أن الذى يحال بينه بين نشر انتاجه وتحقيق ذاته قد لا يكون شابا .

أجل قد يفهم هذا فى العنونة ، وفى معرفة حقيقة الشيوخ ، غير أننا نود أن نشير الى أن الاقطاع وان حدث فى بعض الأحيان من غير المعمرين من المهيمنين على الأعمال الثقافية ، الا أنه يحدث فى أغلب الأحايين من المعمرين ، وعلى هذا فحدوثه من غيرهم لا يمنعنا من تسميته باقطاع الشيوخ .

على أننا قد نفهم فى غير المعمرين الذين يصطنعون هذا اللون من الاقطاع فهما آخر يلحقهم بالمعمرين ، ويسلكهم معهم فى تصرفاتهم ، وهو أن يكون هؤلاء قد تشيخوا فى أفكارهم ، ووقفوا

عند خط معين من التفكير لا يعدونه ، ومن هنا فليسوا بغريبين على المعمرين ، وان كان هناك فارق السن ، لأن العبرة فى هذا المقام بتجانس التفكير ، لا بتجانس الأعمار ، فكم من معمر يسبق الشباب فى الاستجابة لدواعى التطور ومواءمته للجيل الذى يعيش بينه ، وكم من شاب يفكر بعقلية المعمرين ، ويعيش ضيفا بين أقرانه ولداته ، لأنه وقف عند السابقين — فى تفكيره ، وأقام لا يريم . ومن هنا أيضا فصحيح أن نعنون لهذا اللون من الاقطاع بأنه اقطاع الشيوخ ، وصحيح كذلك أن نكون قد وفقنا فى معرفة حقيقة هؤلاء الشيوخ .

غير أن الذى نود أن نسجله هنا هو أننا نكن لهؤلاء المعمرين من الرواد كل تقدير واجلال ، واننا نحمد لهم الدور الذى قاموا به فى بناء حياتنا الثقافية والفكرية والسياسية .

ولكن ليس معنى هذا اننا لا نغضب غضبا شديدا اذا ما وجدنا بعضهم يحاول أن يقف فى طريق الآخرين ، لأنهم من وجهة نظرنا قمما تحتل من نفوسنا مكانة لا تعدلها مكانة أخرى ، وحينما نحاسبهم فأنما نحاسب فيهم العلماء الذين اتسع عقلهم للكثير من أعمال العقل البشرى من فكر ، ونحاسب فيهم كذلك الأدباء الذين استطاعوا أن يحولوا تيار الأدب العربى من انطوائيته وتمرغه — فى مهانة — على أعتاب الملوك والأمراء والوزراء ، الى أن أصبح على يدهم أدبا انسانيا يتحدث عن التجارب الانسانية ، وغدا أدبا عالميا أو يكاد .

أجل محاسبتنا لهم ستكون محاسبة لأناس نحبهم ولا نستطيع أن نجحد فضلهم وما أسدوه الينا من أعمال جليلة ننعم بها نحن الآن ، فى الوقت الذى كابدوا فيه هم من أجلها ، وعانوا فى سبيلها عناء شديدا ، ومن هنا فأننا نكاد نقول انهم أول من يقدر موقفنا ازاء الاقطاع الفكرى .

وقد يقول قائل ان هؤلاء الشيوخ قد طواهم التطور وسيطويهم الزمن ولسنا بحاجة الى أن نخشاهم على تقدمنا وتطورنا .

ونحن نقول اننا لم نرد الا تسليط الضوء عليهم باعتبارهم اعلى قممنا لهذا اللون من القيادات الفكرية التى ينبغى الحذر كل الحذر من الانخداع بأمثالها ممن يستطيعون أن يتحولوا من التحمس للاشتراكية الى تحمس أعظم للاقطاع اذا وجدوا الفرصة المناسبة ، وخاصة أنهم قد نجحوا فى ان يجمعوا الشيع والأحزاب ليقوموا بالترويج لأفكارهم مستهدفين فى ذلك سلوكهم، وتبدو صورة هؤلاء الشيع والأحزاب فى المتتلمذين على أولئك الرواد الذين قد مكنوا لهم من معظم أجهزتنا الثقافية والفكرية نظير اخلاصهم فى الدعوة لأفكار الرواد واحلالها فى أذهان الأدباء والمفكرين من الشباب بأساليبهم الخاصة التى رباهم عليها أساتذتهم .

وقد ينشأ هنا سؤال هو الزم سؤال يتضمن أن هذا ليس الا ضربا من التلمذة الفكرية التى ينبغى التوسع فيها وتنميتها حتى تتطور حياتنا الثقافية وتزداد ثراء وقوة .

غير اننا نقول فى هذا المقام : ان التلمذة الفكرية اذا تحولت الى ضرب من الاحتكار والأثرة ، واذا أغلقت المجال فى وجوه الآخرين وحرمتهم من ممارسة ثقافاتهم وخبراتهم فى فرص متكافئة مع الآخرين .

اذا حدث هذا تغدو التلمذة الفكرية وقد فقدت رسالتها واستحالت الى ضرب من الاقطاع الذى يحرمنا من النظر الى الدنيا بعيوننا كاملة ، بل لا نغالى اذا قلنا انه يحول مثقفينا شيئا فشيئا الى ببغاوات ناقلة تفقد القدرة على الابتكار وعلى التأصل .

***

واذا رحنا نتلمس صور الاقطاع الفكرى عند الشيوخ الذين كانوا مهيمنين على بعض المؤسسات الثقافية لوجدنا أكثر من

صورة تبدو واضحة جلية فى اختيار اعضاء لجان تلك المؤسسات الثقافية ممن تربطهم بالمهيمنين على المؤسسات صلة الصداقة أو التلمذة ، ولا يخرج أعضاؤها عن هذين الاتجاهين ، فى الوقت الذى نرى فيه أنه كان هناك شخصيات أخرى كان يمكن الانتفاع بها ، لأن لها أصالتها ودراساتها فى هذا الميدان .

ونحن لا نود أن نستعرض أعضاء هذه المؤسسات ونتحدث من الصلة بينهم وبين هؤلاء من أى ناحية أتت ، وهل كان الذى يرشحهم لهذه المؤسسات دراساتهم وعبقرياتهم الخلاقة . أم كان يؤهلهم اليها أنهم على صلة بهؤلاء الشيوخ أو ببعضهم من ناحية . أو لأنهم لا يردون لهم رأيا ، ولا يخالفونهم فى قرار من ناحية اخرى ، وهذه أيضا لها قيمتها فى الاقطاع الفكرى الذى نحن بصدده .

ونحسب أن شيوخنا لا يعدمون اجابة وتعليلا لهذا المأخذ عليهم . ونكاد نعتقد أن تلك الاجابة لا تخرج عن أنهم كانوا يمثلون فى هذه اللجان جميع المعاهد والاتجاهات . ونحن نوافقهم الى حد ما على اجابتهم تلك . غير أننا نختلف معهم فى كيفية التمثيل لتلك الجامعات والمعاهد وغيرها .

فمثلا بدلا من أن يأخذوا استاذا يستطيع أن يرى رأيا يصلح للمناقشة ، ويصلح أن يكون موضوع قضية عساها تفيد الأدب والأدباء . بدلا من هذا يختارون رجلا على قدر كبير من طيبة القلب ، هادئا وديعا ، لا يرى الا ما يرون ، ولا يختلف على أمر الا على الأمر الذى اختلفوا عليه .

وعلى هذا الأســاس يمكنك أن تنظر فى الممثلين للاتجاهات والمعاهد فانك ستخرج بلا شك بأنهم وان كانوا من اتجاهات مختلفة (ونعنى بالاتجاهات هنا الاتجاهات فى العمل لا الاتجاهات الفكرية) الا أنهم على صلة بمقررى هذه اللجان فى تلك المؤسسات

ونحن لا نرضى هذا ولا نقبله ، بل ولا نشجع عليه ، ولكن هل معنى عدم رضائنا أو عدم قبولنا له أنه لم يحدث ؟

والجواب على تسآلنا هذا أنه قد حدث فعلا ، فلا داعى لنا اذن الا التسليم بحدوثه كتسليم بالأمر الذى وقع .

غير أن القارىء اذا سألنى عن رأيى فى هـذا التصرف فاننى أجيبه بكل اخلاص اننى لا أوافق على هذا التصرف ، لأنه يزلزل عقيدتنا نوعا ما فى أسـاتذتنا الموقرين لا سيما واننـا كنا نعتقد أنهم أكبر من هذا التصرف .

* * *

وتذكرنا هذه الصورة للاقطاع من جانب الشيوخ ، بصورة أخرى تحدث فى لجان الترجمة فى تلك المؤسسات الثقافية .

فمن حيث اختيار الأعضاء تجد أن هؤلاء يختـارون بعض تلاميذهم من أساتذة الجامعة أو حوارييهم الذين مكنوا لهم فى هذه اللجان ، بالرغم من وجود من يفضلهم فى هـذا المضمار ، مضمار التعرف على الفنون والآداب ، وما يصدر فيها باللغات المختلفة ، وعلى اى عمل أدبى هو أولى بالنقل الى العربية ، أو من العربية الى غيرها ، على أن هناك بعض الأعضاء يحاول أحد الشيوخ أن يفرضهم على كل مؤسسة فى احدى لجانها الثقافية ، بالرغم من أنه ليس من الصف الأول من علمائنا أو أدبائنا ، وكل ما يمتاز به أن له بهذا الشيخ صلة التلمذة التى تكفى من وجهة نظره لفرضه على أى مكان مهما عارض البعض فى تعيينه ، أو مهما حدثت من ضجة أو ضجات ، أو تأزمت الأمور بسبب ايثار شيخنا له على غيره ممن هم أفضل منه .. بيد أن الشيخ ذكى الفؤاد لبيبه ، يستطيع أن يخرج من أى مشكلة تحدث وهو أقوى من ذى قبل ، ومن هنا فانه ينفذ كل أغراضه بأجمعها على الرغم من المعارضة ، وحدوث الضجة أو قيام المشكلة ..

ومن هنا كذلك الادارات الثقافية فى تلك المؤسسات على الرغم من تعددها تعمل كأنها مؤسسة واحدة ، لأنها تنفذ توجيهات واحدة .

ودونك المؤسسات الثقافية على اختلاف أنواعها ، وحاول أن تتعرف على العاملين فيها ، وأنا الضامن لك أنك لن تجد فيها غير التلامذة الأصفياء ..

بيد أن هؤلاء الحواريين انما يقفون فى وجه من هو بعيد عنهم فى حب شيخهم مثلا ، أو من تتلمذ على غيره ، أو من لم يضمه حب كبير من الكبار .

أجل ، انهم يقفون وقفة تسد جميع الأبواب فى وجوه الآخرين بحيث تقصيهم عن مراكز القيادة . ومن هنا تكثر الشكاوى مثلا ، وتجأر الأصوات وتحدث الزوبعة تلو الزوبعة نحو ادارة مهمتها اصدار كتب صغيرة مبسطة فى متناول الجمهور ، وتتضمن الشكاوى انحياز مديرها نحو صنف معين من المؤلفين ، وشىء آخر لم تغفله هذه السياسة ، وهى تكوين المؤتمرات الثقافية ، وتمثيل الدولة فى الخارج .. فى كل ذلك كنت تجد الاتباع والتلاميذ الذين يمثلون الدولة ، بالرغم من أن هناك أناسا غيرهم قد يكونون أحق بالتمثيل منهم ، وقد يرفعون القيمة الأدبية لمصر فى الوقت نفسه ..

ولا أثقل عليك بهذه القضايا ، وانما أدعك لاستنباطك أنت لهذه الحقائق حينما تجلس بينك وبين نفسك ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، وتتعرف على الشخصيات التى يضمها أى مؤتمر ثقافى ، وأنا الضامن لك أنك ستجد نفس الشخصيات التى ضمتها جميع المؤتمرات الأخرى ، وكذلك الذين يمثلون الدولة هم نفس الذين يمثلونها فى كل حين ، كأن الدولة قد عقمت من المفكرين اللهم الا من هؤلاء الشيوخ وحوارييهم الذين يعبثون بقضايانا الفكرية فى كل حين .

واذا أمعنا النظر فيما تصنعه هذه المؤسسات التى فيها ظل لهؤلاء الشيوخ تجاه الآخرين لوجدناها تعمد الى ضرب من القتل الأدبى للغناصر التى لا تحرق البخور تحت أرجلهم بزعامة شيوخهم ، ولا تنتمى اليهم ، ولا تدين بموالاتها لهم ، وذلك عن طريق حرمان تلك العناصر من اى نسمة ضوء تتخلل الى انتاجهم، ثم تهمل هذا الانتاج مهما كان على درجة من الجودة ، بحيث يظل حبيسا فى مكاتبهم بحجة البحث والفحص حتى يذوى ذلك الانتاج ويموت دون أن يرى النور ، أو يحس بوجوده أحد .

ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟؟

والسبيل الى ذلك سهل يسير يتضمن مقاطعة الانتاج من حيث نقده وابرازه والحديث عنه فى الصحف والاذاعة والمجلات وغيرها من المؤسسات التى تتلقى بالرحب والسعة انتاج زملائهم ممن ينتمون الى الحلقة اياها .

ونعتقد أن هذه العناصر لو شجعت ونالت التقدير الذى يكفله لهم السلوك الانسانى الذى يعتمد على الكفاءة والامتياز — لا السلوك الغابى الذى يعتمد على الخطف والأنتهاز ..

نعم ، لو نالوا التشجيع والتقدير لبذلوا الجهد والجهيد ، والنفس والنفيس فى سبيل ما يقومون به من عمل فكرى ، ولا استهدفوا الزيادة فى العمل والتجويد فيه ، بدلا من احجامهم ، وعدم اخلاصهم فيما يعملون .

على أن هذه المظاهر البغيضة التى تحول دون تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص بغض النظر عن الشيوخ أو الشباب لا بد من التخلص منها فى حياتنا الراهنة ، وذلك بتحقيق الاشتراكية التى تضمنت فيما تضمنت اشتراكية الفكر لدى الجميع ، وأن يعمق فهم المثقفين الذين يهيمنون على المؤسسات الثقافية ، بحيث يعرفون أن الهيمنة على المؤسسات الثقافية انما هى ولاية وليها المهيمن

من قبل الشعب ، فيجب عليه بناء على ذلك أن يتصرف فيها على مستوى الدولة .. على مستوى الشعب لا على مستوى الأشخاص والأحباب .

كما يجب أن يصبح المرشح الوحيد لهؤلاء المهيمنين على المؤسسات دراساتهم وعبقرياتهم الخلاقة ، وأن يكون اختيارهم للاعمال الفكرية التى ترشحها للجائزة التشجيعية لا يتطرق اليه الهوى ، أو الغرض الذى يحول بين الكفء وبين الجائزة ليمنحها صديق أو تلميذ لرئيسها .

وبجانب ذلك لا بد أن يتيح شيوخ الأدب الرواد للشباب الفرصة لأن يقوموا بتجاربهم على حسب ما يتفق وأفكارهم وأذواقهم .. وفى الوقت الذى يتيحون لهم فيه تلك الفرصة يعملون على دراسة تلك التجارب دراسة موضوعية ، مهما كان أصحابها من الضآلة والصغر والهوان ــ على حد تعبير أحد الكبار .

وبعد تلك الدراسة يمكن أن تكون النتيجة لصالح الشباب ، أو لغير صالحهم ، ويعقب ذلك الرفض أو القبول بعد ظهور النتيجة .

وعلى أن المؤسسات أن تعنى بالموضوعية والحيدة المطلقة فى ابداء الرأى فى انتاج هؤلاء أو فى اختيار هؤلاء للمؤتمرات الدولية وللاعمال الثقافية ، وذلك لكى تكون على مستوى الدولة لا على مستوى الأشخاص والأصهار والأصدقاء .

ومن ناحية اخرى فان الكبار يتصرفون بعقليات الاقطاعيين ونظار العزب فى المؤسسات والأعمال الثقافية فيما يئول اليهم من سلطات ومراكز ، لأن لتصرفاتهم من انعكاسات السيئة على قيمنا وسلوكنا ــ وعلى أخلاق مواطنينا ــ خطرا لو يعلمون عظيما .

ولا بد أن يفهم الكبار فى الميدان الثقافى أنه لا يجوز لهم ان يتصرفوا ذلك التصرف فى هذه الأيام ، لأنه ان جاز لهم التصرف على هذا النمط فى الماضى ، فقد كان هناك مسوغ لتصرفهم هذا ، وهو أنهم كانوا فى حراسة من شللهم التى كانت صدى وبجانب ذلك فانه حتى ولو لم تكن تصرفاتهم هذه صدى للشيع والأحزاب التى كانت موجودة فى صفوف المواطنين . وبجانب ذلك فانه حتى ولو لم تكن تصرفاتهم هذه صدى للشيع والأحزاب التى كانت موجودة فى صفوف المواطنين ، لو لم يكن هذا فان الشباب آنذاك كان مصروفا عنهم بما يحدث بين الأحزاب المتناحرة .. كان الشباب ينظر الى هذه الأحزاب وما تزعمه من أنها تطلب الاستقلال لمصر ، وفى الوقت نفسه كان ينظر الى قضية مصر من الزاوية الأخرى » من زاوية الشعب ، فاذا به يجد هذه القضية تئن وتتوجع ، لأن هؤلاء الدعاة ــ دعاة الأحزاب ــ حينما كانوا يصلون الى كراسى الحكم لا يعملون للاستقلال قدر ما يعملون لكى يبقوا أطول فترة فى الحكم ، ولو على حساب الاستقلال الذى يزعمون أنهم يعملون لأجله .

نقول هذا **لأن فرصة ظهور الفنان عندنا ضرب من الصدف، وحينما نقول الفنان ، فاننا نقصد الفنان الحق الذى يتمتع بالاصالة فى الفن ، وبالعبقرية الخلاقة** .. وليس أدل على ذلك من أن توفيق الحكيم لم يكن مقدرا له الظهور ، لو أن الدكتور طه حسين لم يكتب عن مسرحية « أهل الكهف » . لو أن الدكتور طه لم يتناولها بالنقد فقد كانت النتيجة الحتمية لذلك ، أن توفيق الحكيم لم يكن غير معروف الى الآن للقراء والنقاد معا .

وذلك لأن مبدأ تكافؤ الفرص معطل عندنا تعطيلا كليا لا جزئيا ، ومن هنا رأينا أصحاب مدرسة الديوان يقومون بهجوم سافر على شوقى والقدماء كى تتاح لهم الفرصة لنشر انتاجهم ، وكانت الصحف العامة والأدبية فى الماضى تغلق أبوابها فى وجه

تلك المواهب ، لأن الثقافة والفن كانا من بين الأشياء التى لا يستمتع بها الا الذين يملكون الثروة والنفوذ الاجتماعي .

ونكاد نعتقد أنه او لم يقم اصحاب مدرسة الديوان بتلك المعركة الصاخبة ، التى استخدموا فيها النقد اللاذع لما كان لهم ذكر الآن فى الميدان الثقافى والفكرى ، ولظل عباس العقاد يقف وراء عمال البناء فى أسوان ، أو موظفا فى مديرية الشرقية فى المساحة بها ، أو فى التلفراف الى آخر الوظائف التى عمل بها ، أو التى كان سيعمل بها ، وربما كان اغلاق الصحف فى وجهه ووجه زملائه ، ومحاربتها لهم من النشر لانتاجهم الأدبى ودراساتهم حافزا للرجوع القهقرى والانسحاب من ذلك الميدان الملىء بالأشواك ، المحفوف بالمخاطر ، المرصوف بالضحايا ، الى الانطوائية وعدم الاكتراث بالأدب والأدباء ، والثقافة والمثقفين ، والفكر والمفكرين ولو كان ذلك الانطواء على حساب أعصابهم .

اجل ، لا بد أن تتخلص الدولة من كل ذلك ، وتقضى عليه قضاء مبرما ، وتحتكم فى الجوائز التشجيعية والتقديرية على مستوى الدولة للعاملين فى هذا الميدان ، تحتكم فى هذا كله الى الفيصل الحق ، وهو مبدأ تكافؤ الفرص بين المواطنين ، وذلك لأنه عماد الاشتراكية ، ونتيجتها المحتومة ، وثمرتها المطاوبة المرغوبة ..

عصبية المذاهب الأدبية :

ولكى نتحدث عن عصبية المذاهب الأدبية لا بد أن نلم بحقيقة هذه المذاهب حتى يتسنى لنا الحديث عن العصبية التى تمت فى جنح الظلام من هؤلاء الشباب الذين يريدون علوا فى الأرض ، وأن يكونوا شيئا مذكورا .

ويجمل بنا قبل أن نتحدث عن حقيقة هذه المذاهب ايضا أن نتعرف على المذهب الذي وقف عنده الرواد لا يريمون ، وذلك

لكي نعرف مدى السنون بينهم وبين الشباب . ويمكننا أن نعرف بسهولة انه هو المذهب الرومانتيكي الذى قام على أنقاضه المذهب الكلاسيكى فى أوربا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولما كان هؤلاء من الذين أدركوا القرن التاسع عشر والقرن العشرين معا كان أول ما وقعت عليه عيونهم المتطلعة للقراءة هو الأدب الذى يتفق ومبادىء المذهب الرومانتيكى ، خاصة وان جمهور الرومانتيكيين هم الطبقة الوسطى أو الطبقة البرجوازية ، وهذا شيء يرضى كتابنا الى حد كبير ، لأنهم يريدون أن تحصل الطبقة الوسطى التى يمثلونها على حقوقها السياسية والاجتماعية ، ومن هنا وجدوا جمهورا يقرأ لهم واعتمدوا عليه كل الاعتماد فى قراءة ما يكتبون ، وأصبح هؤلاء الرواد — الذين كانوا يعتبرون الى حد كبير مجددين — يعبرون عن مطالب طبقتهم الوسطى ويبلورونها ، ويعيشون فى صميم مسائلها ومشكلاتها ، كما أنهم أنفوا أن يقنعوا بمكان متواضع فى المجتمع ، يعبرون فيه عن قيم لا تمثل حاجات طبقتهم الاجتماعية . على أن مسلكهم الحق يقال كان يتفق والمشاعر الانسانية ، لأنهم كانوا يدافعون عن طبقة مهضومة الحق ، وهى الطبقة التى نشأوا فيها ، وهم على وعى بأنهم يقودون معركة التحرير ضد طبقات الطفيليين من الارستقراطيين ، فكان أدبهم بلا شك ممهدا لثورة ١٩١٩ مصاحبا لها ، وذلك عن حرية وايمان برسالته الانسانية (١) .

وبالرغم من أن الرومانتيكية كان لها أثر عظيم على الشعر الغنائى ، وبعض الأجناس الأدبية الأخرى ، وذلك لاعتدادهم بالفرد ومشاعره ، ولفهمهم الخيال على نحو يناقض ما كان يفهم الكلاسيكيون ، وبالرغم من ذلك ماتت فى الآداب الكبرى فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا وخلفها مذهبان آخران : أحدهما يخص الشعر ويدعى مذهب الفن للفن وهو المذهب « البرناسى »

(١) دكتور محمد غنيمي هلال — الأدب المقارن ص ٣٥٤ وما بعدها

وثانيهما يخص القصة والمسرحية ويدعى مذهب الواقعية او الواقعية الطبيعية ، ويدعو أصحاب هذا المذهب الى تأليف القصة أو المسرحية على حسب الملحوظات الدقيقة لما يحيط بالأديب من مظاهر طبيعية وانسانية ، ولا بد أن يختار الأديب مادة تجارية من مشكلات العصر الاجتماعية ، وشخصياتهم الأدبية مأخوذة اما من الطبقة الوسطى (البرجوازية) فى آفاقها التى تهدد المجتمع بالانحلال ، واما من العمال فيما يعانون من حيف وما ينشدون من انصاف . فالواقعيون اذن يهاجمون الطبقة الوسطى ، التى كان يدافع عنها أسلافهم من الرومانتيكيين ، لأنهم يتخذون مادة تجاربهم فى قصصهم ومسرحياتهم من واقع الطبقات الدنيا ، ومن أدنى أعماق النفس الانسانية ، فهم يصورون الشر والآفات فى تجاربهم لتنبيه المجتمع الى تلافى انتاج مثل هذه التجارب .

اجل وقف الرواد عند المذهب الرومانتيكى وعند مقتضياته فى عالم الآداب والفنون لأنه المذهب الذى وافق رغباتهم فى الأدب والفن ، وبمقتضاه يعبرون عن أنفسهم وعن الطبقة المتوسطة التى هم بعض لبناتها ، وعلى هذا الأساس فان معظم تجاربهم انما جاءت وفقا لهذا المذهب الذى تشربت به أرواحهم واختلط بعقولهم كما أن نقدهم لتجارب الآخرين انما يتخذ مقاييسه من مقاييس النقد الرومانتيكى وقد حدث هذا لأنه المذهب الذى يحاول أن يجعل من طبقتهم شيئا مذكورا ، ويجعل من الأدباء حراسا على مطالب الطبقة المتوسطة التى كانت تمثل السواد الأعظم من الشعب آنذاك . ومن ناحية أخرى فانه يرضى نفوسهم الحالمة التى تتخذ من الأدب وسيلة للسمو بالمشاعر الانسانية . .

ومن هنا فلا نعجب اذا وقفوا من الواقعية موقف المناوىء لها المتربص بها ، وذلك لأنهم قد لا يحسون بما يحدث لجمهورها — فيما يغلب على اعتقادنا — أو انه لا يمكن أن ينفعلوا بها بعد أن تشبعت أرواحهم بمطالب نفوسهم التى تمثل الطبقة الوسطى .

على أن الشـــباب وان نشأ معظمهم نشأة رومانتيكية الا انهم وجدوا انفسهم تائهين بتجــاربهم التى كانت تمثل وجهــة النظر الرومانتيكية بجوار تجارب العمالقة الذين يسيطرون على الميدان الأدبى بانتاجهم الوفير ، والذى تشــع منه نسمات الرومانتيكية الحارة المتاججة . وهم لا يريدون أن يعيشوا امعات ولا أن يكونوا انطوائيين ازاء انتاجهم . ومن هنا فانهم تطلعوا هم الآخرون الى الأدب العالمى وراحوا ينشدون فيه بغيتهم ، وما لبثوا أن وجدوها ، وهى تمثل وجهة النظر الأدبية الحديثة عند معظم الأدباء فى العــالم وهى الواقعية ــ التى أنف روادنا منها ، لأنهم لا يســتطيعون أن يتمثلوها أو ينفعلوا بها أو بجمهورها ، فعكفوا على دراستها ودراسة تجارب أدبائها ووقفوا عندها ، لكنهم والحق يقال انهم وقفوا عند شىء جديد . لأنه من ناحية أدبائنا فهو جديد عليهم من ناحية الواقع الصرف ، لأنهم وان قرأوها وان درسوها فانهم لا ينفعلون بها ، وبالتالى لا يسـمحون لأنفسهم بالكتابة بما يتفق ونظرة معظم روادها فى العالم .

وأما من ناحية جمهور القراء فهو شىء جديد عليهم كل الجدة لم يسـبق لهم التعرف عليه ، ومن هنا فانهم استقبلوا تجاربها فى الأدب الموضــوعى بالتهليل والترحاب كمــا يدل على ذلك رواج الصحف التى بدأت تهتم بانتاج الشباب الواقعى الذى يستمد مادته الطبقات الدنيا من المواطنين .

واذا أمعنا النظر فى الطبقة المتوسطة التى وقف عندها الرواد لوجدناها قد انزوت وأصبحت تمثل عددا ضئيلا فى هذا الوطن ، لأنه اذا صح أنهم كانوا يكتبون منذ خمسين عاما أو تزيد ، فمعنى هذا أنهم بدأوا أيام كانت الغالبية العظمى من الشعب تمثل الطبقة المتوسطة ، أى أنهم كانوا يكتبون أيام « الجدود » يعنى آباء الآباء لهذا الجيل ، واذا كانت ملكيــة آباء الآباء قــد قسمت بين الآباء واخوتهم ، كان معنى هذا أن الملكية قد وزعت الى بضع انصــبة مثلا ، ثم يأتى بعد ذلك تقسيم ملكية الأب على عدة الاخوة لكل مواطن

من جيلنا نحن ، ومعنى هـذا بتعبير آخر أن الذى كان يملك من الجدود ما يقرب من ٣٠ فدانا فانها قسمت على المتوسط من عدد أفراد الأسرة المصرية وهو ٥ افراد ، واذا يكون نصيب الواحد منهم ستة افدنة وهو جيل الآباء» واذا قسمت ملكية الواحد منهم وهم آباؤنا على عدد ابنائهم فان كل فرد سيخرج بفدان واحد تقريبا وهو لا يؤهله للطبقة الوسطى بأى حال ، بل انه يجعله من الطبقة الدنيا ، لانه لا يكفى بمطالبه الضرورية ونخلص من هذا كله الى أن الطبقة المتوسطة قد تحولت من الملاك الى بعض كبار الموظفين وقليل ماهم .

ومعنى هذا ببساطة أن الرواد فقدوا عددا كبيرا من قرائهم ، لأن تجـاربهم اصبحت لا تعبر عن مطـالب الغـالبية العظمى من المواطنين .

ولما كانت الصحف تهتم بما يرضى قراءها ، فانها قد شجعت هؤلاء الشـباب على الكتـابة وذلك بنشر انتـاجهم من ناحيـة ، وبالمكافآت السخية من ناحية أخرى . وزحف هؤلاء على الصحف والمجلات وتربعوا على عرش صفحاتها الأدبية ، فى الوقت الذى ذهب فيه ريح « القصائد العصماء » واحاديث الكتاب عن سهراتهم وعن نزواتهم ، وأصبح من يكتب منهم ، انما يكتب اجابة لسؤال مهما كانت قيمة السؤال ، وهل هى معبرة عن المواطنين أم لا . وهناك فريق من الرواد آثروا الاعتكاف والانزواء ووضعوا القلم فى جرابه وراحوا فى سبات عميق .

على أن الرواد وان فقدوا سيطرتهم على الصحف ، فانهم ظلوا يحتفظون بالهيمنة على المؤسسات الثقافية التى تشجع الدارسين والأدباء . ومن هنا كان لابد لهم من اتخاذ موقف حاسم ضد هؤلاء العاقين من الشباب الذين خرجوا على تقاليدهم واجماعهم ، وكان هذا الموقف الذى اتخذوه انما هو مقاطعة انتاج الشـباب الذين يختلفون معهم فى الرأى وينظرون الي الأدب نظرة أخرى تغاير نظرتهم اليه ، وقصروا تشجيع مؤسساتهم على الانتاج الذى يتفق ووجهة نظرهم عند شباب آخرين . وقد كانت مقاطعتهم لمن يختلفون معهم

فى الرأى تظهر بأكثر من مظهر ، فبينما نجد بعضهم يحارب الشعر الحر . نجد الآخر يرفض بعض المسرحيات والروايات لا لشىء الا لأنها تمثل الظلم الذى يرين على الطبقة الدنيا التى تمثل السواد الأعظم من الشعب .

وقد لا أوافق على الشعر الحر من حيث أنه لا يتفق وذوقى الأدبى ومزاجى الفنى ، لكنى لا أرتضى بحال أن أرفضه بادىء ذى بدء من أول الطريق بأن أتخذ موقفا عدائيا من أول وهلة ، وانما يجب على أن أعاطفه وأن أحنو عليه وأتفحصه بالدراسة العميقة المستأنية علنى أخرج منه بعد ذلك بنتيجة لعلها فى صالح الأدب قبل أن تكون فى صالح الأدباء الذين أنتجوا ذلك النوع من الشعر .

أقول هذا لأنه هو الطريق الى الدراسة المنهجية التى يختطها أستاذنا العقاد فى الظواهر الأدبية الأخرى اذ يقول وبالحرف الواحد تحت عنوان الشعر العربى والمذاهب الغربية الحديثة : « ولابد من وضع هذه الدعوات فى موضعها الصحيح من تاريخ الآداب الانسانية الأوربية : فما هو موضعها الصحيح ؟ انها تمثل جانب السخافة الذى لا بد أن يتمثل فى بيئة يباح فيها القول لكل قائل ... ولسنا نقول ان هذه السخافة جانب يهمل ولا يلتفت اليه فانها خليقة أن تدرس كما تدرس عوارض الأمراض والعلل والنكبات » (١) .

والذى لا شك فيه أن هذا اللون من الشعر ظاهرة أدبيـــة ، ومن هنا لابد أن تدرس دراسة فاحصة ، والذى لا شك فيه كذلك أن فى هذا اللون بعض النماذج القيمة الرفيعة ، والذى لا شك فيه ثالثا أن هذا اللون مظلوم غاية الظلم لأن هناك أدعياء زعموا أنهم يقولون الشعر الحر . وأتوا بالتـــافه السخيف من النماذج التى عدت من الشعر الحر ، وفى الواقع أنها ليست منه .

نقول هذا ونحن مطمئنون الى أننا لا نرتكب منكرا من القول

(١) اللغة الشاعرة ص ١٥٤ وما بعدها

وزورا يغضب هذا أو ذاك ، واذا صح أن هناك من يغضب من كلامنا فليس لنا من جواب عليه سوى أننا قلنا ما يتفق وضميرنا الأدبى ووازعنا الأخلاقى غير متأثرين بأى أثر خارج عن أنفسنا .

والذى يصدق على الشعر الحر من حيث الجودة والتفاهة يصدق كذلك على الشعر الملتزم قافية واحدة ، أو الشعر المتنوع القافية ، ففى هذا الشعر أيضا بعض النماذج القيمة وقليل ما هى، والكثير منه تافه سخيف مرذول من العار علينا أن نسمى أصحابه شعراء ، وأن مايتقيأونه شعرا .

من الواجب علينا اذا أن نحكم الدراسة الموضوعية فى كل مايعن لنا ازاء أى ظاهرة أدبية من الظواهر التى نعاصرها ، ولا نفصل فيها بما يتفق وأهواءنا ورغباتنا الخاصة .

وفى اعتقادنا أن محاربة الشعر الحر بدون دراسة تبين زيفه او صلاحيته انما هو ضرب من الاقطاع الفكرى الذى لا يليق أن يكون بيننا فى هذه الفترة الراهنة التى أصبح المثقفون فيها يمثلون من الوطن جانبا لا يستهان به ، ولا يجوز عليهم ما كان يجوز على اسلافهم من القراء ودارسى الأدب .

وفى اعتقادنا أيضا أن الاقطاع الفكرى لا يقف عند محاربة الشعر الحر ، بل انه ليتعدى ذلك الى النقاد الذين يباركونه ويشجعون الشعراء عليه .

واذا كان هذا هو الموقف الذى اتخذه الرواد ــ الذين فقدوا سيطرتهم علي الصحف ــ ضد الشباب الذين يتجهون اتجاها أدبيا آخر يقارن اتجاه الرواد الأدبي . . اقول اذا كان الرواد قد حاربوا أصحابنا فى انتاجهم ، فان الآخرين قد قابلوا تصرف الرواد بالمثل ، وتعصبوا لأنفسهم ضد الرواد ومن يلوذ بهم ممن يحرقون لهم البخور تحت أرجلهم ، وقد اتخذ هذا التصرف عدة مظاهر منها :

السيطرة على الصحف :

وتتمثل هذه السيطرة فى أنهم وزعوا أنفسهم على الصحف فى جميع أقسامها توزيعا من شأنه أن يسد الطريق على أى طارق للصحف الا اذا كان ممن يؤمن بما يؤمنون به ، وتتفق آراؤه وآراؤهم ، ويكون سلوكه متفقا لسلوكهم بحيث يكون ايجابيا مع من يناوئون اتجاههم الأدبى فيمنع تنفيذ أى حاجة لهم فى مؤسسته أو مصلحته التى يعمل فيها .

ومن هنا ترى الصحف وقد جمدت على هؤلاء بحيث كان لا يسمح لمن يعارضون اتجاههم الأدبى أن ينشر قصيدة أو مقالة أو خبرا أو غير ذلك ، سواء أكان كبيرا أم ذيلا لكبير ، فى الوقت الذى ينشرون دائما وأبدا عن انتاجهم وعن انتاج غيرهم ممن هو على شاكلتهم . وحسبنا أن نعلم أنهم قد تناولوا دواوين شعراء منهم أو ممن يلتفون بهم ، ويؤمنون بدعوتهم بالنقد والتحليل عشرات المرات فى الصحف والندوات الخاصة والعامة بحيث أصبح تكرار الحديث عنها أمرا ملحوظا عند جميع القراء ، والذى تقوله فى هذه الدواوين يمكن أن تقوله فى انتاج الكثيرين ممن يعملون بالاذاعة من زملائهم واخوانهم الذين يجمعهم ذلك الاتجاه الأدبى معهم ، فى الوقت الذى يقاطعون فيه انتاج غيرهم ممن يناوىء اتجاهاتهم الفكرية والأدبية ، أو لا يناوئها مثل الشاعر عبده بدوى الذى انساق فىاتجاههم الأدبى وقال عدة قصائد على طريقة الشعر الحر لتكون سبيلا له أمام النشر فى الجرائد والمجلات التى أوصدت أبوابها فى وجهه وأمثاله . وبالرغم من أن قصائده فى الشعر الحر قيمة من حيث قيمتها الأدبية وغيرها ، الا أنه رجع عن هذا اللون من الشعر وندم على ما فرط منه كما تنص على ذلك مقدمة ديوانه الثانى .

وقد كان بودنا أن نعمد الى مظاهر السيطرة على الصحف التى يقوم بها هؤلاء الشباب الذين يسعون فى جد وثبات ومصابرة الى

تأكيد اتجاههم الأدبى فى نفوس القراء وأذواقهم بوساطة الصحف ، كى تتأكد ذواتهم بالتالى ، كان بودنا هذا غير أن المقام لا يسمح بتلك الاطالة ، وحسبنا منها أن تستعرض الصحف والمجلات ، وتقوم بعمل احصائية أمينة لما ينشر مثلا من الشعر الملتزم قافية واحدة ، أو المتنوع القافية فى الصحف والمجلات ، والشعر الحر ، انك ان قمت بتلك الاحصائية فأنا الضامن لك أنك ستخرج بنسبة ضئيلة لا تربى على ١٠ ٪ من عدد القصائد التى تنشر من الشعر الحر . ومع ذلك فان نشر هذه النسبة الضئيلة من الشعر الملتزم للقافية لم يكن لجودته ، وانما للتفكهة به ، وذلك اذ يعمدون الى قصيدة تكون قد قيلت فى مقام الفكاهة مثلا ، أو كانت صدى لسهرة سهرها الشاعر ، أو أكلة تناولها عند زميل ، ينشرونها ويعلقون عليها بالتعليق الساخر الذى يوحى بأن هذا اللون من الشعر قد مات واندثر ، وعفى عليه الزمن ، وبات فى دفتر التاريخ .

* * *

ان الشباب يحاول أن يكيل بالكيل الذى يكيل به الرواد ومن يحرقون لهم البخور أمام مواقدهم ، وبين هؤلاء وهؤلاء فريق من الناس ضاع بينهم ، وأصبح حاله فى الميادين الأدبية والثقافية كحال من وقع بين « شقى رحى » .

* * *

والذى قلناه فى الصحافة يمكن أن تقوله فى كل مؤسسة مقصور امر ادارتها على الشباب ، لأنهم يتصرفون بنفس العقلية التى يتصرفون بها فى الصحافة وغيرها .

ومن هنا يمكننا ان نقول انه ازاء تجمع الشيوخ على رأى واحد — على الرغم من المعارك المسعورة والحروب الطاحنة التى كانت تدور بينهم وبين بعضهم — ضد الشباب الذين يخالفونهم فى الرأى ، قد تجمع الشباب وتعصبوا ضد الشيوخ ومن يلوذ بهم ايضا ، فى الوقت الذى ترى فيه أن الذين يلوذون بالكبار بينهم تعصب آخر لأنهم شباب ، غير أنه تعصب مقصور على ميدان

الدراسات العلمية والأعمال الثقافية فى المؤسسات الثقافية .

أجل تعصب الشباب كرد فعل لتعصب الكبار لاتجاههم الأدبى ووجدوا أن كل شىء يمكن أن ينفعهم فى ابراز اتجاههم الأدبى لابد أن يقتنصوه ، وبما أن المؤسسات الثقافية يسيطر عليها الكبار ، فانهم قد سيطروا بدورهم على الصحافة ليعم الانتفـــاع بهذه الميادين المختلفة فى أوســاط الشباب المتطلعين الى الثقــافة على شىء من البساطة ــ والبساطة هنا تعنى أنهم يطلبونها من الصحف والاذاعة ولا أمل للمتعصبين من الشباب الاقطاعيين للفكر فى الشيوخ ولا فى الجيل الذى يليهم ، وحسبهم الشباب الذى يطمعون فيه كل الطمع ويتملقونه كل التملق ، لأنهم رواده وكبار أدبائه .

* * *

على أن التعصب للمذهب الأدبى الذى يمثل لونا بشـــعا من الاقطاع الفكرى عندنا ســـواء اذا كا نحدوثه من الشيوخ أو من الشباب لم يكن مقصورا على هؤلاء وهؤلاء فقط ، وانما هناك نوع آخر من المثقفين يحدث بينهم هذا التعصب بصورة عجيبة ، وذلك النوع انما هو اساتذة الجامعات الذين يختلفون حول وظيفة الأدب فى الحياة ، وهل يتجه نحو مذهب الفن للفن ، أم يكون الأدب للحياة ودراســـة قضاياها وتطويرها نحو ما هو أفضل وأكثر اســعادا للملايين . ونكاد نعتقد أن الفريق القائل بالفن للفن فى وظيفة الأدب انما هو الى أدبائنا الكبار أقرب فى الاتجاه الأدبى منه الى المعاصرين الذين يتجهون بالأدب الى دراسة قضايا الانسانية وتطوير الحيـــاة على نحو ما هو أفضل .

وقد أشرنا قبل ذلك الى أن الكبار انما يطالبون بحقوق الطبقة الوسطى التى تكاد تكون قد انزوت الى حـــد ما ، أما الآخرون من الشباب الذين يتفق معهم الفريق الثانى من اساتذة الجامعات انما يطالبون بحقوق الطبقة الدنيـــا ، ويصورون فى قصصهم اخطــار الطبقتين الأرستقراطية والمتوسطة اللتين تهددان المجتمع بالفناء .

ولعلنا لا نغفل نوعا من الاقطـــاع الفكرى قـــد أشرنا اليه قبل

ذلك اشارة عارضة ، وهو يكمن فى التعصب لأحد الكبار ، وبعبارة اخرى ذلك التعصب الذى يحدث بين تلاميذ هذا ، وتلاميذ ذاك . فبينما تجد أحد أفراد هاتين المدرستين يتناول فى دراسته الشخصيتين اذ تجده يرجع بالفضل كل الفضل فى تطوير الشعر والنثر فى وجميع الأجناس الأدبية الأخرى الى كبيره هو الذى يقف عنده كما حدث فى دراسات أحد أساتذة الجامعة الذى كان عميدا لاحدى كليات الآداب ، ودراساته تجعل كل شىء فى التجديد لكبيره ، وتبخل على غيره بالتقدير الذى يستحقه .

هذا ولعل هذا الأستاذ هو أعقل الدارسين الذين تتلمذوا على ذلك الكبير ، لأن فى دراساتهم غلوا وتحاملا على أنداد كبيرهم وأترابه فى الميدان الأدبى ، وكما حدث فى عامى ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ .. بين مدرسة العقاد والرافعى ، تلك المعركة التى نشبت بين الطرفين عقب وفاة مصطفى صادق الرافعى ، والتى امتد لهيبها حتى عام ١٩٤٠ .

وقد تعجب لمثل هذا التصرف من هؤلاء ؛ غير أنك اذا علمت أن الاقطاع الفكرى يكمن وراء أمثال هذه التصرفات لزال عجبك ، وهدأ روعك ؛ لأن الاقطاع الفكرى مثلا لا ينظر الى الأكفاء ، يتيح للأدباء والمفكرين الأخذ بمبدأ تكافؤ الفرص ، قدر ما يأخذ بمبدأ الخطف والانتهاز ، وسلب الحقوق وادعائها للآخرين .

على أن هناك نوعا من الاقطاع الفكرى يكمن فى التعصب الى نوع الثقافة التى حصل عليها الانسان ، ومن المسلم به أن ثقافتنا قد رفدتها تيارات وافدة من الغرب ومن الشرق ، فمنها السكسونى واللاتينى ومنها ما لا ينتمى الى هذين ، ولكل تيار من هذه التيارات أناس مخلصون له فى بلادنا ، لأنهم درسوا آدابه وفنونه ومذاهبه الفكرية . غير أن اخلاصهم له يتميز بطابع غريب ، بحيث يمكننا أن نقول ان هذا الاخلاص يصل الى حد الولاء الذى لا يكاد يحد .. حتى أنك لتجد الواحد منهم يكاد يفنى فناء أبديا فى الرافد الثقافى

الجديد ، الذي نهل منه بحيثه ينسى معه المثقفون أصولهم ويفنون معه ويتعصبون له .

فاذا كان المثقف ممن أخذ زاده من الثقافة الفرنسية مثلا ، ولننزل فى هذا التمثيل الى ميدان أضيق من ذلك التقسيم الثنائى بين لاتينى وسكسونى . نقول اذا أخذ المثقف زاده من الثقافة الفرنسية فانه ليفنى فيها فناء تاما بحيث لا يكاد يحترم فى الدنيا سوى الثقافة الفرنسية ، والأمر كذلك عند من تزود من الثقافة الانجليزية ، وهكذا فكل مثقف عندنا يتعصب للبلد الذى درس فيه ولثقافته ، ويعدون بعضهم أشقاء اذا كان معه فى العمل من تزود بمثل ثقافته من البلد الذى أخذ منه ، ولعل هذا التعصب للثقافة شقيق للتعصب للمذاهب الأدبية والفكرية التى تحدثنا عنها آنفا .

وفى تصورنا أن هذا اللون أكثر ظهورا بين أساتذة الجامعة الذين يذهبون فى تعصبهم للروافد الثقافية الى حد بعيد ، الأمر الذى له أثره البعيد فى الاقطاع الفكرى ، لأن كلا منهم يقطع السبيل الى اظهار القيم الأدبية والثقافية عند الآخرين ما داموا يختلفون معه فى الرافد الثقافى . بيد أنه من العجب العاجب كما يقولون أن تجد هؤلاء وهؤلاء يتفقون فى تعصب جديد تحت عنوان الثقافة الافرنجية ضد من تثقفوا فى بلدنا هذه وبعبارة أخرى ضد من أكملوا تعليمهم العالى فى الدرجات الجامعية التى هى بعد درجة ليسانس فى الجامعات المصرية ، ويتعللون فى اهدار قيم الدارسين فى الجامعات المصرية بأن دراساتهم غير منهجية من ناحية ، وأن المشرفين عليهم أقل من أساتذتهم الأجانب الذين اشرفوا عليهم هناك .

واذا ساغ هذا فى الدراسات التجريبية كالهندسة والطب وغيرهما ، فانه لا يجوز فى الدراسات الانسانية ، والدراسات الادبية العربية بالذات ، لكن الاقطاع الفكرى يريد أن يركز دائما على دعاوى مهما يكن كذبها الصراح ظاهرا واضحا . ومن هنا فانه ليخبط فى

دعاواه وتعلاته خبط عشراء ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحد . ودنك الجامعات والمؤسسات الثقافية فى العهد الماضى ، وسل فيها عن الأمثلة الدالة على ذلك ، وانا الضامن لك انك ستجد عشرات وعشرات ومئات وآلاف ..

واقول ان تنوع الروافد الثقافية أمر محبوب ، وهو فوق ذلك من أعظم مصادر الثراء الثقافى لأمة من الأمم ، ومن أقوى البواعث والحوافز على نضجها . وتطورها ومتابعتها للحياة ، ولعل بلاد العالم الناهضة آخذة بهذا السبيل حيث تمتزج فيها الثقافة وتتفاعل ، ويفيد بعضها من بعض .

ويغلب على اعتقادنا أن نتاج العقل البشرى فى أى بلد من بلدان العالم فى ميدان الفنون والآداب والفكر ، وكذلك فى ميدان الدراسات التجريبية العلمية البحتة .. يغلب على اعتقادنا أن هذا النتاج لا يمكن لأمة من الأمم أن تزعم ملكيته والتعصب له والاقتصار عليه ، لأن العلم والأدب والفن والفكر لا موطن له ، فكل بلاد العالم له موطن، وكل انسان فى العالم أيضا له معتقد ، شريطة الا يكون ضيق الأفق ، محدود النظر ، مغلق الفهم ، أداة الاستقبال عنده مهياة للتلقى ، وأداة الابتكار لديه متحفزة متوفزة للاختراع دائما . غير ان هذا للأسف يحدث فى بلاد العالم مع المثقفين بتواضع ، ولم يحدث بيننا نحن فى عهدنا الماضى ، لأن كل واحد منهم فى واد يهيم .

على أننا نرى أن هذا التناحر والتعصب الذى بين الشيوخ والشباب فى المذاهب الأدبية ليس فى صالح الوطن ، ولا فى صالح المواطنين ..

وكم كان بودنا أن نعرض لنقط التلاقى بين الاتجاهين بالتحليل ، غير أن المقام يوحى الينا بالعدول عما نوده خشية الاطالة والخروج بنا عن المنهج الذى ارتضيناه ، وبجانب ذلك فان هذا التلاقى يمكن أن نقوم به فى بحث مستقل يهدف الى اتجاه موحد يكون من نتيجته

خلق مذهب أدبى وفكرى وفلسفى باللغة العربية ، وهذا هو ما أشار اليه الميثاق فيما يختص بالثقافة .

والذى نريده الآن أن تعمل الدولة على تحقيق الاشتراكية فى الفكر بين دعاة المذاهب الأدبية ، الذين لا يفتـأون يشتجرون مع بعضهما البعض من جراء أفكارهم وآرائهم ، اذ لا تلبث المعارك أن تخمد ، حتى تنشب بينهم معارك أخرى .

والذى سيترتب على تحقيق تلك الاشـتراكية فى الفكر نيل العاملين فى الميادين الثقافية الأصلاء التقدير الملائم لأعمالهم الجدية ممن بيدهم الأمـر ، أولئـك الذين يتصرفون فى مقـدرات الدولة الثقافية .

ومعنى هذا أننا نكون قد تخلصنا تماما من تصرف المسئولين عن المؤسسات الثقافية ومعنى هذا أيضا أننـا قد تخلصـنا من تلك المذاهب الدخيلة سواء ما كان منها فى الأدب ، أو فى التفكير ، أو فى السياسة ، أو فى الثقافة ، أو فى النظرة الى الحيـاة ، وحل محل هذه كلها الاشتراكية فى الفكر كيف تكون ، وكيف تسود بين هـذه المذاهب مجتمعة ومنفردة ، ونكون كذلك قد تغلبنا على تلك العصبية المذهبية التى كانت تكمن فى الأخذ بحرفية هذه المذاهب من جهـة هؤلاء وهـؤلاء ، الذين كانوا يريدون عـلوا فى الأرض ، وأن يكونوا شيئا مذكورا .

وفى اعتقادنا أن تحقيق الاشتراكية فى الفكر بين الشيوخ الذين نشأوا نشأة كلاسيكية فى الظاهر ، ورومانتيكية فى الأغلب الأعم ، وبين الشباب الذين يختلفون معهم فى الرأى ، وينظرون الى الأدب نظرة تغاير نظرتهم اليـه . نقول أن تحقيق الاشـتراكية بين هؤلاء وهؤلاء يتيح الفرصة لكل منهم أن يقدم نتاجـه الأدبى أو الفـكرى بغض النظر عن كونه من الشيوخ أو الشباب ، ويكون المعول فى هذا وذاك أن يكون نتاجه موائما لمذهبنا الأدبى النابع من حقيقتنا ومن

نفوسنا ، ذلك المذهب الذى يتفق ونظرتنا الى الحياة وقضايانا الانسانية فى هذا الوجود .

فالاشتراكية فى الفكر لا تبيح الآن محاربة ظاهرة أدبية من الظواهر التى تنبثق من واقعنا مثلا ، وانما تتجه اليها بالدراسة الموضوعية لتبين مدى أصالتها وعمقها أو ضحالتها ، ولتبين كذلك مدى زيفها وزيغها أو صحيحها وقويمها ، ومدى كذبها أو صدقها . وذلك بغض النظر عن دعاتها والمشايعين لها .

والذى سيترتب على هذا أيضا أنه لا يوجد فى واقعنا الأدبى مجال لمحاربة الشعر الحر من حيث هو، وانما يأتى قبوله أو رفضه بعد الدراسات الموضوعية المنهجية التى يتناوله بها كل من دعاته وخصومه .

كما انه لا يوجد بعد هذا فى واقعنا الأدبى أو الفكرى مجال لمحاربة ناقد فى انتاجه لأمر فى ذات نفوسنا ، وانما نتفق معه أو نختلف معه بعد الدراسة الموضوعية لانتاجه ومبادئه النقدية ، ومعالجته لقضايا النقد والفكر .

فالفرصة متاحة لكل انسان له أصالته فى ميدان الثقافة والأدب وذلك على أن يكون انتاجه يتفق ونظرة هذا الوطن للحياة ولقضايا السياسة والفكر والأدب . وعلى أن يكون كفئا كذلك .

ومن ناحية أخرى فلابد أن تقضى الاشتراكية فى الفكر على سيطرة أناس بأعيانهم على الصحافة ، بمعنى أن يختفى ما يصنعه المثقفون من توزيع أنفسهم على الصحف وفى جميع أقسامها التى تملك التوجيه القيادى والفكرى توزيعا من شأنه أن يسد الطريق على أى طارق لتلك الصحف الا اذا كان يؤمن بما يؤمنون به ، وتتفق آراؤه مع آرائهم ، ويكون سلوكه متفقا مع سلوكهم ، بحيث يكون ايجابيا مع من يناوئون اتجاههم الأدبى فيمنع تنفيذ أى حاجة لهم فى مصلحته التى يعمل بها .

ومعنى هذا أن الصحف لا تصبح مقصورة على دعاة المذاهب الأدبية ، بحيث لا يسمح لمن يعارضون اتجاههم أن ينشر قصيدة او مقالة او خبرا أو غير ذلك ، سواء أكان كبيرا أم ذيلا لكبير . فى الوقت الذى ينشر فيه دعاة هذه المذاهب دائما وأبدا عن نتاجهم وعن نتاج غيرهم ممن هو على شاكلتهم ، وذلك لتأكيد اتجاههم الأدبى فى نفوس القراء وأذواقهم بغية تأكيد ذواتهم من وراء ذلك النشر .

اجل ، لا تقصر الصحف وغيرها على دعاة هذه المذاهب الأدبية ، وانما تقضى على سيطرتهم واحتكارهم للنشر والاذاعة ، بحيث يصبح القارىء ، يرى ويسمع أصواتا تؤيد شيئا ما ، وأخرى تعارضه ، وثالثة تقف منه موقف الحياد المطلق .

وعلى الاشتراكية الفكرية أن توقف تلك الحملات والمعارك المسعورة ، والحروب الطاحنة التى كانت تدور بين دعاة هذه المذاهب ، أو بين أنصار هذا الكبير أو ذاك ، أو بين أساتذة الجامعة الذين يشتجرون فى معارك تنزل من المذهب الأدبى والاتجاه الفنى الى نوع من السباب ، وتنحرف أيضا تجاه الجانب الشخصى للمشتجرين .

على أن القضاء على هذه الحملات ، وتلك المعارك ، وهاته الحروب ، يقوم أول ما يقوم عليه اتاحة الفرصة للجميع لا لأشخاص بأعيانهم ، وتحكيم مبدأى تكافؤ الفرص ، والبقاء للأصلح .

ومن هنا تسعد الاشتراكية الفكرية بأبناء من هذا الشعب عباقرة أصلا فى الفن والفكر والثقافة .

الفصل الرابع

آثار الإقطـــاع الفكرى

« ان ممارســة الحرية تخلق القيـادات المتجددة للعمل الثورى وتوسع هذه القيادات وتدفعها دائما الى الأمام » .

الميثــاق

اولا ــ العصبيات المعهدية :

تحدثنا فى الفصول السابقة عن مظاهر الاقطاع الفكرى ، ورأينا كيف نمت وترعرعت فى أحضان التعليم بمختلف مراحله فى مدارسنا وجامعاتنا ، وكيف كانت تمور هـذه المظـاهر بأنواع من الصراعات تأسست عليها فى شتى مجالاتهـا فى التفـكير العربى بصفة عامة ، والمصرى بصفة خاصة . وقد بدت هذه الصراعات فى صور عديدة اوردناها سابقا . .

ونتحدث فى هذا الفصل عن آثار الاقطاع الفكرى فنتناول أول ما نتناول العصبية المعهدية ، والفردية أو انعدام روح الفريق بين النقاد والمفكرين ، والمصادرات الفكرية ، وخدم الفنادق فى الفكر والأدب . واخيرا نتحدث عن موقف الشباب فى مجالى الأدب والفكر ازاء الاقطاع الفكرى بمظاهره وصراعاته ، وعن الوسـائل التى نزعم انها تستطيع القضاء على الاقطاع الفكرى حتى يتسنى أن يكون لنا فى النهاية اتجاه موحد يشير الى مذهبنا المرتجى فى الأدب والنقـد ليساوق مذهبنا فى السياسة والاقتصاد والاجتماع .

على أن العصبيات المعهدية ــ التى تقوم بها الطوائف المتعلمة فى بلادنا وتعانى منها جميع الميادين الثقافية والأدبية ، والتى تقوم بها القيادات الفكرية فى وطننا أشد المعاناة ــ عقبة كأداء من أكبر العقبات واخطرها على طريق الاشتراكيـة ، ورذيلة من رذائل الماضى الذى يعيش بيننا ليمزق وحدة بلدنا ويفتت كيانه .

ومن العجيب حقا أن يظهر هذا النوع من السـلوك بيننـا فى الوقت الذى يجب على الدولة أن تجعل التعاون سـياجا يحيط بقضاياها ويدعمهـا ، فى هذا الوقت بالذات نرى هذا النوع من العصبيات البغيضة التى تستشرى فى حياتنا وتشتد سيطرتها يوما وراء يوم ، وذلك بلا شك أقوى محطم للرابطة الوجدانية بين طوائف

الأمة » الأمر الذى يبعدهم كثيرا عن الخلق الاشتراكى ، اذا صح فى رأينا أن الاشتراكية سلوك وفكر .

وفى اعتقادنا أن العصبيات المعهدية ثمرة من الثمرات اليانعة التى بذرها الاستعمار فى نفوس المصريين حيث استطاع الوصول الى نواحى الضعف فى نفوسهم فنماها وحاول استغلالها ليظلوا على غيرها ، وفى الغالب تكون تلك الطائفة متمثلة فى الذين تثقفوا بثقافته أو بثقافة أوربية على الأقل ، أو بثقافة عربية مع اجادة لغة المستعمرين ، وهذه الطوائف لها الحق ـ على حسب تقدير المستعمر لاخلاصها له ـ كل الحق فى كل ما يتعلق بالثقافة ، على حين انصرف غيرها من الطوائف الى مهنة التدريس ولم يتركهم المستعمر أو أذنابه يعيشون فى هدوء ، ولكنه بذر فى نفوسهم الخلاف ، وأخذت رحى الصراع تدور بينهم الى آخر ما نراه فى وزارة التربية ..

واذن فالطائفة الأولى لها كل الحق فى كل ما يتعلق بالثقافة باذن من المستعمر وتحت سمعه وبصره ، تماما كما يصنع ذلك مع البيض فى افريقيا الجنوبية الغربية ، حيث منحهم وحدهم حق الانتخاب وممارسته ، وهم أصحاب الرأى ، ويقومون وحدهم بتنفيذ السياسة المرسومة ، ويسيطر أبناء جنوب افريقيا على الوظائف الحكومية ومعظمهم من المستوطنين البيض الذين يحتكرون الوظائف العليا ، على حين يشغل الافريقيون أدنى درجات الوظائف الحكومية، فمنهم رجال الشرطة وليس لهم حق التعامل مع البيض والكتبة فى وزارة شئون « البانتو » وحراس السجون والمعلمون اللا افريقيون .. حقيقة لقد نجح الاستعمار فى اثارة العصبية المعهدية نجاحا باهرا ، بحيث أصبح المتعلمون لا ينظرون الى الحقائق مجردة ولكنهم ينظرون اليها من خلال المعهد الذى تخرج فيه قائل الحقيقة ..

وهذا أمر يدعو الى العجب !!

لكننا لا نعجب حينما نعلم أن « دانلوب » لم يؤت به مستشارا لوزارة التعليم فى مصر جزافا ، بل كانت مهمته سياسية أكثر منها تعليمية ، ونجح فى تحقيق أهداف السياسة الاستعمارية فى المجال التعليمى الذى ينطلق منه المتعلمون الى واقع الحياة ينفثون بعض ما تعلموه من أساتذتهم الذين يسيرون على أهداف « دانلوب » ..

وخلاصة ما يقال فى تلك الأهداف انها تقوم على مبدأ التفرقة بين صفوف الشعب بصفة عامة ، وبين صفوف المثقفين بصفة خاصة ، وذلك حتى يتمكن المحتلون من البقاء فى الوطن ..

والذى لاشك فيه كذلك أننا كنا نعانى من سياسة هذا الرجل فى المجال التعليمى وجميع المجالات الثقافية التى انبثقت من وزارة التعليم ..

ولا أغالى اذا قلت اننا لا زلنا نعانى من آثار سياسة هذا الرجل التى كانت تهدف أول ما تهدف الى عزل اللغة العربية والثقافة القومية عامة واهمالهما واحتقارهما ، والقوامين عليهما من عمداء ومفتشين ومدرسين ، فى الوقت الذى يعمل بكل جهده لاعلاء شأن الثقافة الأجنبية بصفة عامة والانجليزية بصفة خاصة .

ولسنا بحاجة الى أن نؤكد فى هذا المقام ما كان يهدف اليه هذا الرجل الخبيث من راء هذه السياسة التعليمية العجراء ، ولعلنا لا نجانب الصواب اذا قلنا انه يريد أن يحول بين المصريين وبين اظهار قوميتهم ، أو حتى الايمان بها ، ومحاولة الحاقهم بالتبعية البريطانية .

على أن تنفيذ هذا الهدف يقتضى من القائم به سياسة وكياسة ودربه على مواجهة الأزمات ، لأن التصريح بهذا الهدف غير مقبول فضلا عن انه مثير . ومن هنا فان « دانلوب » قد اتجه لتنفيذه بهذا الطريق الشائك الخطير . ومن هنا أيضا شهدت اللغة العربية باعتبارها اللغة القومية ، واللغة التى كتب بها التراث الثقافى للعرب

هذه الاعتبارات مجتمعة الكثير من ألوان الاضطهاد الذى لا يمكن أن في الماضى ، كما أنها لغة الثقافة فى الحاضر شهدت اللغة التى لها يتصوره أبناء هذا الجيل ، وحيل بينها وبين كل ما يربطها بالحياة وبالناس . وطبيعى حينما يقوم « دانلوب » بتنفيذ هذه السياسة بالنسبة للغة العربية ، فانه لا ينسى أن يعمل على تنفيذ سياسة الحط من الناس الذين يقومون بتعليمها ودراستها والتخصص فيها، وأن يظهرهم لباقى المتعلمين كأنهم يقومون بتدريس لغة ميتة وغير حية على حد تعبيرهم .

يحدث هذا للغة العربية فى الوقت الذى يعمل على اتاحة الفرصة للغة الغازية وهى اللغة الانجليزية لتصبح اللغة الرسمية فى الدواوين والشركات ولغة التعليم فى المدارس ولغة التخاطب بين الطبقة الحاكمة .

وأكاد أقول ان الرجل قد أدى دوره بمهارة وكياسة . وخدم وطنه فى أن وطد للاستعمار الثقافى ، وذلك بتهيئة أذهان المتعلمين لقبول الانجليز فى بلادهم وأنهم يعملون على اسعاد الوطن ، وذلك بضرب المتعلمين بعضهم بعضا فى أغلب الأحايين ، وذلك بالايحاء لهم بأن يتعصب كل لمعهده الذى تخرج فيه .

وحينما نقول « بالتعصب المعهدى » فانما نقصد به التعصب لنوع الثقافة التى يقوم عليها هذا المعهد وذاك . ونحن نرى أن التعصب للثقافة ليس فيه ما يؤذى الا حينما يكون معناه احتقار ثقافات الآخرين ، وحينئذ يكون هذا التعصب خطرا داهما حاطما يهدد الوطن بشر مستطير لا قبل لنا به لأننا أحوج ما نكون الى أن نصرف الوقت الذى ننفقه فى علاج أمثال هذه المشكلات الناشئة من تأصل الدعايات الاستعمارية فى أذهان القائمين بهذا اللون العجيب من التعصب . اننا فى حاجة الى هذا الوقت للبناء فى هذه الأمة بدلا من انفاقه فى الترميم لأساس واه .

وهذا التعصب يبدو في صورة النقاش الذى يصل الى حد الإسفاف حول أفضلية وأحسنية اى المعاهد على المعهد الآخر ، وذلك يستلزم بطبيعة الحال أن يحط كل منهم من قيمة زميله المصرى الذى يشترك معه فى هذا الوطن المفدى ، وقد يصل فى بعض الأحيان الى الاشتباك بالأيدى .

وفى اعتقادى أن المشاجرات التي تدور بين طلاب الجامعة انما تقوم على أساس الاختلاف المعهدى . . بين كلية الطب البشرى وكلية الطب البيطرى وزجر من يحاول أن يسمى نفسه دكتورا من طلبة الكلية الأخيرة أمام طالب من كلية الطب البشرى . . أو بين الحقوق والآداب . . أو بين الكليات النظرية والكليات العملية بصفة عامة . ولا أغلو اذا قلت ان التعصب المعهدى يصل فى بعض الأحيان الى حد أن يحدث بين تجارة عين شمس وتجارة القاهرة ، والتخصص فى كل منهما ، وآداب القاهرة وآداب عين شمس والاسكندرية ودار العلوم ، وكل واحد يحاول أن يحط من الآخرين . فى الوقت الذى نجد الجميع يتخصصون فى بعض الأحيان فى مادة واحدة .

* * *

ويظهر هذا التعصب بطريقة أشد عنفا اذا انتقلنا مع هؤلاء الطلاب فى المؤسسات والوزارات التى يعملون فيها . فالذى يحدث فى الشركات أن هذا التعصب يظهر حينما يكون هناك موظفان كبيران تخرج كل منهما فى كلية فأيهما يرأس الآخر ، خريج الحقوق ام التجارة . وهكذا يحدث التعصب فى الشركات على نحو أكبر من حدوثه بين طلبة الكليات . على أنه يحدث فى وزارة التربية بصورة أشد بشاعة ، وله جذور عميقة فى هذه الوزارة . ولو أنك ذهبت الى أى مدرسة ، وجلست فيها تستمع لرأى المدرسين بعضهم

البعض وبتعبير آخر مدرسى كل مادة فى مدرسى المادة الأخرى ، ولا نغالى ولا نبالغ اذا قلنا انك لو استمعت لمدرسى المادة الواحدة فى بعضهم البعض مثلا لو استمعت لمدرسى اللغة العربية فى بعضهم البعض ، لوجدت عجبا . لوجدت أن المدرس الذى تخرج فى كلية دار العلوم يحط من قيمة الذى تخرج فى كل من كليات الآداب أو الأزهر ، ووجدت أن المدرس الذى تخرج فى الأزهر لا يعترف بأى فضل لكل من المدرس الذى تخرج فى دار العلوم أو كلية الآداب .

على أن المدرس الذى تخرج فى كلية الآداب وكلية التربية ، هذا المدرس يحط من قيمة كل من المدرس الذى تخرج فى المعهد الخاص بعد الشهادة المتوسطة ، والذى تخرج فى المعلمين الثانوية القديمة ، وهذان يحطان من قيمته لأن المسألة مسألة تجربة قبل أن تكون فى كثرة سنى التعليم . أما المدرس الذى تخرج فى مدرسة المعلمين العليا فيرى أن هؤلاء جميعا أدعياء وأنهم دخلاء على ميدانه اذ هو وزملاؤه الذين بنيت وزارة التربية على أكتافهم ومنهم وكلاء الوزارة والوزراء دائما وهكذا . وقل مثل هذا فى كل مادة على حدة ، وذلك هو الذى يحدث فى تلك الوزارة .

وفى تصورنا أن هذا التعصب بهذه الصورة له خطره على الأبناء الذين أودعتهم الدولة أمانة فى أعناق هؤلاء المدرسين الذين يحاول كل منهم أن يحط من قيمة المعارف التى لقنها اياهم زميله مدرس المادة الأخرى وهكذا حتى يصل الطالب فى النهاية الى صراع نفسى من تضارب التوجيهات التى توجه اليه ، وهى لا شك متناقضة كل التناقض . وتربى فيه هذه العادة الذميمة ، فاذا هو الآخر يتعصب لمدرسة الفسطاط ضد مدرسة الابراهيمية ، ولمدرسة دمنهور ضد مدرسة طنطا ولأبناء حيه ضد أبناء الأحياء الأخرى .

والذى لا شك فيه أن التعصب للمعهد حينما يصل الى أساتذة الجامعة فان المسألة تغدو خطيرة بمقدار ما بذل هؤلاء من السنين فى طلب العلم والثقافة وتهذيب الطباع . غير أننا للأسف نجد أن الجامعة لم تبرأ منه ، وانه يحدث بين اساتذة الجامعة تماما كما يحدث بين كلية الطب وكلية الطب البيطرى ، وبين تلاميذ الفسطاط وتلاميذ الابراهيمية .

فهذا الدكتور يتعصب لجامعات فرنسا على جامعات انجلترا وغيرها من باقى الجامعات الاخرى فى العالم ، وذلك يقول بعكس قول الدكتور السابق ، وليصدقنى القارىء اذا قلت له ان تعصب الدكاترة يصل فى بعض الأحيان لجامعة فى فرنسا على جامعة أخرى فى فرنسا أيضا ، والدكتور الذى درس على أستاذ معين يتعصب له ، ضد من درس على أستاذ غير هذا الأستاذ ، وهناك من الأساتذة الجامعيين — قادة الفكر كما يقولون — من يتعصب للدارسين فى الجامعات الأوربية ضد الدارسين فى الجامعات المصرية، ويرى أن الدراسة فى أوربا مثلا اكمل وأتم من الدراسة فى الجامعات المصرية وأن الذى درس فى الجامعات المصرية لم يعرف الا شيئا يسيرا بالنسبة الى الذى عرفه الدارس فى أوربا مثلا . ولم يقف الدارسون فى مصر مكتوفى الأيدى ازاء ما يصنعه هؤلاء فانهم يرمونهم بأنهم قد مكثوا فى البلاد التى ذهبوا اليها مدة فقط ، وأن الدكتوراه التى حصلوا عليها « لعب فى لعب » وكثير منهم من حصل عليها ولا يكاد يعرف شيئا . . واذا كلفته بدراسة شاعر فى العصر الذى تخصص فيه مثلا يرفض بحجة أنه تخصص فى شاعر غيره كأنه قد تخصص فى أمراض النساء والولادة وطلب منه معالجة أمراض العيون .

* * *

وقد يكون التعصب المعهدى أخف وطأة لو ظل فرديا ، ولم يكن له آثار تقضى بتمزيق وحدة الصفوف فى الأمة . قد يكون كذلك لو

لم يتغال هؤلاء المتعصبون فيعملوا على تجمع الخريجين من المعهد الواحد فى اتحاد يضمهم على الرغم من أن هناك نقابة عامة تضـم الجميع .

ونعتقد أن من الحسنات التى لا تنكر ، العمل على تكوين نقابات للمهن المختلفة ، وهذه النقابات بلا شك تقوم بدور فعال فى خدمة أعضائها . ومن هنا فان المنطق يوحى الينا بأن أعضاء هذه النقابات قد انضموا تحت لوائها . غير ان الذى يحـدث بالفعـل ان كل الخريجين فى معهد ينضمون الى بعض ويكونون ما يسمى بالاتحـاد لخريجى كلية كذا أو كذا . الأمر الذى يحول الى حد ما من ترددهم على نقابتهم ، وأمامنا المثل الحى لذلك التجمع بعيـدا عن النقابة العامة ويمكن أن نأخذه من نقابة المهن التعليمية التى تضم كل من يقوم بالعملية التعليمية فى وطننا فى المراحل المختلفة أو المرحلة العالية التى كانت تتبع الوزارة ، ومع ذلك فانك لتسمع باتحاد خريجى الأزهر الذين يعملون فى وزارة التربية والتعليم ، واتحاد جماعة دار العلوم ، والفنون التطبيقية والمعلمين العليا واتحاد التعليم الابتدائى الى آخر الاتحادات التى يبلغ عددها عدد المعاهد التى تمد وزارة التربية بالمعلمين .

ونحن نتساءل ما معنى قيام هذه الاتحادات بجوار النقابة ، ولم لم تضم الجهود التى كانت تبذل فى تكوين تلك الاتحادات والامور المالية الى النقابة العامة الأم بالجزيرة .

أجل ، اننا لفى حيرة من أمر هؤلاء الذين يعملون على مبـاشرة التعصب بلون بغيض ، واننا لفى حيرة من أمرنا كذلك حينما نرى منهم هذا التعصب هو الذى جعلهم يتجمعون على شكل اتحادات وجماعات ، ومع ذلك فانهم لمخلصون للأم الرءوم بالجزيرة ؟ .

قد يكون هذا أو ذاك ، لكننا لا نريد لهذا وذاك أن يكون ما دامت الأم الرءوم بالجزيرة تستطيع أن تخدم أبناءها : ومن هنا يصح أن

قول ان أبغض الاتحادات الى الله اتحادات تقوم بجانب النقابة لعامة التى تضمها جميعا فى اطارها ، وهى تمثل الأم لجميع هذه لاتحادات .

غير اننا فى هذا المقام يمكننا أن نقول ان أكثر القوامين على هذه النقابة من اعضائها قد باشروا مسئولياتها فى العهد الماضى أيضا ، يوم أن كان الواحد منهم يأتى اليها بناء على حزبيته لا على كفاءته واخلاصه ، وهؤلاء القوامون أنفسهم نشك كل الشك فى فهمهم للاشتراكية ، وللسلوك الذى ينبغى عليهم أن يسلكوه بمقتضى تلك الاشتراكية . ومن هنا لا نستطيع أن نجزم باخلاصهم لقضايا المعلمين والتعليم قدر ما هم مخلصون لأنفسهم ولمصالحهم الذاتية .

ويحق لنا أن نتساءل ، هل نضب معين النقابة فلا تستطيع أن تخرج من بين صفوفها شخصيات أخرى قيادية ، تعمل على رفعة التعليم فى بلادنا ، بحيث تحول بين أعيننا وبين رؤية هؤلاء القوامين الذين رأيناهم بأعيننا يجرون وراء وزراء وزارة التربية فى العهد الماضى .. هؤلاء القوامون الذين اتخذوا من عضوية النقابة وظيفة واحترافا .

والذى قلناه فى نقابة المهن التعليمية يمكنك أن تقوله فى أى نقابة أخرى ينشأ بجانبها ما يسمى بالنوادى أحيانا ، وبالجماعات أحيانا أخرى ، كأن اجتماع أبناء الأمة على اختلاف معاهدهم ضرب من المحال ، ومن هنا يمكننا ان نقول ونحن مطمئنون الى قولنا هذا : ان هذا التصرف أثر من آثار الاستعمار بصفة عامة ، ومن آثار « دانلوب » الاستعمارى الذى كان مستشارا للتعليم فى بلادنا بصفة خاصة .

ونحن نتساءل ، أليس من الممكن أن تقضى الدولة على العضبيات المعهدية تلك العصبيات التى تعانى منها جميع الميادين الثقافية والأدبية والتعليمية التى تقوم بالقيادات الفكرية فى وطننا ،

اذ ما يقوم به البعض من المشاريع الثقافية مثلا يهدمه البعض الآخر بدعوى عدم صـلاحيته ، وان كان السبب الحقيقى هو التعصب المعهدى .

ولعل هذه المعاناة التى تصادفها تلك الميادين هى التى دفعت الدولة الى الايمان بأن الاشتراكية فى الفكر أمر محتوم بين خريجى جميع المعاهد المتناظرة ، وأن الدولة يجب أن تضرب بيد من حديد لا ترحم كل من يظهر بذلك المظهر ، أو يدعو اليه ولو فى الخفاء ، لانه لا يجوز بحال من الأحوال أن يظهر ذلك اللون فى الوقت الذى تتجه فيه الدولة بجميع امكانياتها وطاقاتها الى جعل التعاون هو السياج الذى يحيط بالاشتراكية ـ بصفة عامة ـ ويدعمها . وذلك بلا شك اقوى محطم للرابطة الوجدانية بين طوائف الأمة ، الأمر الذى يبعدهم كثيرا عن الخلق الاشتراكى ، اذ صح فى اعتقادنا أن الاشتراكية سلوك وأخلاق وفكر .

واذا صح أن بواعث ذلك التعصب المعهدى قد كانت نتيجـة لوجود الاستعمار فى بلدنا واشاعته الفرقة بيننا ، فانه لا يصح الآن أن يوجد بيننا ، وقد استقلت بلدنا ، وضربت بسهم وافر فى فهم الحرية وتذوقها ، الأمر الذى جعلها تخطو بخطوات سريعة نحو مستقبل أفضل ، وأحرزت تقدما لم تحظ به الدول الكبرى الا فى عشرات من السنين .

***

وفى تصورنا أن التخلص من مثل هذا التعصب المعهدى يقوم على أول أساس من أسس الاشـتراكية ، وهو اتاحة الفرصـة للجميع وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص فى خدمة هذا الوطن المفـدى بغض النظر عن المعهد الذى تخرج فيه الشخص المنوط به عمـلا رسميا ، أو المرشح لعمل رسمى .

فلا الثقافة اللاتينية أفضل من السكسونية ، ولا صاحب هذه أفضل من صاحب تلك ، ولا هاتان الثقافتان أفضل من الثقـافة

العربية ، لأن الدولة بحاجة الى الثقافات مجتمعة ومنفردة ، وبحاجة أيضا الى المثقفين بأى لون من الثقافة ، وذلك لخدمة وطننا ، وبلورة اتجاه لنا يحمل طابعنا ، ولا يتسم بسمة شرقية ولا غربية ، بل يتسم بسماتنا نحن من حيث خصائصنا وفلسفاتنا .

وبعد ذلك ، أو قبل ذلك يكون اتجاهنا انسانيا فى مجموعه ، وان كانت خصائصنا وسماتنا تنفى عنه أن ينسب لبلد غير بلدنا نحن ، ولأناس غيرنا نحن .

واذا كان الأمر كذلك فليعلم أساتذة الجامعات ومن يلفون لفهم المدلون بجامعاتهم الأوربية التى تخرجوا فيها ، ليعلموا انهم ليسوا على حق حينما يتعصبون لبلد أجنبى على بلد آخر ، ولجامعة أجنبية على جامعة أخرى ، ولكل ما هو أوربى على كل ما هو عربى .. ليعلم هؤلاء أن الاشتراكية فى الفكر تنفى هذا وتشمئز منه وتضع الجميع على قدم المساواة فى التفكير ، وفى القيام بالأعمال التى يراد منها خدمة الدولة ، والاشتراكية لا تسمح الا بتكافؤ الفرص للجميع ، وليس لديها مقياس للتفضيل سوى مقياس واحد هو الأصالة والعمق والاخلاص ، لأنه قد يكون متخرجا فى جامعة أوربية ولكنه مهزوز لا يفيد الوطن ولا الشعب ولا العلم .. ولا يستطيع الا ان يتحدث عن نفسه ، ويمركز كل الأشياء التى تحدث حول نفسه ، ونفسه منها براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وربما تقع يد الدولة على دارس فى جامعاتنا أفضل بعشرات ممن تلقوا تعليمهم بالخارج .. ان الاشتراكية لتشهد بالفخر للصالح فقط من حيث الجوهر والأعمال الجيدة ، لا من حيث الشكل « والفهلوة » .

واذا صح ان الاشتراكية فى الفكر لا تسمح بهذا بين من تخرجوا فى الخارج وبين من تخرجوا فى جامعاتنا ، فانها لا تسمح به أيضا بين المتخرجين فى جامعاتنا والمتخرجين فى المعاهد العليا ، وانما تضع لهؤلاء جميعا مبدأ واحد ، وهو أن الكل لديها سواء باعتبارها الأم الرءوم تجاه أبنائها ، فكل وطنى ، وكل مصرى .. تخرج فى معهد

مصرى أيا كان نوع هذا المعهد ، وينبغى للاشتراكية أن تضرب على أيدى دعاة التفرقة بين خريجى المعاهد المختلفة ..

ومن هنـا فانها تحقق بينهم ذلك المبدأ الذى كان يأخـذ به المستعمر فى بلدنا ، وهو « فرق تسد » وانما تتيح الفرصة للجميع وتحاسبه على اهماله ، ويتقدم الجميع للأعمال العامة ، ولا خوف عليه أو منه .

ونكاد نعتقد أيضا أن السبيل فى القضاء على العصبيات المعهدية على نحو أعمق وتوجيه المتخرجين فى المعاهد المختلفة نحو الاشتراكية فى الفكر .. نكاد نعتقد ان السبل الى ذلك انما هو القضاء على تلك الاتحادات التى يضم كل اتحـاد منها خريجى معهـد معين ، الأمر الذى يحول الى حد ما من ترددهم على نقابتهم ويشيع بينهم وبين خريجى المعاهد الأخرى ..

على أن تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص للجميع يمنع منعا باتا امتياز طائفة من الخريجين فى معهد من المعاهد على طائفة أخرى ، وسمح للجميع بأن يقوموا بالأعمـال التى هى من صميم عملهـم ، والتى يجيدونها من غير نظر الى المعهـد الذى تخـرج فيه هذا أو ذاك ، والخروج على هذا المبدأ من أى رئيس لقلم ، أو ادارة ، أو مصلحة ، انما هو لعب بالنـار ؛ لأنه يوجب محاكمته ، اذ أنه بذلك يحول بين الأكفاء ، ولا يحقق الاشتراكية بين المواطنين . الأمر الذى يباعد بينهم وبين الايمان بها .. الايمان بأنها خير وسيلة لاسعاد الملايين من أبناء هذا الجيل فى وطننا المفدى .

ثانيا ــ الفردية او انعدام روح الفريق :

ولكى تضح الفردية لدى القراء يجب ان نشير الى ظاهرة يكاد يكون وجودها فى التفكير العربى من المسلمات ، وهذه الظاهرة تتمثل

(١) راجع بتوسع هذا البحث للمؤلف فى مجلة الآداب البيروتية فى يولية سنة ١٩٦٣ .

فى انعدام روح الفريق ، بحيث يمركز كل فرد من الأفراد الأعمال الجليلة نحوه ، سواء أكانت فى المؤسسة التى يعمل بها ، أو فى الميدان الذى يبدع فيه أو .. أو .. الى آخره .

وهو فى مركزته لهذا العمل نحوه ، ونسبته اليه يغمط الآخرين حقوقهم التى يستحقونها بما قاموا به تجاه هذا العمل .

ونعتقد اننا لسنا مجانبين للصواب حينما نقول : ان هذه الظاهرة سبب فى فساد كثير من أعمالنا ، حينما يأخذ الواحد منا على عاتقه القيام بمهمة ما ، ثم يتوانى فى انجازها شيئا فشيئا حتى يفشل فى مهمته ، ويتم وأد المشروع على يديه .

ذلك أنه لابد لكل عمل من أيد محركة كثيرة ، ومن أفكار تهدى الأيدى ، ولا يمكن أن يقوم انسان ما ـ اى انسان ـ بعمل ما وحده ، لأن هذا مخالف لأولى البدهيات فى علم الاجتماع ، وهى أن الانسان مدنى بطبعه كما يقول أرسطو وابن خلدون ، ومخالف كذلك لقول بعض الحكماء « المرء قليل بنفسه كثير باخوانه » .

على أنه يمكن أن نستدل على هذه الظاهرة بدليل قاطع لا يمكن أن يأتى اليه التكذيب من أى جانب من جوانبه ، لأنه واضح وملموس للكثيرين .. ويمكننا أن نلمسه فى أكثر من جانب .

فمن جانب التربية الرياضية ، فانك ترى فرقنا الرياضية الجماعية كفرق كرة القدم لا تغلب الا فى القليل الأقل ، وتهزم فى الكثير الأكثر ، وفى كلتا الحالتين : حالتى النصر والهزيمة تجد الفريق على مستوى واحد فى اللعب ، غير انه حينما تتضح تلك الروح ـ انعدام روح الفريق ـ يهزم الفريق لا محالة فى ذلك ، لأن كل لاعب من الفريق انما يعرض كل ما عنده من عضلات فى لعبه غير مكترث بزميله الذى ينتظر منه ان يناوله الكرة .

وليس أدل على ذلك من ان بعض اللاعبين ، كان يأخذ الكرة

من أول الملعب الى آخره فوق راسه ، ولا يسمح لأى انسان أن يأخذها منه حتى ولو كان ذلك الانسان من أعضاء فريقه ، وفى النهاية تجده قد تعب وأخذت منه الكرة للاعبين الآخرين ..

أقول اذا سيطرت هذه الروح على الفريق يهزم ، واذا انعدمت هذه الروح بين اللاعبين تراه يفوز على الفريق الذى يلاعبه ، أو يقرب فى الاصابات التى يسجلها ضد بعض الفرق التى تعد فى الدرجة الأولى من الفرق الدولية . أما اذا كانت الألعاب الرياضية تعتمد على الفردية ، فانك لواجد أن لاعبنا يتقدم اللاعبين الدوليين، ويكون أولهم ، أو من الخمسة الأوائل على الأقل ، وذلك فى السباحة او العاب القوى وغيرهما .

والجانب الثانى هو التربية الفنية ، وهذه هى الأخرى قد بلغنا فيها القمة فردا فردا ، فعندنا مثلا عبد الوهاب ، وعندنا كذلك أم كلثوم ، ووديع الصافى ، وغيرهم من الجنسين ، ولكن ليس عندنا فرقة جماعية تستطيع أن تغنى غناء جماعيا يترجم عن روح هذا الشعب ، بل انك لو جئت بعبد الوهاب أو وديع الصافى ، أو بأم كلثوم فى فرقة جماعية ليغنى كل منهم فى هذه الفرقة مع آخرين ، لما نبغ واحد منهم فى اطار الجماعة نبوغة وهو يغنى منفردا .

ولعل تمثيلنا بالتربية الرياضية والتربية الفنية نكون موفقين أيما توفيق فى ذلك التمثيل ، لأنهما أوضح دليل على انعدام روح الفريق بين العرب ، وذلك على الرغم من أن علماء الحضارة يذهبون الى أن كلا من التربية الرياضية والتربية الفنية هما الدليل أكبر الدليل على رقى الأمم .

ونستطيع أن نقول بناء على ذلك فى التفكير لدى العرب : انه تفكير فردى فى الأغلب الأعم ، جماعى بحكم القانون ، لا بحكم الطباع والأمزجة .

ومعنى هذا أن التفكير الجماعى لا يبدو الا فى الأمور التى يظهر

فيها توجيه الدولة للمفكرين نحو مشروع معين ، وهذا هو السبب فى عدم تكوين اتجاه فكرى يفلسف آمال الشعب وأمانيه فى الماضى ، كما انه هو السبب أيضا فىعدم ايجاد مذهب أدبى يحملروح العرب ويعبر عن ذواتهم ، ويتسق مع فلسفتهم فى الحيـــاة ، ونظرتهم الى الكون والوجود » وذلك بدلا من الخلط فى الآداب الأجنبية العديدة ، ذلك الخلط الذى لا يمثل مذهبا معينا ، ولا يعبر عن جنس بعينه ، ولا عن لغة بعينها ، ثم وقوف مفكرينا وأدبائنـــــا أمام هذه الآداب موقف القردة المدربة على التقليد والمحاكاة ، مع الحكم بالغاء عقولهم البشرية على مذبح هاتيكم الآداب الوافدة قربانا وزلفى لدارسيها ومبدعيها من الغربيين .

ومهما يكن من أمر فان انعدام روح الفريق قد أدى بدوره الى نشأة القبلية النقدية والفكرية ، (١) فنشأت الشلل والعصابات فى الحياة الفكرية والأدبية ومن ثم عانى النقد والفكر من جراء القبلية معاناة أثقلت كاهله ، لأن القبلية كادت تطيح بكل المقاييس والموازين الأدبية المتعارف عليها فى الآداب العالمية » ذلك أن النقد غدا يسلك دروبا ومنعطفات غير معهودة فى تقدير الأعمال الفكرية والفنية على سواء ، خلاصة ما يقال فيها أنها وعرة غير لاحبة ، ولا يمكن أن تدلف بنا الى الطريق المستقيم .. ذلك الطريق الذى يسلكه النقاد الأجلاء الذين يعتبرون بحق نقادا فى أدبنا العربى .

يبين لنا ذلك من تلكم الاتجاهات المتعارضة المتناقضـــــة التى يعتنقها معظم نقـــادنا الذين يزعمون التجـــديد ، فى الوقت الذى يفتقدون فيه أولى مراحل النقد ، وهى القدرة على التذوق الأدبى ، وقراءة النصوص الأدبية قراءة صحيحة » والقدرة على كتابة سطور تعد على أصابع اليد الواحدة عدا بلغة عربية سليمة .

ومن هنا فانك لواجد ان كل قبيـــلة منهم تنظر الى الاعمال

(١) انظر مجلة « الآداب البيروتية » مايو سنة ١٩٦٣ لعبد الحى دياب .

الأدبية من زاويتها الخاصة ، وفق هواها ، ووفق ما يخدم العقيدة التى تعتنقها ، ولذا فانها لا ترى فى أعمال اخوانهـا الا الجمال .. والجمال فحسب .. وتمطر القارىء بالأشياء الجميلة التى تهيلها عليه فى النص الأدبى الذى تتناوله لبعض أفرادها الذين تطلق عليهم تسميات ما أنزل النقد بها من سلطان .. فمن عبقرى .. الى رائد .. الى موجه .. الى صاحب اتجاه .. الى صاحب مدرسة .. الى أن يتجاسر أحدهم فيدعى اننا لسنا بحاجة اى حاجـــة الى الأدب العربى القديم ، لأنه غث وهراء .. بل اننا فى حاجة اى حاجة الى ما ينتجه الشباب من أمثاله الذين ينسجون الشعر على طريقتــه ، ويفهمون الحياة كفهمه لها ... وذلك فى الوقت الذى لا يرى نقاد قبيلة أخرى — فى تلك الأعمال الأدبية ذاتها — الا العيوب التى تزين جيد تلك الأعمال ، ويسممون لك مصادر المتعة فيها ، ويجعلونك فى صراع مع المؤلفين لهذه الأعمال .

وكل من هؤلاء وهؤلاء متأثر فى نقده بالصداقة الشخصية ، او الروح الحزبية والعقائدية .

والقبائل الناقدة فى مصر كثيرة .. كثيرة كثرة توازى تعـــدد الاتجاهات المتعارضة المتناقضة فيما بينها ، المتآزرة حينما تعتدو عليهم عادية الرواد الأوائل (الشيوخ) كما يزعمون ..

وفى تصورنا أنه من العبث أن نبحث عن أسماء نقاد هذه القبائل لأنه من السهل الأسهل على القارىء العادى أن يصل اليها من واقع كتاباتهم ، فضلا عن القارىء المثقف الواعى . ولكن الذى نبحث عنه حقيقة هو ان لكل قبيلة كبيرا يعلم أفرادها السحر .. سحر هاروت وماروت ، وله معهم اجتماعات تكاد تكون دورية لتنظيم العمليـات الدفاعية عن بعض أفرادها ، اذا ما وجه اليه نقد ، أو تنظيم العمليات الهجومية على أعمال القبائل الأخرى الأدبية ؛ ومن ثم فان المعـارك التى يسـيل فيها لعاب الأقلام نافثا على صفحات الجرائد والمجلات

وغيرها مبادئه وآراءه وصداقاته وحماقاته فى بعض الأحيان ، هذه المعارك لا ينضب معينها ، ولا تهدأ بين هذه القبائل . وقد تجد فى بعض هذه القبائل من نذر الله نذرا الا يكتب كلمة بحق أو بغير حق ، مهذبة أو نابية ، الا لتوطيد أركان الدراما .. الدراما كما يجدها فى أعمال الغربيين .. ومن هنا حق له أن تكون كتابته فى ركنه اليومى الذى يكتب فيه فى احدى الصحف الصباحية عبارة عن مجموعة سباب وشتائم تتضمن اتهامات بجهل الدراما .. الدراما .. الدراما .

وانك تتعجب عجبا يستولى على مشاعرك ، وتدهش دهشة تسيطر على حواسك وفكرك ، حينما تعرف أن كل ما تمخضت عنه أعمال هذا الناقد هو توطيد أركان الشتائم والسباب ، لا أركان الدراما كما أراد .

وليس أدل على ذلك من انه ليس من المبالغة اذا قلنا ليس وراء كتاباته هذه منذ خمس سنوات أو تزيد ـ مبادىء فنية يمكن كتابتها فى عشرين صفحة من الحجم المتوسط ، فى الوقت الذى تملأ شتائمه مجلدات ومجلدات ..

على ان هناك أفرادا فى احدى القبائل ، اصالتهم فى الفن محدودة ، وباعهم فى الشعر قصير ، ومع ذلك سطوا على لجنة الشعر بمجلس الآداب والفنون بواسطة الدروب الخلفية التى يجيدون ارتيادها واجتيازها منذ العهد الماضى .

وبسطوتهم على لجنة الشعر أصبحوا محكمين فى الشعر فى هذا الوطن المفدى ، وهؤلاء الشعراء يتخذون من موقفهم فى لجنة الشعر مجالا لبسط آرائهم الصدئة الباليةبالحق أو بالباطل ويتخذون من الصحف والمجلات التى يعملون بها منبرا لمهاجمة

الغادى والرائح ، والمقبل والمدبر ، والقاعد والقائم ، والحى والميت .. يهاجمون هؤلاء جميعا اذا خرجوا على طريقتهم الشعرية ، او ما أسميناه فى غير هذا المكان بشيوع الاحساس الانثوى فى شعرهم ، بل بلغ العته الفكرى ببعضهم ان يتهم معارضيه اتهامات سياسية فى قصيدة القاها فى مهرجان الشعر الثالث أكثر من مرة وينشرها فى المجلة التى يعمل بها ، ومنذ ذلك الحين وهو يتهم معارضيه بأن ضميرهم كضمير اليهود وفكرهم فكر شيوعى ، وذلك بوساطة قصائده ..

وبين هذه القبائل قبيلة تلجأ الى العمل على ترويج مؤلفاتها ، وذلك باسهام الوزارات المعنية بشئون الثقافة والتعليم ، فنشاطهم اذن يظهر فى التقارير التى يساعدون بها زملاءهم واترابهم ، تلك التقارير التى تأخذ بيدهم أو بيد مؤلفاتهم الى حال أحسن ، ويقصرون دراساتهم الجامعية على بعضهم ، ويتوجهون بالاهداء لاستاذهم ، الذى يدرسونه أيضا دراسة تخلع عليه صفة « الوحدانية » فى الريادة والتوجيه .

وهذه القبيلة يمكننا أن نقول أنها خرجت من حجرة واحدة فى آداب القاهرة فى قسم واحد .

والذى نقوله الآن ان نقاد كل قبيلة من هذه القبائل على اختلاف نزعاتها وأطوارها فى النقد ، يوجد بينهم وبين بعضهم اختلاف فى الدرجة لا فى النوع ، أى اختلاف فى طريقة التناول لا فى طريقة المنهج النقدى نفسه ، بمعنى التفاوت فى الاسلوب الذى يعالج به الواحد منهم دراسته ، أو فريسته من المؤلفين ، حيث يحشد الناقد منهم فى نقده تعريفات ميتافيزاقية وتخريجات منطقية لا تشف عن مبادى فنية ، بل تسبح أمام المخيلة فى خليط غير محدود ، وينظر

(١) انظر بتوسع هذا الموضوع فى مجلة « الآداب البيروتية » للمؤلف فى عدد مايو سنة ١٩٦٣ .

الانسان فى ضيق وعدم مبالاة الى جوهرها الناقص، والى المحاولات اليائسة التى يجريها هذا الناقد لإدخال كل هذا الخليط الرائع فى عمل واحد لمؤلف واحد ثم يصدر بعد ذلك حكما مقتضبا فى النهاية لا يتسم الا بعدل ضئيل .

وفى تصورنا ان هذا اللون من النقد أدعى أن يكون دليلا على القبلية النقدية فى نفوس نقادنا الذين ينتمون الى جماعات .

وقد يقال ان هؤلاء النقاد لم يصنعوا أكثر مما صنعه نقادنا السابقون الرواد كما تزعم ؟ ؟ اذ انهم كانوا يختصمون الموضوعية فى نقدهم ، وكان نقدهم عبارة عن سباب وشتائم مشوب ببعض المبادىء النقدية .

وأبادر فأقول : اننى لا أوافق على هذا بجملته ، ولا انفيه بجملته ، وانما أوافق على جزء منه ، وهو العنف فى المعالجة ، وذلك كما حدث فى نقد العقاد لشوقى فى كتابه « الديوان فى الأدب والنقد » وقد أثبت ذلك فى حديثى مع العقاد عن النقد والنقاد اذ أعترف العقاد نفسه بأن هناك باعثا شخصيا دفعت اليه مكايد شوقى وأحابيله للعقاد واضرابه(١) . كما نفى جزءا منه وهو عدم الموضوعية فى النقد على أطلاقها ، اذ ان نقد العقاد وأصحابه وأترابه ولداته من الرواد ، كان نقدهم موضوعيا الى حدما .

ولنفرض ان نقدهم كان يفتقر الى الموضوعية ، فانما كان ذلك فى أول هذا القرن ، ولقد تقدم بنا الزمن ، وتغير الحال بعد الحال ،وأصبحنا انسانيين فى كل شىء ، فلماذا لا نكون انسانيين فى الأدب والفن .. ان العصر لا يسيغ أمثال هذه الترهات ، وتلك الأباطيل من نقادنا .. ولنا أن نتساءل الآن ، هل يمكننا أن نخرج من اتجاهات هاتيكم القبائل النقدية ، باتجاه

(١) مجلة « المجلة » ابريل ٦٢ ١٩ ص ٢٢ ــ ٣١ .

موحد نستطيع بعد ذلك أن نقول ان هذا هو مذهبنا فى النقد والادب ، وهو ما أشرنا اليه قبل ذلك ؟ ؟

والجواب ببساطة لا ...

نعم لا .. لأنه لا توجد لدينا فلسفة فى اتجاهاتنا الأدبية تساوق اتجاهنا السياسى ، ومن هنا ترى ادباءنا فى كل واد يعمهون ، وكل له وجهة تختلف مع وجهة الآخر ..

ومن هنا كذلك ترى المذاهب الأدبية التى عبرت مئات السنين فى الغرب مثلا متمثلة عندنا فى وقتنا هذا ،من أقدم مذهب فيها الى أحدث مذهب وفد الينا . أما ان يكون لنا مذهب خاص واتجاه انسانى يلم شتات أدبائنا فهذا لن يكون ، الا بعد ان نتخلص من القبيلة النقدية فى مصر ..

على أن هذه القبلية النقدية كانت سببا فى زلزلة القيم النقدية ، واهدار مبدأين انسانيين يتمثلان فى تكافؤ الفرص ، والبقاء للأصلح ، وذلك فى الوقت الذى ينص الميثاق الوطنى بصراحة على حرية الفرد فى التعبير عن رأيه ومشروعية تكافؤ الفرص ، وذلك حينما يذهب الى أن جوهر الأديان السماوية تؤكد حق الانسان فى الحياة والحرية ، ولابد من وضع الفرص المتكافئة أمام البشر أساسا للعمل فى الدنيا وللحساب فى الآخرة .

* * *

والآن أين نحن من الفرص المتكافئة مع تسليمنا بوجود القبلية النقدية ؟؟

والجواب يتمثل فى أن بيننا وبينها بعد ما بين المشرق والمغرب ، أو بعد ما بين الحقيقة والخيال كما يقول الأدباء .

وسواء علينا أسلمنا بوجود القبلية النقدية أم لم نسلم بوجودها فانها موجودة على الرغم منا ، وتفعل فعلها فى النفوس ، فتفت فى عضد النقاد الأصلاء حتى تقصيهم عن الميدان ، لينعم الأدعياء المغرورون من النقاد والمفكرين .

وإذا تحرينا الدقة فاننا نقول أن القبلية النقدية كان لها أثر وخيم على النقاد والفكرين ، بحيث نستطيع ان نقسمهم تبعا لهذا الأثر الى قسمين : القسم الأول يتمثل فى النقاد الاصلاء الذين لم يأخذوا حقهم اللائق بهم فى مزاولة الحياة الادبية والفكرية ، فى الوقت الذى ينعم بها الادباء المغرورون ، الذين الفوا البطالة حتى عبدوها ، واستمرأوا الكسل ، ودب فى أوصالهم حميا الخور والامتهان العلمى ، وبتعبير آخر النقاد الاصلاء الذين لم ينصفوا الى الآن بالكتابة عنهم ، وتسجيل سبقهم فى هذا الميدان فى الوقت الذى ينسب فيه السبق لغيرهم .

والقسم الثانى يتمثل فى اعمال النقاد والأدباء الذين ارتفعوا دون حجاج مشروعة ، ولا أسانيد ترشحهم لهذه القيمة الأدبية التى يتلفعون بها اليوم كأثر من آثار القبلية النقدية .

* * *

وقد تعرضنا لهذين القسمين فى مقالاتنا عن القبلية النقدية والفكرية فى مصر فى مجلة الآداب البيروتية فى عام ١٩٦٣ ، ولا يعنينا فى هذا المقام اعادة ما كتبناه بقدر ما يهمنا أن نبين أن القبلية التى تتضمن الشلل والعصابات ما زالت ماضية فى طريقها ولم تكف عن مساوئها وشرورها مرتدعة ، بما جاء فى الميثاق أو فى خطب رئيس الجمهورية ، بل زادت ضراوتها .

ولعل بيان ٣٠ مارس قد أحس بهذه الشللية حينما تحدث عن بناء الدولة الحديثة فأكد أننا فى حاجة الى انشاء مجلس ثقافى قومى

يضم شعبا للفنــون والآداب والاعلام ، وذلك لأن تبــادل الرأى وتمحيص الأفكار ــ كما يقــول الدكتور محمــد حلمى مراد ــ بين المتخصصين فى كل مجال من هذه المجالات يضمن الوصول الى وضع سياسة رشيدة تكون هادية للحكومة فى اتخــاذ قراراتها ، محققة للاستقرار فى تطبيقها فلا ينفرد وزير برسم سياسة قد لا تعبر الا عن وجهة نظره ، أو لم تدرس الدراسة الكافية ، ولا تتغير السياسة المرسومة كلما تغير شخص الوزير مما يؤثر فى الاستقرار المنشود لها كى تؤتى ثمارها .

ويضيف الدكتور مراد قائلا : « كمــا أن ضم المتخصصين فى الشعب المختلفــة داخل مجلس قومى واحــد من شــأنه أن يكفل التنسيق الواجب بين السياسات الموضــوعية لميادين هذه الشعب بما يخلق التكامل والاتساق المطلوبين فى نظم الدولة(١) .

ثالثا ــ المصادرات الفكرية :

وتعد المصادرات الفكرية من أشنع آثار الاقطاع الفكرى نظرا لأنها تفضى الى وأد ذوى الأصالة والعبقريات الخلاقة ، أو تفضى الى وأد التفكير الصالح على مذبح التهريج العلمى فى مجال الفــكر والأدب . ففيما يختص بوأد ذوى العبقريات الخــلاقة نقول : ان وأدها يتم على مذبح التفرد واخلاء الجو لبعض ذوى النفوس غير السوية لكيلا يفتضح عوارها الفــكرى ، لأن افتضاح عوارها رهن بوجود هؤلاء الأصلاء فى الميدان ، فيكشفون ما يأتى به هؤلاء من عته وبله فى القضايا الفكرية ، بحيث تخرج القضايا سطحية لا عمق فيها ، وتخــرج كأنها من ابداع اناس متمتعين بالاغمــاء العقــلى والانفصال الشبكى بين أذهانهم والواقع .

ولعل أوضح صورة فى هذا الضرب ما قام به الدكتور طه حسين

(١) الدكتور محمد حلمى مراد وزير التربيــة فى بيان ٣٠ مارس شرح وتحليل ص ٤٦ .

من مصادرات للدكتور احمد ضيف الذى رجع من بعثته فى فرنسا فى عام ١٩١٨ وهو يحمل درجة الدكتوراة ، وكان طه حسين زميلا له فى فرنسا ، بل ان ضيفا كان يصطحب معه طه حسين فى غدواته وروحاته ، ولكن ذلك لم يشفع لطه حسين حينما رجع من فرنسا ، وحينما علم أن زميله الذى يدرس فى الجامعة منذ عام ١٩١٨ — أى قبل مجيئة بسنوات — وحينما علم أن الوفد قد أقصى عن الحكم — وكان يظن أن زميله قوى بالوفد نظرا لأن سعد زغلول قد حضر أول محاضرة للدكتور ضيف فى عام ١٩١٨ ..

حينما علم هذا وذاك حاول أن يصل على أنقاض الدكتور ضيف الذى قد اهتز توازنه النفسى بما حدث له ابان رجوعه فى البحر ، اذ ضربت السفينة التى يركبها طرادة ألمانية فمزقتها اربا اربا ، ولم يكن نصيب ضيف منها سوى قطعة من الخشب تشبث بها فى البحر ساعات وساعات حتى انقذ وهو لا يدرى مما حدث شيئا ، ومن هنا لم يعد الدكتور ضيف فى حاجة الى صراع آخر ..

حاول الدكتور طه حسين أن يصل فراح يسعى الى وصل حباله بحبال الأحرار الدستوريين ، وراح يكتب فى جريدة السياسة مقالات فى الأدب والسياسة ..

ولما توطدت الصلة وتعمقت بينه وبين عبد الخالق ثروت طلب من عبد الخالق أن ينصبه أستاذا للأدب العربى ونقده بدلا من تدريسه للنصوص اليونانية والتى أصدر فيها كتابة « مختارات من الأدب اليونانى » .. وأجابه ثروت الى طلبته ، ولم يفكر أحد منهما فى صديقنا الدكتور ضيف . وحينئذ رفض الدكتور ضيف أن يعمل تحت رئاسة طه حسين ، لأنه يشغل تلك الوظيفة ، ولأنه متخرج قبله وله فى هذه المادة أبحاث لم تكن لطه حسين .. فكيف يتخلى عنها ليشغلها طه حسين ، ثم يكون بعد ذلك تحت رئاسته ..

وهنا لم يكن أمامهم الا أن يبعـدوه من الجامعـة ليدرس فى مدرسة دار العلوم ، وليخلو الجو لطه الذى لا يرقى انتاجه العلمى فى هذا الميدان الى شأو انتاج الدكتور ضيف . وكم كان بودنا لو اتسـع المجـال لتقييم انتاج كل منهما ، ولكن حسبنا ما أوردناه لنستدل على مصادرات طه حسين لزميل له أحسن اليه قبل ذلك ، فقابل حسناته بالاساءة اليه ، وراح ينتدبه بعد ذلك فى الثلاثينات وأوائل الأربعينات ليدرس اللغة العربية لطلبة أقسام اللغات حيث كانت اللغة العربية فيها مادة ثقافية اضافية وليست مادة أصيلة ، وليدرس فى الوقت نفسه ما أبدعه يراع طه حسين فى ترجمته عن نفسه ((**الأيام**)) ..

وحسب القارىء أن يستدل بنفسه على مقدار ما وصل اليه الدكتور ضيف الذى أحيل الى المعاش وهو فى الدرجة الرابعة التى كان مرتبها يبدأ من ٣٥ جنيها ، حسب القارىء أن يعرف الضرورة التى تلجىء أستاذنا أن يحاضر فى مادة هو أول من وضـع المناهج لدراستها فى الأدب العـربى ونقده قبل ان يقول طه حسين كلمة ذات بال ، لأن الذى قاله فى هذا الصـدد ويستحق المناقشة كان بعد ذلك ولم يكن من تفكيره ولكنه من تفكير المستشرق «مرجليوث» كمـا هو معروف لذوى التخصص فى الأدب العـربى ونقده ، وقد أثبت ذلك بالدليل الواضح الذى لا يقبل الشك ولا التأويل الزميل الدكتور ناصر الدين الأسد بترجمته لبحث « مرجليوث » فى كتابه « مصادر الشعر الجاهلى » الذى نال به درجة الدكتوراة ؛ ومن هنا وضح ما أخذه طه حسين دون أن ينسبه لصاحبه ووضح أيضا ان مناقشيه فى هذا الكتاب أنهم لم يكونوا على صواب حينما ناقشوه ، لأن الأولى بهم أن يتوجهوا بالمناقشـة الى « مرجليوث » مباشرة لا الى طه حسين ، وما شأن طه حسين فى هذا الصـدد الا كشأن رجل يعمل فى البوستة كل ما يبدعه هو توصيل الرسائل .

ولم يكتف طه حسين بهـذا بل حارب بعـد ذلك الدكتور على العنانى الذى تخصص فى الفلسفة واللغـات الشرقية فى المانيـا ،

والذى كان صديقا حميما لأحمد شوقى ، وكان شوقى ينزل على رأيه فيما يختص بالشعر حتى انه كان لا يلقى شعره الا بعد أن يعرضه على الدكتور العنانى ..

وعلى الرغم من أنه هو الذى شجع المرحوم الدكتور محمد مندور على الالتحاق بكلية الآداب على حين كانت أمنيته أن يلتحق بكلية الحقوق ليتخرج وكيلا للنيابة ، على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من أنه استثناه من نظم الجامعة آنذاك فأباح له الالتحاق بكلية الآداب قسم اللغة العربية بالاضافة الى دراسته للحقوق .

أقول على الرغم من هذا وذاك فانه رفض تعيين الدكتور مندور مدرسا بفئة من الدرجة الرابعة ، ولم يكتف بالرفض فحسب بل احتد فى الرفض بصورة جعلت الدكتور مندور يفكر فى الاستقالة ..

والسبب فى ذلك أن الدكتور مندور قد كتب وهو فى جامعة القاهرة تقريرا كتبه عن منهج دراسة اللغة والأدب فى الجامعة ، وانتقد فيه الأساليب البالية التى كانت مستخدمة عندئذ ، وقدم نسخة منه الى مدير الجامعة وأخرى الى عميد الكلية ، وطالب فى هذا التقرير بانشاء معمل للاصوات ، وقلب مناهج التدريس رأسا على عقب . ومن هنا ساءت علاقته بالأساتذة فى قسم اللغة العربية . وهذا أمر لا يريح الدكتور طه حسين ..

ومما زاد الأمر سوءا أن الدكتور مندور حضر رسالته على يد الدكتور احمد أمين وهذا يحمل فى أطوائه عدم الاعتراف بطه حسين على شكل من الأشكال أو صورة من الصور ، فراح يعلن طه حسين أنه لن يعترف بالرسالة ، كما رفض أن يشترك فى اللجنة التى ناقشت الدكتور مندور ..

وحينما وجد الدكتور احمد أمين ما يعانيه من تلميذه من ضيق

(١) راجع : حديث الدكتور مندور عن نفسه فى كتاب عشرة أدباء يتحدثون للاستاذ فؤاد دوارة ص ١٦٩ وما بعدها ط اولى يومية كتاب الهلال يولية ١٩٦٥ .

مادى حاول ان يساعده فى نشر كتبه فى لجنــة التأليف والترجمة والنشر ، ويساعده كذلك فى نشر مقالاته فى مجلة « الثقافة » التى كان احمد أمين يرأس تحريرها ..

وكل هذه المســاعدات اضافت عاملا هاما فى نفس طه حسين فحنق على مندور ؛ ومن هنا رفض ـ كمدير لجامعة الاسكندرية « تعيين الدكتور منــدور مدرســا من فئــة أ ، على الرغم من أنه مكث فى «السوربون» تسع سنوات يدرس الآداب واللغات اليونانية القديمة واللاتينية والفرنسية وفقهها المقارن ..

ولم يكتف بالرفض بل احتد معه ، الأمر الذى حدا بالدكتور مندور أن يستقيل من الجامعة ليمضى فى طريق الصحافة . وهكذا لم تستفد الجامعات المصرية من الرجل الذى ترك بصماته وأصالته فى النقد والأدب أكثر من الدكتور طه حسين كما يقول النقاد .

وكذلك حارب الدكتور طه حسين عــددا كثيرا نكتفى منهم بالدكتور البهبيتى الذى صادره فى وظيفته فى الجامعة هو وتلاميذه حتى اضطر الرجل الى الخــروج من مصر الى المغــرب والتجنس بالجنسية المغربيــة على حسب ما علمت .. ولم يكن الدكتور طه حسين يصادر هؤلاء وهؤلاء بناء على مذهب فى السياسة ينتهجه ، أو مذهب فى الأدب يطبقه على ادبنا المعاصر ، وانما كان يصادرهم بناء على ذاتيته ودخيلة نفسه ، لأنه من حيث السياسة لم يثبت على رأى ولم يمكث فى حزب ، بل كان يعتنق الحزب الحاكم دائما .. فهو فى أول أمره « حر دستورى » ، ثم فى حزب القصر الذى الفــه يحيى ابراهيم ، ثم حزب الشعب الذى الفــه صدقى ، ثم الأحرار الدستوريين ليكتب فى السياسة مرة ثانية ، ثم فى حزب الوفد ..

ثم أبرع خطباء الملك ، ولا زال صوته يرن فى آذاننا فى خطبته التى أضفى فيها على فاروق أنه « أول » فى كل شىء ، والتى أضفى

عليه فيها أيضا من الصفات ما لم يكن فاروق يطمع فى مثلها يوما ما من أى انسان .. ثم بعد ذلك كان كاتبا فى ظل الثورة ..

وفى اعتقادنا ان التنقل من حزب الى حزب ليس فيه عيب ، لأن المتنقل قد يكتشف فى الحزب نواحي ضعفه فيخرج منه الى حزب أقوى وحزب صادق فى دعوته للجلاء واستقلال مصر . لكن الذى كان يحدث من الدكتور طه حسين أنه ينتقل من الأقوى الى الأضعف ، أو من الذى يمثل طائفة من الشعب .. أو الأغلبية المطلقة الى حزب القصر او الحزب الذى أنشىء بمعرفة الانجليز ..

وعلى كل حال لقد كفانا الدكتور طه حسين نفسه مئونة الرد فى هذا الصدد باجابته على كامل كيلانى : « أنا أوافق الأوضاع القائمة فى الدولة .. فأنا أتطور جهة اليمين دائما » .

ومعنى هذا أنه لا يخرج على الحكم والحاكمين ، وقد جاءت حياته السياسية مصداقا لقوله هذا ، وقوله مصداق لحياته السياسية ..

ومن حيث الأدب لم نقف له على مبدأ نقدى واحد انفرد به ، بل انه ليتميز بأن يقول الرأى اليوم ليرجع عنه فى الغد ، فهو مثلا يشك فى طرفة بن العبد ، وامرىء القيس وغيرهما من الشعراء فى كتابه « فى الادب الجاهلى » ثم يرجع عن ذلك ويكتب فى جريدتى السياسة والجهاد عن طرفة وامرىء القيس وسائر من شك فيهم من الشعراء تحت عنوان ساعة مع طرفة .. وهكذا ..

فهو ليس له رأى ثابت فى أى مشكلة معاصرة فى الأدب أو النقد ، بل انه ليغطى على عدم اتصاله بالكتب والاستفادة منها منذ ٢٥ سنة تقريبا بأنه يتهم الكتاب المعاصرين ممن ذرفت أعمارهم على الأربعين بأنهم لا يقرأون ، ظنا منه بأن احدا لن يحرجه بقوله : وماذا قرأت انت ، او ماذا تقرأت انت الآن . حينئذ لا يعود الى مثل هذه

الاتهامات ، لاحد ، ولخلد الى الراحة ، وآوى الى رحاب السكينة لا يريم .

وقد برع تلاميذه فى هذا اللون من السلوك « المصادرات الفكرية ــ فطبقوها بنجاح بحيث أصبحوا لا يسمحون لأحد يدخل بينهم فى عمل . أو يحاول أن يتقدم لشغل وظيفة تحت رئاسة أحدهم الا كان مصيره الموت جوعا لأنه يستحق الموت .. وذلك لتجاسره على ما ارتكب فى حقهم من تطاول الى مقامهم السامى ، اذ ان كل فضلهم انهم تلاميذ طه حسين ..

وقد سرت هذه المصادرات فى الجامعة بحيث يطبقها الأساتذة ليقصروا وظائف الجامعة على من فيها ، ولا يسمحون للغزاة وهم الذين يدرسون من الخارج بأن يعيشوا بينهم حتى ولو كانوا على علم لا يشتمل عليه أحدهم ؛ ومن هنا غدت التعيينات والترقيات « من تحت السلاح » .

كما أن تلاميذه لم يكتفوا بتطبيق هذه المصادرات فى الجامعة ولكن هــذا المنهج شيمتهم وديدنهم الذى مرنوا عليه وتدربوا عليه تدريبا فائقــا ، متخطين فى تغطية نفوسهم كل الحواجز القانونيــة وخرجوا بالحل العبقرى وهو التحايل على القانون ، بل ان بعضهم ليقف فى تنفيذ مصادراته من القانون موقف المعاند متحديا القانون والعرف الوظيفى .

وذلك كرئيس مجلس ادارة احدى مؤسســات وزارة الثقافة فى مصادرته لزميل من الكتاب عقب تعيينه فى المؤسسة رئيسا لمجلس ادارتها ؛ اذ عمل كل جهده فى الا يراه فى المؤسسة . ولم يكن هناك من سبب سوى أن هذا الزميل يحس منذ أمد بعيد بأن الحركة الفكرية ليست فى مستوى التفكير على مستوى الشعب ، وأن أغلب الأمور فى المستوى الثقافى تمضى وفق الأمزجة والذاتيــة لا الموضــوعية وخاصة عند طه حسين وتلاميذه ؛ ومن هنا ناصر الدكتور كامل

جمعة فى ترقيته الى أستاذ مساعد هو وزميله حسن الشرقاوى حين كان يعمل فى الأهرام .. وظلا يحاربان طه حسين واللجان التى تألفت منه ومن الدكتورة سهير ومن عضو ثالث يجوز عليه التبديل ولا يتبدل الأولان ، حتى ترامى الى سمع الدكتور كامل جمعة أنهم قد عقدوا العزم على عدم ترقيته . فأبلغهما بما يدبر له فناصراه وظلا يحاربان حتى وصل الدكتور كامل الى حقه ..

وبعد ذلك واصلا الحملة فى الجامعة فى صفحة الرأى آنذاك والصفحة الأخيرة ، ومن القضايا التى وقفنا عندها آنذاك ترقية الدكتور مؤنس طه حسين والدكتور رءوف كامل ، وقد كان الدكتور طه حسين يريد أن يعصف برءوف كامل ، يريد أن يفتك بدم ترقيتة زاعما أنه هو الذى خلق كلية الآداب .. فوقفنا حتى وقفت ترقية مؤنس ..

وبعد ذلك كتب زميلنا مقالا فى مجلة الكاتب فى نقد مهرجان الشعر الرابع فى ديسمبر سنة ١٩٦٢ ، وأبان فى نقده لبحث رئيس مجلس الادارة التقاءه واستفادته من غيره من الدارسين المعاصرين فى أبحاث لهم ولم يشر هذا الرئيس اليهم .

ثم تعرض زميلنا له وهو يكتب سلسلته فى الحركة الفكرية التى كانت تحمل عنوان : « القبلية النقدية والفكرية فى مصر » فى مجلة الآداب البيروتية فى أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، كما تعرض لكل من يهمها أمره فى الفكر بالنقد ، وربما كان فى النقد عنيفا ، وذلك لأن موضوع القبلية .. والشلل لا يمكن أن يعالج بهدوء ، والا فقد حرارته ، ولم يكن له بعد ذلك صدى ..

كل هذه المواقف من زميلنا جعلت رئيس مجلس الادارة يقدم انتداب زميلنا خارج المؤسسة تمهيدا لنقله ، وتم له ما أراد وصدر القرار الوزارى رقم ١١٦ فى ١٦ مايو سنة ١٩٦٧ الذى أسس على وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ويقضى هذا القرار بنقل صاحبنا الى مصلحة الآثار ..

وعلى الرغم من أن القـرار لم يؤسس تأسيسا قانونيا ، لأنه مخالف لنظام العاملين بالقطاع العام ٣٣٠٩ لسنة ١٩٦٦ وتعديلاته ٨٠٢ و ١٤٨١ سنة ١٩٦٧ .. على الرغم من ذلك فان القرار جاء مجافيا لتوجيهات الرئيس جمال عبد الناصر فى هذا الصدد ، لأنه هو الذى دعا الى ذلك فى أواخـر عام ١٩٦٥ ولا زال يقول ويقول ويقول فى هذا الصدد بما دعا اليه .. نقول ذلك لأن القـرار الذى أصدره وزير الثقافة انما أصدره لموظف يحمل درجة الدكتوراة فى النقد الأدبى العـربى الحديث .. أى أن الوزير ورئيس المؤسسة يحملان نفس الدرجة ، فكيف ينقل هـذا الموظف لأنه مناسب فى الآثار مع انه لا يعرف عن الآثار شيئا لا عن طريق الدراسة ولا عن طريق الخبرة .

وعلى الرغم من أن رئيس مجلس الادارة حاول ان ينفى أنه قام بهذه المصادرة من العمل لصاحبنا فى مؤسسة التأليف والنشر ، وأن الذى قام بذلك هو من كان يسبقه فى العمل ـ لأن له موقفا مخالفا منه فى كتابة عباس العقاد ناقدا ـ يعنى أن المصادرة انتقلت من رئيس مجلس الادارة الى سلفه .

على الرغم من ذلك فان الواقع الذى حدث بعد ذلك يخالف ما زعم الآن زميلنا خرج من المؤسسة بعد ذلك بعام أو يزيد على انه من العمالة الزائدة ، وأخذت القوى العاملة ترشحه الى بعض الشركات التى تحتاج الى مثل هذا التخصص فرشـحته الى « الشركة الشرقية للدخان » .

وفى اعتقادى أن القوى العاملة معذورة فى ذلك ، لأن المؤسسة لم ترسل عنه شيئا سوى أنه تخرج فى عام ١٩٥٨ ، وبالدرجـة السادسة ، ولم تقل أنه حاصل على الماجستير والدكتوراه ، ولم تقل ان المؤسسة نفسها طبعت له خمس كتب ومثلها فى القطـاع الخاص ، لم تقل المؤسسة ذلك .. ومن هنا يحق لنا أن نعـذر القوى العاملة ، وان كنا لا نعذرها على تسميتها للمكتب الذى يلى

شئون العمالة الزائدة بـ « مكتب التخديم » فيوحى بذلك للانسان أن يصطحب معه أدوات التنظيف المنزلية ..

وليعلم القارئ كيف يتصرف هؤلاء الرؤساء فى وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، الذى تحدث عنه بيان ٣٠ مارس على أنه ضابط من أهم ضوابط المعركة القادمة ، وضمانة من أهم ضمانات النصر فيها .

فبيان ٣٠ مارس يرى أن الدولة العصرية المستندة على العلم والتكنولوجيا لا يمكن أن تقوم الا بحشد وتعبئة كافة الطاقات والخبرات . كما أن وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب يعد القاعدة الأساسية التى يجب أن تتبع عند توزيع الطاقات والقدرات الانسانية على مواقع المسئولية المختلفة وذلك فى اى مجتمع متطور طامح ، فما بالك لو كان هذا المجتمع مجتمعا اشتراكيا ديمقراطيا يقوم بتعبئة وحشد كافة طاقاته وقواه العسكرية والاقتصادية والفكرية على خطوطه مع العدو من أجل تحرير الأرض وتحقيق النصر (١) .

وما بالك بمجتمع اشتراكى يتخذ التخطيط منهاجا وأسلوبا لدفع عجلة التنمية الى الأمام (٢) .

واننا لنتفق فى هذا الصدد مع ما ذهب اليه الدكتور صفى الدين أبو العز من أن مواجهة العدوان يجب أن تقوم على أن كلا منا يعرف دوره المحدد فيها ، ولن يتسنى هذا الا اذا روعى وضع أنسب رجل فى أنسب موضع . ولابد أن تقوم مؤسسات الدولة العصرية — التى نحاول انشاءها — على التخصص (٣) .

---

(١) ، (٢) ، (٣) الدكتور صفى ابو العز : برنامج ٣٠ مارس شرح وتحليل ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ .

كما ان بيان ٣٠ مارس قد نص على توفير الحوافز الفردية تكريما لقيمة العمل ، وفتحا لابواب الأمل أمام المواطنين جميعا ، واحتفاظا للوطن بطاقاته البشرية القادرة .. ولا يمكن أن يؤدى العمل كخير ما ينبغي الأداء ، كما لا يمكن أن تتأكد تأكيدا جازما اهمية العمل باعتباره العامل الأول فى تحديد القيمة الانسانية ، الا اذا أقبل كل منا على عمله بصدر رحب ، وبتفان واخلاص ، واتقان ، وهذا بدوره لا يمكن أن يتأتى الا اذا عرف كل منا حدود طاقاته وقدراته ، واستمسك بأخلاقيات العمل وأولى أولويات مثله وقيمه ، وتتمثل هذه القيم وتلك المثل فى ألا يقبل على عمل الا اذا كان قادرا على أدائه بكفاءة وفعالية منتجة .. وفى هذا تأكيد واضح لمبدأ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وتأكيد لأهمية القيم الخلقية والروحية ، وتأكيد لمعنى فتح آفاق المستقبل والأمل رحبة أمام الشباب ، وتأكيد للأخذ بالحوافز الفردية وتشجيعها .. وكل هذه مهام اذا تولى كل منا ممارستها فى مجاله فان هذا كفيل بايجاد الضمانات الكافية لحماية الثورة فى ظل سيادة القانون (١) .

ومعنى هذا أن الاشتراكية التى ندين بها أكثر تفهما وتقييما لأهمية العمل وأهية القوى البشرية العاملة التى يقع عليها عبء الانتاج ، لأن الاشتراكية بكل اعتباراتها الانسانية وارتباطها بالمثل والقيم المعنوية والروحية ترتكز على العمل . ومن هنا نرى أن الثورة الاشتراكية فى كل مكان قامت من أجل قوى الشعب العاملة ، ومن أجل انصافها أولا ثم اسعادها ثانيا ..

واذا كانت الاشتراكية تعتمد أول ما تعتمد على العمل وتهتم به وتقيمه ، فان أهمية العمل فى مرحلة الانطلاق الاشتراكى تزداد وتدفعنا دفعا لا هوادة فيه الى مواقع العمل لكى يأخذ كل منا

---

(١) المرجع السابق ص ٧١ ، ٧٢ .

دوره، اذ لابد ان يكون العمل عندنا عملا خلاقا قائما على العلم والتخطيط العلمي والفن التكنولوجي المعاصر ، ولابد أن يرتبط العمل اساسا بالديموقراطية ، وهذا يتطلب توافر الحرية فى كل موقع من مواقع العمل ومراكز الانتاج .

وللقارىء أن يعرف مدى البون الشاسع بين توجيهات الميثاق وبرنامج ٣٠ مارس وبين ما يصنعه هؤلاء الرؤساء الذين أكلوا على كل مائدة فكرية وانتموا اليها انتماء المؤمن بها الكافر بما عداها ..

والذى نفهمه من تصرفات هؤلاء فى مؤسساتنا انه لا فرق بين تصرف رئيس المؤسسة وبين اتباعه ومن هنا لابد أن نحكم الرقابة عليه ، وأن يكون الوزير المسئول عن هذه المؤسسة مسئولا عن عمل هذا الرئيس .

أما النوع الثانى من المصادرة فيتمثل فى مصادرة اتجاه لكل الاتجاهات التى لا تتفق معه ، وأن كل من يخالفهم فهو رجعى وحقت عليه لعنة هذه القبيلة التى تفتى بخيانته . مع اننى اعتقد أن الخيانة لدى المصريين بعيدة الحصول الا فى النادر أو فى القليل الأقل ، لأن المصريين ينظرون الى بلدهم نظرة تقديس منذ آلاف السنين ، فهم قوم تعد الديانة جزءا من تكوينهم النفسى والبيولوجى والديانة ولو بالمعاملة تمنع المصرى من التفكير فى الخيانة ، ولكن اخواننا جزاهم الله يشهرون سيف الخيانة على كل من يخالفهم ، وهذا تصرف قبلى فردى بغية ارساء قواعد مذهبهم فى السياسة والفكر ، وهو تصرف عقيم من وجهة نظر علماء النفس وخاصة نفسيات الجماهير ـ أو ما يسمى بعلم النفس الجمعى ـ الذين يحاولون تقصى آثار الكلمة المكتوبة أو المسموعة فى نفوس الجماهير ..

ومن هنا فالذى يحدث أن هذه الاتهامات تجعل القراء والمستمعين يتعاطفون مع من يعتدى عليه من هؤلاء الكتاب ، خاصة

اذا علمنا أن الشعب المصرى شعب انفعالى عاطفى ، وهذه الصفة ترجع أول ما ترجع الى تدينه وخوفه من أن يقف مثل هـذا الموقف معتدى عليه ولا يستطيع الدفاع عن نفسه .. فحينئـذ يحاولون الوقوف فى وجه المبادىء التى يدعو اليها هؤلاء الكتاب اما وقوفا ايجابيا أو وقوفا سلبيا .

رابعا ـ خدم الفنادق :

« انج سعد فقد هلك سعيد » ..

وقد أدت المصادرات الفكرية الى ان يفقد أغلب الكتاب وظيفتهم التى من أجلها خلقت مواهبهم ، وهى أن يصدحوا بالحق والخير والجمال دون مبالاة ودون خوف ولا وجل ، لكنهم فقدوا وظيفتهم حينما وجدوا الايذاء بمختلف أنواعه ، ومحاولة التجويع التى يحاولها بعض الكتاب ذوى الرئاسات ، ومشايخ القبائل النقدية والفكرية .. حينما وجدوا ذلك ينصب على كاهل كاتب آثر الحق فصدع به فكانت نتيجة ذلك التشريد من عملـه والتزامه البيت دون أن يؤدي عملا ، وفى ذلك ما فيه من التدمير النفسى لرجـل عاش حياته يعمل ويعمل حتى أدركه عطب النفوس فألزمه البيت سنوات ..

ومن هنا رأينا صنفا من الكتاب يؤثر السلامة ، ففدوا لا راى لهم ، وكل شيء عندهم عظيم . يهتفون للمقبل والمدبر والقـاعد والقائم ، والحي والميت ، والحقير والعظيم .. فهم لا يتعرضـون للأعمال الأدبية بالنقد العلمى ، ولكنهم يتعرضون لها بالتحيـات المباركات والسلام الذى يزجيه الناقد الى هذا الكاتب وأهل بيته وأصهاره الذين أنجبوا له هذه الزوجة التى تجيد الطهى وترتيب المائدة .. يقول الناقد ذلك فى الصحف التى أولته مكانا يملؤه بسخافاته وترهاته .. وهم فيما يكتبون يجمعون المتناقضـات ، لأنهم يحبون الشيء وضده ، اذ لا موقف لهم ولا مبادىء ، ولكنهم

خدم فى عالم الفكر كالخدم فى عالم « الفندقة » اذ يجد الانسان امام كل فندق من يفتح لك الباب وينحنى بطريقة مزرية للكرامة البشرية .

اجل هؤلاء الكتاب النقاد مثل هؤلاء الخدم مع الاعتذار للخدم فى الفنادق ، لأن عملهم ووظيفتهم لا تتطلب منهم أكثر من ذلك ، لكن الكتاب ليست وظيفتهم كذلك ، وانما تتمثل فى أن يصدع الكاتب بالحق والخير والجمال ، وألا يخشى شيئًا بعد ذلك ، ولا يهمه حينئذ ان يجوع أو يشبع ، أن يصح أو يمرض ..

ومن ناحية اخرى فان عمل خدم الفنادق ظاهر للمشاهدين من الرواد للفندق ، بعكس الكاتب الذى يقرؤه القارىء ويحسب انه يجد فيما يكتب لا أن يهزل ، وحينئذ تهتز رؤية القارىء فى كل شىء .. رؤيته النفسية .. والعقلية .. وتختلط فى ذهنه القيم ..

وما الذى يحدث لو أمنا هؤلاء النقاد كى يقـولوا كلمتهم ونناقشها بروح رياضية وعلمية دون تأزمات وتشنجات وتدبيرات تنتهى الى التشريد والجلوس على المقاهى والكازينوهات ..

ما الذى يحدث لو صنعنا ذلك ومنحنا اتحاد الأدباء قـوة وفعالية بدلا من موته الخالد على يد حفنة تتسنم قمته فتميته.. ان هذه هى مهمة اتحاد الأدباء .. مهمته الدفاع عن الكاتب ضد رؤسائه والدفاع عن الكاتب ضد القبائل الاخرى التى تدبر له المكائد والدسائس التى تودى الى التشريد والجلوس على المقاهى والكازينوهات .

لم لا يحدث ذلك حتى لا نسىء الى الدولة فى سمعتها خارج البلاد وداخلها .. لأننا لا نعيش فى قرى من النمل ، بل نعيش فى عالم متلاحم الأواصر الفكرية ، وما نكتبه هو الصورة التى تمثلنا ، وما هى الصورة التى تدخل فى روع المفكرين فى العوالم الأخرى..

انها لا تحمل سوى صورة واحدة تتمثل فى معالجة القضايا الجادة معالجة سطحية وهازلة .

المسألة اذن ليست مسألة فردية ولكنها قومية قبل كل شيء ، وتحتاج الى بعث فكرى ليضع الأمور فى نصابها ، وليست مسألة الكاتب الفلانى أو الناقد العلانى ، وكلما أغرق الكتاب فى المدح والزلفى على مذبح النفاق الأبدى الخالد ، كان رد الفعل لدى المواطنين انفسهم النفور وعدم الايمان بما يقولون .

ان هؤلاء الكتاب يفترضون فى المصرى الغفلة وانه لا يفطن الى دقائق الأمور . وهذا ظلم لا يعلمون عظيم ، لأننى أرى أن المصرى من أدهى خلق الله على الرغم من أن شعبنا طيب فى طبيعته ، والذى اضطره الى الدهاء والظهور بمظهر البراءة هو الاستعمار وما كان يصنعه معه ..

ولنضرب على ذلك مثلا كنا نعايشه فى الريف .. يأتى لك الرجل الفلاح فيطلب منك أن تقرأ له خطابا ورد اليه .. فتقرأ وهو يتفرس فى قسمات وجهك وخلجات نفسك مع القراءة ، واذا ما تعثرت فى القراءة لأن كلمة غير واضحة شك فيك كل الشك . ومع ذلك بعد أن تقرأ الخطاب وتمضى يظل هو واقفا أو يتظاهر بالمشى حتى يعثر على آخر ، ويصنع معه ما صنعه معك وهكذا حتى يصل عدد قراء خطابه الى سبع أو يزيد .

واذا جاز لنا أن نستنبط ما يدل عليه هذا المثل ، فانه لا يدل مطلقا على الطيبة ولا على البلاهة التى يفترضها كتابنا فى شعبنا ، ولكنه يدل على الدهاء الذى لا يحد ، والاحتياط والحذر مما يلقى عليه ولو كان خاصا به هو .

ومن عجب أن تمتد هذه الظاهرة « خدم الفنادق » الى اللجان العلمية والجامعات ..

ففيما يختص باللجان العلمية نرى أن الهيئات لا تكون اللجان العلمية والأدبية الا من أناس يعدون عمداء فى الفندقة .. أى من أناس يتميزون بالبكم وعدم التعقيب على تصرف لكبير الهيئة .. وكل ما يرضى هذا الفندقى هو أن يقبض او ان شئت فقل أن يلهف المكافأة المالية عن حضور اللجان ..

فسبحان الزمن الذى جعـل البكم والعى والكلال ميزات وفضائل يؤجر عليها الانسان بعدما جعلها الله نقائص وعورات ..

اما الجامعات فحسبنا فيها « الصبينة » ، فالطـالب الذى يريد أو « يتكتك » لأجل ان يكون الأول فى كليته يجعل من نفسه صبيا لبعض الأساتذة فيسمع كل خرافاته ونسج خيالاته واضفاء التقدم العمرانى والبشرى ما كان وما سيكون ومركزته عليه هو .. وعلى الطالب أن يستمع .. ولا يعقب الا بما يؤكد هذا فى جانب الأستاذ .. وعليه ان يصطحبه .. وان يكون الطالب أو المعيـد الذى يريد ان ينجز عمله .. أو المدرس الذى يود الترقية .. أو .. أو .. الى آخر الأواوات .. عليه ان يصطحب أساتذه ، وأن يكون عموده الفقرى على هيئة علامة الاستفهام وأن يكون على كتفه أو ظهره وسادة للامتطاء اذا ما أراد الأستاذ أن يمتطيه .. ومثل هذا كريه على النفوس الأبية ، ولكن هناك نفوسا تدين بالبراجماتزم تؤيده لكى تصل الى اربها ..

فالفنادقة من اساتذة الجامعة لا يأتون فى لجان المناقشـات أو الترقيات الا بفنادقة مثلهم حتى لا يخرجوا على ما يريدون ، والا فلن يأتوا بهم بعد ذلك ، وهنا تضيع المكافأة التى يقبضهـا « العالم » منهم ، ومن هنا فالسلامة السلامة .. والقبض للمكافأة على الصمت الذى هو من ذهب آخذا من المثل الشعبى « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » .

الجامعات اذن تمضى فى أغلب أعمالها على مذهب الفندقة فى

الفكر حتى لا يضار مجابه للحقائق .. والسلامة السلامة ــ وعلى الكل ان يؤمن بما قيل سابقا : « انج سعد فقد هلك سعيد » .

ومعنى هذا فشعار الفنادقة فى الأدب والفكر والجامعات هو « انج سعد فقد هلك سعيد » وغدا الأمر كما يقول الشاعر :

ممـــا يزهـــدنى فى أرض أندلس
أســماء معتضـد فيهـا ومعتمـد
ألقاب مملكة فى غـير موضـعها
كالقط يحكى انتفاخا صولة الأســد

والذى نفهمه ان هذه الأسماء تتخذ من الجبروت عادة وديدنا فى مصالحها ومؤسساتها على حين تتقرب الى من هم فوقهم من الرؤساء بانحناء الظهر كعلامة الاستفهام وتقبيل الأيدى حتى اللعق الى آخر ما يقال فى فن التزلف والنفاق والفندقة ..

الفصل الخامس

... وبعـــد

فقبل أن نتحدث عن الحل ، أو عن المخرج من ذلك الاقطاع الفكرى يجدر بنا أن نتحدث عن موقف الشباب بصفة عامة أولا ، وبصفة خاصة من قضيتنا ثانيا .

ان شباب العشرينات وما قبلها شباب يغلب عليه طابع الاستهتار وعدم المبالاة ، ذلك الشباب الذى يحول كل جد الى هزل حتى الروح العسكرية كالفتوة يحولونها الى ملهى .. والفرق بينهم وبين شباب الأربعينات الذى كان يهدر كالسيل كالاعصار فى وجه المستعمرين والذى ربى نفسه بنفسه تربية عسكرية .. الفرق بينهم وبين شباب الأربعينات كالفارق بين الهزل والجد أو بين الكذب والجد الى آخر ما فى قاموس اللغة من تشبيهات فى هذا الصدد .

ونحن اذا تأملنا موقفهم فى الأربعينات وهم فى ريعان الشباب والوعى الثورى يغلى فى رءوسهم كالمرجل ، لأن المستعمرين يقبعون على أراضينا والحكام يعيثون فى الوطن فسادا ، فأين منفرج الطريق أمام الشباب اذن ؟ ؟

تصور الشباب آنذاك أن منفرج الطريق فى الأحزاب التى كانت قائمة فى مصر .. وكانت المبادىء التى تعتنقها الأحزاب تتلخص فى مبدأين :

الأول : يتمثل فى عدم التفاهم مع الانجليز فى أى شأن من الشئون الداخلية وعدم الاتصال بهم الا فى المطالبة بجلائهم عن البلاد ، وكان دعاة هذا المبدأ يتمثلون فى رجال الحزب الوطنى ، ونظرا لأن هذا المبدأ خيالى أكثر منه واقعيا ، لأنهم كانوا يقررون الا مفاوضة مع الانجليز ، وانما هو الجلاء عن مصر والسودان

وملحقاتهما دون قيد ولا شرط ـ كان الشباب ينصرفون الى حزب الوفد ومشتقاته (١) .

الثاني : ويمثله حزب الوفد ومشتقاته ، ويتمثل هذا المبدأ في الاستعانة بالانجليز في الاصلاح الداخلي ، ثم أضيف الى ذلك بعد سنة ١٩١٩ السعي للاستقلال متى وجدوا للسعي سبيلا ، وهذا مدون في صيغة توكيل الأمة للوفد المصري .

وقد كان للوفد يسار بريادة الدكتور محمد مندور رحمه الله الذي كان يناوىء الاقطاعيين في الوفد ..

كما انضم فريق من الشباب الى بعض الجماعات التى كانت تخوض السياسة من وجهة نظر اسلامية كما تزعم .

* * *

أما موقف الشباب من قضيتنا « الاقطاع الفكرى » .. وبتعبير آخر موقفهم ازاء تلكم الاتجاهات المتعارضة المتصارعة والمتناقضة في الوقت نفسه ، والتى يحدث بينها ذلكم الاقطاع الفكرى بأبشع صوره وأسوءها .

ان الشباب ازاء هذا الموقف ليس له الا حل واحد لكى يباشر نشاطه الأدبى والفكرى ، ويتمثل ذلك الحل في الانتماء الى احدى القبائل أو الى احدى الشلل من هاتيكم القبائل والشلل التى تملأ حياتنا الأدبية بالدخان والصراع الذى تضيع معه كل معالم الانسانية في أفرادها ..

---

(١) ألف حزب الوفد في أواخر عام ١٩١٨ بعد الحرب ، والاحرار الدستوريون ألفوا حزبهم في عام ١٩٢١ ، وألف يحيى ابراهيم ونشأت حزب الاتحاد الذى كان يعمل للقصر في أواخر عام ١٩٢٤ ، وصدقى ألف حزب الشعب في عام ١٩٣٠ ، والسعديون ألفوا حزبهم ١٩٣٦/١٩٣٧ حينما خرجوا من الوفد ، والكتليون ألفوا حزبهم في عام ١٩٤٣ .. وكل هذه الاحزاب منتزعة من الوفد المصرى .

وبانتماء الشباب الى القبيلة التى يختارها خير كفيل لنشر نتاجه وتقويمه تقويما يجعل منه رائدا وموجها بعد اشتغاله بالأدب والفكر بأربع سنين أو تقل قليلا أو تزيد .

على الشباب أن يصنع هذا لكى يضمن نشر انتاجه وتقويمه ، والا كانت نتيجة نشر انتاجه سلة المهملات وادراج اسمه فى زاوية النسيان ..

واذن من اللازم اللازب لشداة الأدب والفكر أن ينتموا الى القبائل لكى يحققوا وجودهم الأدبى والفكرى ، لأنهم لو نظروا بعين فاحصة الى الذين لم ينتموا الى هاتيكم القبائل ، ووقفوا على حالهم بالرغم من أنهم ادباء كبار ، أو مفكرين عظام ، لوجدوا انهم اصبحوا نسيا منسيا وتجاهلهم زعماء هذه القبائل بله صغارها ، مع العلم بأن زعماء هذه القبائل ومن يتزعمونهم عيال على هؤلاء الأدباء وذلكم المفكرون فى الفكر والأدب ، ولكنها حكمة الله ؛ أو ولكنه الاقطاع الفكرى وآثاره ، اقتضت أو اقتضى ان يسير الفكر والأدب فى دروب ملتوية يتسكع خفافيش الادب والفكر ويتسكعون فيها ليل نهار . وما الحل حينئذ ؟ ؟

الحل يتمثل فى العمل على خلق روح الفريق بين المواطنين ، وذلك بوساطه التربية القويمة التى تهدف الى بثه الروح الجماعية على مستوى الدولة مع عدم الغاء الفروق الفردية الا فيما يمس سياسة الدولة وفلسفتها وأدبها .. ودون هـذا الحل نزعم أن الشبيبة ستنشأ على هذه الفرقة وذلك الانقسام الذى نراه فى الجو الأدبى والفكرى ، وحينئذ تخسر الدولة الكثير من جراء هذه الفرقة وذلك الانقسام : لأنها لن تطمع ــ فى هذه الحالة ــ فى ايجاد مذهب ادبى بله اتجاه يعبر عن وجدان هذه الأمة .

أما تلك القبائل النقدية التى نشأت كنتيجة حتمية للاقطاع الفكرى فيجب أن تلزم الدولة افرادها بمبادىء الميثاق وروحه ،

وان تجهز على محاولات القبائل التى تتسم بسمة الاقطاع الفكرى ، وأن تحول دون القيادات الفكرية التى تتصدى الحياة ، وتشارك بانحرافاتها عن الأهداف الأصيلة وتتيح الفرصة للعناصر الماجنة ليستولوا على القيادة الفكرية . وفى الوقت نفسه تباعد بين العناصر الصالحة وبين القيادة الفكرية والأدبية ، على الرغم من ان هذه القيادات الصالحة خرجت من صفوف القوى الشعبية التى كانت متطلعة للثورة والمطالبة بها .

والقبائل بهذا العمل انما تشجع على المراهقة الفكرية التى يحذر منها الميثاق ، ويصفها بالخطورة ، ويوصى بالتصدى لها والقضاء عليها ، وتبدو هذه المراهقة الفكرية فى هؤلاء القادة الذين يجمدون الكفاح الوطنى بتفسيرات أو قوالب تحد قدرته عن الانطلاق ، أو تشيع فيه روح التردد ، لأنهم بذلك يقللون من قوة المجتمع بقدر ضعفهم وعدم قدرتهم على التفكير المنبعث من الواقع الوطنى .

كما أن الميثاق لا يفتأ يوجه القادة مؤكدا لهم أن التقدم الوطنى لا تحققه كلمات محفوظة عالية الرنين ، لأن تحرير الطاقات الخلاقة لأى شعب من الشعوب يرتبط بالتاريخ ، ويرتبط بالطبيعة ، ويرتبط بالتطورات السائدة والمؤثرة فى العالم الذى نعيش فيه .

ومن ناحية أخرى فانه لا يوجد شعب يستطيع أن يبدأ تقدمه من فراغ ، والا كان يتقدم الى الفراغ ذاته ، والخطر فى المراهقة الفكرية اذن فى هذه المرحلة يتضمن أنها تخلق نوعا من الارهاب المعنوى يعرقل التجربة والخطأ .

وبجانب ذلك فان القيادات الجديدة المتصدية لتحريك التطوير الوطنى قوة هائلة لابد من حمايتها لتؤدى رسالتها الوطنية بالنجاح المطلوب .

على أن هذه القيادات نفسها فى حاجة الى حمايتها من نفسها

فى بعض الأحيان ، لانها قد تقع فى خطأ توهم ان المشكلات الكبرى للتطوير الوطنى تحل من خلال التعقيدات المكتبية والادارية ، وفى الواقع أن هذه التعقيدات انما تضع أعباء جديدة على العمل الوطنى دون أن تساعده .

وينبه الميثاق من الخطر الذى ينتج من صنيع هذه القيادات قائلا « انها لو تركت لخطأ وهمها قادرة أن تصبح طبقة عازلة تحول دون تدفق العمل الثورى وتجمد وصول نتائجه عن الجماهير التى تحتاج اليه . ان أجهزة العمل الادارى ترتكب غلطة العمر اذا ما تصورت أن اجهزتها الكبيرة غاية فى حد ذاتها ، ان هذه الأجهزة ليست الا وسائل لتنظيم الخدمة العامة وضمان وصولها الى الجماهير على نحو سليم (١) :

* * *

وبعد هذا التنبيه وذاك التحذير نرى الميثاق يتحدث عن قيمة الفكر ووعى المواطنين وتشجيع المفكرين ، وذلك حينما يذهب الى أن وعى كل مواطن بمسئوليته المحددة فى الخطة الشاملة ، كذلك ادراكه المحدد لحقوقه المؤكدة من نجاحها هو فضلا عن كونه توزيعا للمسئولية على نطاق الأمة كلها بما يعزز احتمالات الوصول الى الأهداف . هو فى الوقت ذاته عملية انتقال ثورية بمعنى العمل الوطنى من العموميات الشائعة المبهمة والغامضة الى وضوح ذهنى وعملى يربط الانسان الفرد فى نضاله اليومى بحركة المجتمع كلها ، ويشده فى اتجاه التاريخ ، كما أنه يوجد به حركة التاريخ فى نفس اللحظة .

ومن ناحية أخرى فان فلسفة العمل الوطنى يجب أن تصل الى جميع العاملين فى الوطن فى كافة المجالات ، بل ويجب أن تصل اليهم بالطريقة الأكثر ملاءمة بالنسبة لهم لكل منهم .

---

(١) الميثاق ص ١٠٠ وما بعدها .

واذا تحقق ذلك فانه يكفل دائما أن يكون الفكر على اتصال بالتجربة وأن يكون الراى النظرى على اتصال بالتطبيق التجريبى .

ويرى الميثاق ان الوضوح الفكرى من اكبر العوامل التى تساعد على نجاح التجربة ، كما أن التجربة بدورها تزيد فى وضوح الفكر ، وتمنحه قوة وخصوبة تؤثر فى الواقع وتتأثر به . ويكتسب العمل الوطنى من هذا التبادل الخلاق امكانيات اكبر لتحقيق النجاح .

وانه لمن الزم الأمور هنا تشجيع الكلمة المكتوبة لتكون صلة بين الجميع يسهل حفظها للمستقبل ، كما أنها تستكمل حلقة هامة فى الصلة بين الفكرة والتجربة ، انه من الأمور اللازمة تشجيع كل المسئولين عن العمل الوطنى أن يكتبوا أفكارهم لتكون أمام المسئولين عن التنفيذ ، كذلك من الضرورى تشجيع كل القائمين بالتنفيذ أن يكتبوا ملاحظاتهم لتكون أمام المسئولين عن التوجيه ، أن ذلك أمر لا يمكن ان يترك للصدفة أو الارتجال . وانما ينبغى تنظيمه ، لأن تنظيمه سوف يوفر للعمل الوطنى ذخيرة هائلة بغير حدود لآفاق الفكر ممتزجة بدقائق التنفيذ العملى .. ان هذه الذخيرة سوف تساهم فى رفع رصيد الكفاية الوطنية وتعميم نطاق الاستفادة بها (١) .

وفى موضع آخر يبين الميثاق أهمية الفكر فى تدعيم الثورة أيضا ، وذلك حينما يقول : « وهذه الثورة العربية تحتاج الى أن تسلح نفسها بالوعى القائم على الاقتناع العلمى النابع من الفكر المستنير ، والناتج من المناقشة الحرة التى تتمرد على سياط التعصب أو الارهاب (٢) .

كما انه يؤكد فى موضع ثالث أن الكلمة الحرة ضوء كشاف امام الديموقراطية السليمة وبنفس المقدار فان القضاء الحر ضمان نهائى

---

(١) راجع الميثاق ص ٩٧ وما بعدها الباب الثامن .
(٢) الميثاق ص ١٤ الباب الثانى .

وحاسم لحدودها . وحرية الكلمة هى التعبير عن حرية الفكر فى أى صورة من صوره (١) .

ولم ينسى الميثاق أيضا أن يتحدث عن حرية الفرد ومشروعية **تكافؤ الفرص** وذلك حينما يذهب الى أن جوهر الأديان السماوية تؤكد حق الانسان فى الحياة وفى الحرية ، بل ان أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل انسان . وكل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر ، ولا يرضى الدين بطبقة تورث عقاب الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم . ان الله جلت حكمته .. وضع الفرصة المتكافئة أمام البشر أساسا للعمل فى الدنيا وللحساب فى الآخرة .

ويرى أن حرية الانسان الفرد هى أكبر حوافزه على النضال .. والاقناع الحر هو القاعدة الصلبة للايمان ، والايمان بغير الحرية هو التعصب ، والتعصب هو الحاجز الذى يصد كل فكر جديد ، ويترك أصحابه بمنأى عن التطور المتلاحق الذى تدفعه جهود البشر فى كل مكان . كما أن الحرية وحدها هى القادرة على تحريك الانسان الى ملاحقة التقدم وعلى دفعه ، والانسان الحر هو أساس المجتمع الحر ، وحرية كل فرد فى صنع مستقبله وفى تحديد مكانه من المجتمع وفى التعبيرعن رأيه وفى اسهامه الايجابى فى قيادة التطور وتوجيهه بكل فكره وتجربته وأمله فى حقوق أساسية للانسان ، ولا بد أن تصونها له القوانين (٢) .

على أن هذا كله لا يتحقق ـ كما يقول الميثاق ـ الا عن طريق الديموقراطية الصحيحة ، وهى توكيد السيادة للشعب ووضع السلطة كلها فى يده ، وتكريسها لتحقيق أهدافه . وعن طريق

---

(١) الميثاق ص ٦٠ الباب السابع.
(٢) راجع الميثاق ص ٨٨ الباب السابع .

الاشتراكية الصحيحة التى هى ترجمة صحيحة لكون الثورة عملا تقدميا غايته اقامة مجتمع الكفاية والعدل .. مجتمع العمل وتكافؤ الفرص .. مجتمع الانتاج ومجتمع الخدمات ..

وذلك لأن الديموقراطية هى الحرية السياسية ، والاشتراكية هى الحرية الاجتماعية ، ولا يمكن الفصل بين الاثنتين . انهما جناحا الحرية الحقيقية ودونهما أو دون أى منهما لا تستطيع الحرية ان تحلق الى آفاق العدل المرتقب (١) .

على أن الميثاق يرى أن الحل الاشتراكى حتمية تاريخية فرضها الواقع ، وفرضتها الآمال العريضة للجماهير ، كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم فى النصف الثانى من القرن العشرين .. حتمية تاريخية لمشكلة التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى مصر ليمكنها بذلك أن تصل ثوريا الى التقدم المنشود .

ويخصص الميثاق الاشتراكية ، بالاشتراكية العلمية لانها هى الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم ، وان اى منهاج آخر لا يستطيع بالقطع ان يحقق التقدم المنشود .

ومعنى هذا ان الحل الاشتراكى هو المخرج الوحيد الى التقدم الاقتصادى والاجتماعى والأدبى والفكرى ، وهو طريق الديموقراطية بكل أشكالها السياسية والاجتماعية والفكرية ..

***

واذا كانت هذه توجيهات الميثاق وتحذيراته ، واذا كان الميثاق قد صدر منذ سنوات : فأين نحن من هذه التوجيهات فى ميدان الفكر والأدب .. اين نحن من الأمل المنشود فى الفكر والأدب .. هل

---

(١) راجع الميثاق ص ٤٢ وما بعدها الباب الخامس .

أدركناه ؟. أم أنه لازال بيننا وبينه سنين طويلة تعدل المدة التى تكفى لتهذيب سلوكنا واخلاقنا نحن الأدباء والمفكرين ، ودون ذلك لا نعد أدباء ومفكرين اشتراكيين لأن الاشتراكية كما قلنا سابقا فى أكثر من موضع سلوك وأخلاق وفكر ..

ومن ثم نستطيع أن نقول اننا لن نصل الى ما يهدف اليه الميثاق فى ميدانى الأدب والفكر الا بمزيد من الرقابة ومزيد من الحزم فى اقصاء من لم يثبت عليه أن سلوكه غير اشتراكى فى هيمنته على المؤسسات الثقافية التى يديرها أو التى هو عضو فيها ، والا لأصبحنا نهبا للأهواء والأغراض من الشخصية لكل القبائل مجتمعة ومنفردة ، وحينذاك يغدو العلاج عسيرا وغير مجد .

* * *

ومهما يكن من أمر فهذا كتابنا بين يدى القارىء ، وهو مساهمة فعالة من جانبنا فى الكشف عن أثر الاقطاع فى الفكر لنتبين مدى ما وصلت اليه من تحقيق الاشتراكية فى الفكر التى ترسبت قواعدها فى أذهان المواطنين ونفوسهم ، وذلك لتنير الطريق لحملة المشاعل الذين يقودون السفينة تجاه الشاطىء السعيد ، والذين يجاهدون جهاد الأبطال الجبابرة من أجل الوصول الى حياة أفضل لمواطنيهم ومجتمعهم بأوسع ما تدل عليه كلمتا المواطن والمجتمع .

سنواصل دراسة التطبيق الاشتراكى فى كتابينا نحو ثورة ثقافية ونحو ثورة تعليمية ...

دكتور
عبد الحي دياب

فهرس

الثمن ٢٠ قرشا



